رواية من العام ١٩٠٠

إميليو سالغاري

زهرة القيامة

عجائب الألفيَّة الثَّالثة



ترجمها عن الإيطالية: أمارجي



المتوسط

إميليو سالغاري (١٨٦٢-١٩١١): وُلِدَ في مدينة فيرونا لأسرةٍ ثريَّةٍ تعمل بالتِّجارة. التحق بالمعهد البحريِّ في البندقيَّة وما لبث أن ترك دراسته ليعمل في المجال الصحفيِّ. اشتُهر بكتابة القصص القصيرة والمسلسلة على صفحات الجرائد، حتَّى تهافتت عليه دور النَّشر فألَّفَ ما يقارب الثَّمانين روايةً تتحدَّث جميعها عن مغامرات البحار والبلاد البعيدة التي تعكس ولعه بالملاحة والاستكشاف. ورغم الاعتراف بمكانته الأدبيَّة عاش سالغاري حياةَ فقرٍ وعزلةٍ في مكتبه، وانغمسَ في الكتابة حتَّى دخل حالةَ اكتئابٍ أفضت به إلى الانتحار في مدينة تورينو.

ترك سالغاري إرثاً كبيراً من القصص والرِّوايات، بلغ أكثر من ثمانين روايةً ومائة قصَّة. بعد موته، صدرت عشرات الرِّوايات التي نُسِبَتْ إليه، والتي لم تكن حقيقةً له، فقد أصبح يمثِّل بعد موته مدرسةً قائمةً بذاتها، وبدأ الكُتَّاب يحذون حذوه ويقلِّدون أسلوبه، فصدر إثر ذلك عددٌ هائلٌ من الرِّوايات التي اتَّخذ كُتَّابُها من أسلوب سالغاري وطريقته في الكتابة منهلاً لهم. معظم تلك الرِّوايات صدرت بتوقيع كاتبٍ ما أضاف إلى اسمه اسمَ أحد أبناء سالغاري.

المتوسط

يُعَدُّ سالغاري، كما هو الحال مع أُمبرتو إيكو وإيتالو كالفينو، أكثر الرِّوائيِّين الإيطاليِّين ترجمةً وانتشاراً في العالم؛ وكان نِتاجُ سالغاري الأدبيُّ مصدرَ إلهامٍ للكثير من عظماء الأدباء والسِّينمائيِّين الذين شغفوا بحبِّ رواياته، فقد أُنتج من رواياته ما يقارب الإثنين والأربعين فيلماً سينمائياً.

في مكتبة المخرج الإيطاليِّ الشَّهير فيديريكو فيلليني كان ثمَّة أكثر من خمسين روايةً لسالغاري. ومن بين الكُتَّاب الذين عشقوا سالغاري وقرأوه وألهمت رواياته خيالَهم: أُمبرتو إيكو، غابرييل غارسيا ماركيز، كارلوس فوينتس، خورخي لويس بورخيس وبابلو نيرودا. وقد ألهمت أعمالُه كبارَ المخرجين أمثال ستيفن سبيلبيرغ وسرجو ليون. كما أنَّ تشي جيفارا قرأ اثنتين وستِّين روايةً من روايات سالغاري، حتَّى أنَّ "باكو إنياثيو تايبو" كاتبَ مذكَّرات جيفارا، عزا أفكارَ هذا الأخير ضدَّ الإمبرياليَّة إلى سالغاري.

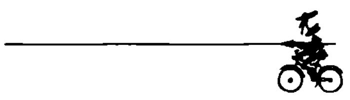


منشورات المتوسط

زهرة القيامة
t.me/t_pdf

المؤلف: إميليو سالغاري / المترجم: أمارجي
عنوان الكتاب: زهرة القيامة - عجائب الألفيَّة الثَّالثة
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة الغلاف: **Science Source images**
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-67-3



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

إميليو سالغاري

زهرة القيامة

عجائب الألفيَّة الثَّالثة

ترجمها عن الإيطالية: **أمارجي**

مكتبة | 531



المتوسط

زهرةُ القيامة

كان المركبُ البخاريُّ الصَّغيرُ الذي يؤدِّي الخدمةَ البريديَّةَ مرَّةً في الأسبوع بين نيويورك، أكثر مدن ولايات أمريكا الشَّماليَّة المتَّحدة ازدحاماً بالسُّكان، وبين البلدةِ الصَّغيرةِ المُقامَةِ على جزيرة نانتوكيت، قد دخلَ في ذلك الصَّباح الميناءَ الصَّغيرَ مع مسافرٍ وحيدٍ على متنه. كان يحدث كثيراً خلال فصلِ الخريف، ومع انقضاء موسم التَّصييف، أنَّ عدداً قليلاً جدَّاً من الأشخاص كان يرسو بمركبهِ على تلك الجزيرة التي كانت تقطنها بضعة آلافٍ فحسب من عوائل الصَّيَّادين الذين لم يكونوا يعبأون إلَّا بغمرِ شِباكهم في عُبابِ الأطلسيِّ.

"سيِّد براندوك"، صاحَ الرُّبَّان في اللحظة التي رسا فيها المركبُ البخاريُّ الصَّغيرُ على جانب الجسر الخشبيِّ، "لقد وصلنا".

نهضَ المسافرُ، الذي بقي طَوالَ الرِّحلة جالساً على الجؤجؤ دون أن يتبادلَ كلمةً مع أحدٍ، وعلى وجهه سيماءُ ضجَرٍ لم تُفلِتْ لا مِن عينَي الرُّبَّان، ولا مِن عيون البحَّارة الأربعة.

"كلُّ مُتَعِ نيويورك لم تُفلح في إبرائه من كآبته"، همهمَ مديرُ دفَّةِ المركب الصَّغير، ملتفتاً إلى رفاقِه. "ولكن، ما الذي ينقصُه؟ إنَّه وسيمٌ، وفتيٌّ، وثريٌّ... يا ليتني كنتُ مكانَه!...".

كان المسافرُ في واقعِ الأمر شاباًّ وسيماً، بين الخامسة والعشرين والثَّامنة والعشرين من عمره، طويلَ القامةِ كما هو في العادة شأنُ جميعِ الأمريكيِّين، الأخوةِ التَّوائم للإنجليز، مع تلك الملامح المعتادة، عينَين زرقاوَين وشعرٍ أشقر.

ولكن كان ثمَّة في نظراتِه شيءٌ لا أعرف كُنهَه، شيءٌ حزينٌ وغامضٌ كان يخترق أعماق كلِّ أولئك الذين كانوا يقتربون منه، وفي حركاته كان ثمَّة شيءٌ من التَّثاقلِ والإعياء يتناقض بشدَّةٍ مع بُنيتِهِ القويَّةِ واليانعة.

لربَّما ظنَّ أحدُهم أنَّ مرضاً خفيّاً كان ينخرُ فتوَّتَه وصحَّتَه، على الرَّغم من اللون الورديِّ لجلدِه، ذلك اللون الذي هو علامةٌ على الثَّراء وعلى أصالة الدَّم المتحدِّرِ من سُلالاتٍ أنجلوسكسونيَّةٍ قويَّة.

وكما قلنا، حين سمع السَّيِّد براندوك صوتَ رُبَّان المركب، نهض كما لو بشقِّ الأنفس، أو كما لو أنَّه كان ينهض في تلك اللحظة من رقدةٍ طويلة.

تثاءبَ مرَّتين أو ثلاث مرَّات، ألقى نظرةً ناعسةً على الشَّاطئ، ثمَّ بالكاد لمسَ حافَّة قبَّعتِهِ ليردَّ على التَّحيَّة الرَّصينةِ التي ألقاها البحَّارة عليه قبل أن ينزلَ القنطرةَ الخشبيَّةَ بفُتور.

بدلاً من التَّوجُّه إلى البلدة، التي كانت بيوتُها الصَّغيرة تصطفُّ على بُعدِ مئتي خطوةٍ من الميناء، راح يتنزَّه على طول الشَّاطئ، بيدَين غائصتين في جَيبَي بنطاله وعينين نصف مُغمضتَين، كما لو كان نَهْبَ شكلٍ من أشكال السَّرنمة(*).

حين بلغَ آخرَ تخومِ البلدة توقَّف وفتح عينيه، مُسمِّراً إيَّاهما على شِرذمةٍ

*) اضطرابُ السَّير أثناء النَّوم؛ (م).

من الصِّبيةِ الذين كانوا حفاةً بالرَّغم من الهواءِ اللاسعِ، وكانوا يتراكضون على امتدادِ الكثبان الرَّمليَّة مُطلِقين الصَّيحات والضَّحِكات.

"هي ذي كائناتٌ سعيدة" غمغمَ بنبرةٍ شابَها الحسد. "إنَّهم على الأقلِّ لا يعرفون ما هي الكآبة".

بقيَ بضعَ لحظاتٍ ثابتاً في مكانه، هزَّ رأسَه، ثمَّ أرسلَ تنهيدةً طويلةً واستأنفَ نزهتَه، ليتوقَّف بعد بضع دقائق من ذلك أمام منزلٍ جميلٍ مكوَّنٍ من طابقين، أبيضَ بالكامل، مع نوافذ طُلِيَت دُرَفُها بالورنيش اللامعِ وحديقةٍ صغيرةٍ مُسيَّجَةٍ بسورٍ من الخشب.

"ما الذي يفعله الطَّبيب؟" همهمَ، محدِّقاً في النَّوافذ. "لا بدَّ وأنَّه يعذِّبُ خنزيراً غينيَّاً أو أرنباً عاثرَ الحظِّ. سرُّ القدرة على الحياة بعد مِائة عام، يا لها من فكرة! أعتقد أنَّ طوبي الطَّيِّب يُضيِّعُ وقتَه سُدىً. ومع ذلك فهو أكثر سعادةً بكثيرٍ منِّي".

عاد يتنهَّدُ من جديد، وببطءٍ عَبَرَ الحديقةَ التي كانت بوَّابتُها مفتوحةً وصعدَ الدَّرَجَ رادَّاً بالكاد على تحيَّةِ خادمةٍ بدينةٍ ومتورِّدةِ الوجه كانت تصيحُ من وراء نافذة المطبخ:

"عمتَ صباحاً يا سيِّد براندوك، إنَّ سيِّدي موجودٌ في مُحترَفِه".

غير أنَّ الشَّابَّ كان قد بلغ الطَّابقَ الثَّاني حينذاك. فتحَ باباً ودخلَ غرفةً فسيحةً إلى حدٍّ ما ومُضاءةً بشكلٍ جيِّدٍ بفضلِ نافذتين واسعتين، ومحفوفةً من كلِّ جانبٍ برفوفٍ من خشب الجوز مكتظَّةٍ بعددٍ لا يُحصى من الحواجل والقوارير المتعدِّدة الألوان والأحجام.

في وسطها، منحنياً على طاولةٍ، وقف رجلٌ ينوف عمرُه على الخامسة والخمسين، هرقليُّ الهيئة، وذو لحيةٍ طويلةٍ وَخَطَها الشَّيبُ قليلاً، منكبَّاً بالكامل على مراقبةِ أرنبٍ بدا، لأوَّلِ وهلةٍ، إمَّا ميِّتاً وإمَّا نائماً.

ما إن سمعَ البابَ يُفتَح حتَّى رفعَ نظَّارتَه والتفتَ بحيويَّةٍ، هاتفاً بصوتٍ مبتهجٍ:

"آه! صديقي جيمس، هل عُدت؟ لقد سئمتَ باكراً من نيويورك ويبدو لي مِن سيماكَ أنَّك لست راضياً كثيراً".

تهاوى الشَّابُّ على كرسيٍّ كان موجوداً بالقرب من الطَّاولة وكان جوابُه ابتسامةً حزينة.

"فإذاً؟" سأل الكهلُ، بعد صمتٍ قصير.

"إنَّني أشدُّ سأماً من ذي قبل وإنَّها لمعجزةٌ أنَّني هنا"، أجابَ براندوك.

"لماذا؟"

"لأنَّني قرَّرتُ بالفعل أن أقومَ بقفزةٍ كبيرةٍ من أعلى تمثال الحرِّيَّة وأهشِّمَ نفسي على مكسرِ الأمواج".

"إنَّه لَهراءٌ مقيتٌ، يا عزيزي جيمس. في السَّادسة والعشرين، مع مليون دولار...".

"ومِائة مليون سأمةٍ تجعلني أتثاءب من الصَّباح إلى المساء" قال الشَّابُّ، مُقاطعاً إيَّاه. "كلَّ يومٍ تصبحُ الحياةُ غيرَ مُحتملةٍ أكثر من اليوم

الذي قبلَه ولا ريب أنَّها ستُفضي بي إلى قتل نفسي. إنَّ رحلةً إلى العالمِ الآخر لن تكون شيئاً آسَفُ له. لعلَّ سأمي يخفُّ هناك".

"بل اجعلْها رحلةً في هذا العالم، يا صديقي".

"أين تريدني أن أذهب، يا طوبي؟" قال براندوك. "لقد زرتُ أستراليا، وآسيا، وإفريقيا، وأوروبَّا، وأمريكا الوسطى. ما الذي تريدني أن أراهُ بعدُ؟"

أخذ الطَّبيبُ يذرع الغرفةَ جيئةً وذهاباً، يداه خلف ظهره، ورأسه نحو الأسفل، كما لو أنَّ فكرةً عميقةً كانت تستحوذ عليه. فجأةً توقَّف أمام الأرنب، قائلاً:

"ها جيمس، أتحبُّ أن ترى كيف سيسيرُ العالمُ بعد مِائةِ عامٍ؟"

رفعَ الشَّابُّ براندوك رأسَه التي كانت مائلةً نحو إحدى الكتفين، مُستنطِقاً الطَّبيبَ بنظرتِه.

"أجل،" استأنف طوبي كلامَه "أريدُ أن أرى ما ستكون عليه أمريكا بعد عشرين خمسيَّة(*). من يدري ما العجائب التي يمكن أن يبتكرها البشر؟ آلاتٌ خارقة، سفنٌ عملاقة، مناطيدُ مُوجَّهة والآلاف من الأشياء الأخرى المدهشة. فعبقريَّة الإنسان لم يعد يوقفها شيءٌ، والمبتكرون ينبتون مثلَ الفطر".

"هل عثرت أخيراً على طريقةٍ لإطالة الحياة؟" سألَ براندوك، بنبرةٍ خالطَتْها سخريةٌ خفيفة.

"بل على العكس، لإيقافها".

*) فترةٌ تمتدُّ خمسَ سنواتٍ، وبالتَّالي فإنَّ عشرين خمسيَّةٍ تعادلُ قرناً؛ (م).

"آه!"

"أتريد دليلاً على ذلك؟"

"أيُعقل أنَّك توصَّلتَ إلى اكتشافٍ من هذا القبيل؟" هتف براندوك مشدوهاً. "أعلمُ أنَّك مُكِبٌّ منذ سنواتٍ عديدة على القيام ببعض التَّجارب".

"ولقد نجحَتْ كلِّيّاً" قالَ الطَّبيب. "أترى هذا الأرنب؟"

"هل هو مَيْتٌ؟"

"لا، إنَّه نائمٌ منذ أربعة عشر عاماً".

"هذا مستحيلٌ".

"بعد لحظاتٍ سأعيده لك إلى الحياة بحقنةٍ بسيطةٍ وحمَّامِ ماءٍ فاتر".

"أيَّ شرابٍ سحريٍّ هذا الذي اكتشفتَ؟ إنَّك لا تهزِئُ بي، أليس كذلك يا طوبي؟"

"ولأيِّ غرضٍ سأهزِئُ بك؟ فلنوصدْ الأبواب لئلَّا يرانا أو يسمعَنا أحد، وسوف تشهدُ بأمِّ عينك قيامةً رائعة".

أدارَ المفاتيحَ في أقفالها، وأغلق النَّوافذ قليلاً، ثمَّ أدنى كرسيَّاً من الطَّاولة وبعدَ أن قدَّمَ لصديقه الشَّابِّ سيجاراً، قال:

"أصغِ إليَّ الآن؛ وبعد ذلك تبدأ التَّجربة".

بعد أن بقي لبضع لحظاتٍ صامتاً، مستغرقاً في أفكاره، نهض طوبي

ليتناول عن أحد الرُّفوف وعاءً زجاجيّاً يحتوي على نبتةٍ صغيرةٍ مجفَّفة، بدتْ فريدةً من نوعها.

"أرأيتَ واحدةً مثلها من قبل، يا صديقي جيمس؟"

رمقَ الشَّابُّ براندوك الطَّبيبَ بشيءٍ من الذُّهول، قائلاً:

"أودُّ لو أعرف ما شأن هذه النَّبتة بالأرانب التي تنام لسنواتٍ عديدة. لا أتصوَّرُ أنَّك تنوي أن تزيد من ضجري".

"لا، على الإطلاق" واصلَ طوبي كلامَه بهدوء. "ليس لديك معرفةٌ بهذه الزَّهرة إذاً، مع كلِّ تلك الأسفار التي قمتَ بها؟"

"تعلم جيِّداً أنَّني لم أخض في علم النَّبات يوماً".

"ولم تسمع قطُّ أحداً يتحدَّث عن زهرة القيامة؟"

"لا، أبداً" قالَ الشَّابُّ.

"أصغِ إليَّ إذاً: فالقصَّة شائقةٌ ولن تكون مبعثَ سآمةٍ لك. قبل خمسين عاماً، سافر زميلٌ في المهنة، هو الطَّبيبُ دِكْ، إلى صعيد مصر بقصد العثور على كنزٍ قديمٍ من المعادن كانت الرَّعيَّةُ في بعض الحِقَب الفرعونيَّة تشتغل بها. ذات يومٍ التقى برجلٍ عربيٍّ مريضٍ فداواه بكلِّ حبٍّ ومودَّة، منقذاً حياته. ابنُ الصَّحراء ذاك كان رجلاً فقيراً، ومع ذلك أرادَ أن يكافئ مُنقِذَه، فما كان منه إلَّا أن أعطاه جوهرةً تعادلُ وحدها كلَّ حجارة الأرض الكريمة معاً".

"وماذا كانت؟" سألَ براندوك، وقد بدأ يستغرق في تلك القصَّة التي كانت تشبه واحدةً من قصص *ألف ليلةٍ وليلة*.

"كانت نبتةً صغيرةً مُتيبِّسَةً لا مثيل لها في الجمال، عثر عليها العربيُّ في قبرٍ قديمٍ جدّاً، في حضن كاهنةٍ مصريَّة. لم يستطع الطَّبيبُ دِكْ، وهو يستمع إلى تلك المدائح المفخَّمة المسبَغة على تلك الزَّهرة الصَّغيرة، المدفونةِ قبل قدوم المسيحيَّةِ بقرونٍ لا يعلمُ أمدَها إلَّا الله، والملأى ببراعم صغيرةٍ ملفوحةٍ بالشَّمس ومُصْفرَّة،- لم يستطعْ إمساك نفسِه عن الابتسام".

"ولَكُنتُ أنا أيضاً فعلتُ الشَّيءَ نفسَه" قالَ براندوك.

"ولَكُنتَ ارتكبتَ خطأً"، قالَ طوبي "ذلك أنَّ العربيَّ أخذ النَّبتةَ، ونثرَ عليها بضع قطراتٍ من الماء فإذا معجزةٌ رائعةٌ تتحقَّق تحت أنظار الطَّبيب. ما إن أحسَّتِ النَّبتةُ بالنَّداوة حتَّى راحت ترتعش، ثمَّ تهتزُّ، فيما بدأت أنسجتها تتسوَّى وبراعمها تنتفخ وتنفغر. شيئاً فشيئاً تفتَّحت الزَّهرة، بعد عشرين قرناً وأكثر من السُّبات، متلوِّيةً ببتلاتها الرَّقيقة التي تمطَّتْ مثل أشعَّةٍ خلَّابةٍ حول نقطةٍ مركزيَّة، وهي تفيض رونقاً ونضارة".

"يا لها من ظاهرةٍ غريبة!" هتف براندوك، وقد بدا أنَّه نسيَ كآبتَه.

"تلك الزَّهرة،" أضافَ الطَّبيب "كانت أشبه بزهرة أقحوانٍ قُطِفَتْ من حديقةٍ مسحورة. تلك القيامةُ المُلغِزة دامت عدَّة دقائق، ثمَّ ما لبثت الزَّهرةُ أن أخنَتْ رويداً رويداً تويجاتها القزحيَّةَ الألوان، كاشفةً وسطَ البتلات عن بضع بُذيراتٍ أكلَ عليها الدَّهرُ وشرب. واأسفاه! البذور الثَّمينة التي كانت زهرةُ القيامة تحرسُها بمُداراةِ أمٍّ غيور، كانت لقرونٍ عديدةٍ خلتْ وعلى نحوٍ ميؤوسٍ منه عقيمةً. أيُّ تربةٍ كان من الممكن ائتمانها على تلك البذيرات؟ أيُّ شمسٍ كانت ستستطيع إبقاءها على قيد الحياة؟ حائراً ومنبهراً، حملَ الطَّبيبُ النَّبتة العجيبة معه إلى أوروبَّا، وهناك أعادَ مئات المرَّات التَّجربة

التي قام بها العربيُّ العجوز، ودائماً كانت زهرةُ الصَّحراء، نبتةُ الفراعنةِ القدماءِ المُلغِزة، تنبعث بجمالها الأبديِّ من الموت بفضل بضع قطراتِ من الماء. فلمَّا كان في النَّزع الأخير، أهدى الطَّبيبُ دِكْ زهرةَ القيامة لتلميذه وصديقه جيمس الذي كرَّر هو أيضاً، بنفس القدر من النَّجاح، تلك التَّجربة الخارقة للعادة. في نهاية المطاف انتهتْ زهرةُ تلك النَّبتةِ المصريَّة بين يدَي ألكسندر هومبولت(*)، وقد قام عالمُ الطَّبيعة العظيم هذا بإعادتها عدَّة مرَّاتٍ إلى الحياة أمام أنظار زملائه الواسعي العِلم. لم تكن الزَّهرةُ الغامضة تفعل شيئاً بين يديه سوى أنَّها كانت تنبعث ثمَّ تموت، من دون أن يتمكَّن هو من فهم أسرارها؛ وفي كلِّ مرَّةٍ كان يكرِّرُ بحُرقةِ عبقريٍّ عاجزٍ القولَ: "ليس ثمَّة شيءٌ في الطَّبيعةِ يشبه هذا النَّبات!""

"ولا أحد تمكَّن من فهم لغز تلك النَّبتة المنهوبة من القبر، والتي بعد آلاف السِّنين كانت تعود إلى الحياة بفضلِ قطرةِ ماءٍ وتفتحُ بتلاتِها ذات الجمال الأبديِّ، كما لو لكي تقول للعالَم: "انظروا كيف كنتُ أبدو في زمن الفراعنة"؟" سألَ براندوك.

"بلى، رجلٌ واحدٌ فقط: أنا" قالَ طوبي.

"أنت؟!"

"نعم، أنا" كرَّرَ الطَّبيب.

"فإذاً؟..."

*) ألكسندر فون هومبولت (١٧٦٩-١٨٥٩)، كان مستكشفاً وعالماً طبيعيّاً ألمانيّاً، كان لكتابه "كوسموس" المكوَّن من خمسة أجزاء الدَّور الكبير في تأسيس القواعد التي قام عليها علم البيوجغرافيا، وخصوصاً الجغرافيا النَّباتيَّة، وقد وصفه داروين بأنَّه "أعظم عالِمٍ رحَّالٍ على وجه الأرض"؛ (م).

"مهلاً، إنَّه سرٌّ. خلال رحلةٍ قمت بها إلى مصر قبل خمسةٍ وعشرين عاماً، استطعتُ أن أحصلَ على واحدةٍ من تلك الأزهار وأن أدرسَها وأفسِّرَ أسرار قيامتِها. ومن تلك الزَّهرة انبجستْ عندي فكرةُ إيقاف الحياة البشريَّة لأجعلها تستفيق من جديدٍ بعد أعوامٍ طويلةٍ نسبيَّاً. لأنَّه إذا كان من الممكن لزهرةٍ ضئيلةٍ متواضعةٍ أن تولدَ من جديدٍ، أفليس من الممكن أيضاً لمنظومةٍ عضويَّةٍ كاملةٍ كتلك التي للإنسان أن تفعلَ الشَّيءَ نفسَه؟ هذا هو السُّؤال الذي وجَّهتُه إلى نفسي وللإجابة عنه استنفدتُ خمسةً وعشرين عاماً من عمري في أبحاثٍ متواصلة".

"وهل توفَّقتَ في ذلك؟"

"كلِّيَّاً" أجابَ طوبي.

نهضَ، مقترباً من الطَّاولة، وأخذ بين يديه الأرنبَ الذي كان يبدو مَيْتاً برأسٍ وقوائمَ متحجِّرة.

"ألَهُ رائحةٌ، هذا الحيوان؟ هلَّا تشمُّه، يا جيمس. أتحسبه مَيْتاً؟"

"إنَّه باردٌ وقلبه لا ينبض".

"ولكنَّ الأمرَ ليس سوى أنَّ حياته معلَّقةٌ منذ أربعة عشر عاماً".

"أهو الموت الاصطناعيُّ إذاً ما توصَّلتَ إلى اكتشافه؟"

"حقنةٌ بسيطةٌ من تِرياقيَ السِّرِّيِّ كانت كافيةً لإيقاف نبض قلب هذا الحيوان وحِفظِهِ لأمدٍ طويلٍ جدَّاً".

"إنَّه لأمرٌ مُذهلٌ حقَّاً!"

"ليس بالقدر الذي يبدو عليه" قال الطَّبيب. "أتعلم من هم الدَّراويش؟"

"إنَّهم متعصِّبون هنود يقومون بأفعالٍ عجائبيَّة".

"وهم في بعض الأحيان يدفنون أنفسهم لأربعين بل وحتَّى لخمسين يوماً داخل صندوقٍ مُحكَم الإغلاق، وقد سدُّوا أفواههم ومناخرهم بطبقةٍ من الشَّمع، وبعد انقضاء تلك المدَّة يعودون إلى الحياة من دون أن يبدوَ عليهم أنَّهم تعذَّبوا. حمَّامُ ماءٍ ساخنٍ، مِن ثَمَّ، وقليلٌ من الزُّبدة على اللسان لجعله أكثرَ لِيناً فإذا هم أحياء من جديد. سترى الآن".

تناولَ عن أحد الرُّفوف قارورةً زجاجيَّةً صغيرةً تحتوي على سائلٍ أحمر، وغمسَ فيها مِحقناً، ثمَّ وخز الأرنبَ مرَّتين، مرَّةً في ناحيةِ القلب، والأخرى في الرَّقبة.

لم يُبدِ الحيوان أيَّ علامةٍ على الحياة وبقيَ على تصلُّبه.

"رويداً يا جيمس" قال الطَّبيب، وقد رأى ابتسامةَ شكٍّ تلوح على شفتَي الشَّاب.

كان ثمَّةَ في إحدى الزَّوايا جفنةٌ معدنيَّةٌ، يتوهَّجُ من تحتها مصباحٌ كحوليٌّ. غمسَ الطَّبيبُ فيها إصبعاً ليتأكَّد من حرارة الماء، ثمَّ رفعَها ووضعها على الطَّاولة.

"أتريدُ أن تمنحَ حمَّاماً لهذا الميِّت؟" تساءلَ براندوك.

"تقصدُ لهذا النَّائم" صوَّبَ الطَّبيبُ. "من الضَّروريِّ تلطيفُ أعصاب هذا النَّؤوم بعد أن توقَّفتْ لسنواتٍ عديدةٍ عن العمل".

"إذا تمكَّنتَ من إحياء هذا الحيوان، فسأعلنكَ أعظمَ عالِمٍ على وجه الأرض".

"لا أطلبُ أكثر من ذلك" أجابَ طوبي، ضاحكاً.

غمسَ الأرنبَ في الجَفنة، مُبقياً رأسَه خارجَ الماء، ثمَّ أخذ يرفع ويَخفض القائمتين الأماميَّتين، كما لو ليحرِّضه على التَّنفُّس، وراح ينتظر، محدِّقاً في صديقه الذي بدا جدِّيّاً تماماً.

"يبدو أنَّك بدأت تُقِرُّ بالنَّتيجة الرَّائعة لهذه العمليَّة الغريبة" قال له الطَّبيب. "أليس كذلك يا جيمس؟"

"ليس بعد" أجابَ الشَّابُّ.

"على أيَّةِ حالٍ أشعرُ بأنَّ رأسَ الأرنب بدأت تَدْفأ".

"إنَّه تأثيرُ حرارةِ الماء".

"وبأنَّ اللحمَ يرتعش".

"لا أراه يحرِّك قوائمه".

فجأةً أطلقَ صرخةَ انشداه؛ لقد فتحَ الأرنبُ عينيه وحملقَ في الطَّبيب بحدقتين متَّسعتين.

"أيبدو لك مَيْتاً الآن؟" قال طوبي، بلهجةٍ ساخرة.

"إنَّه يحدِّق فيك!" هتفَ الشَّابُّ.

"أرى ذلك".

"إنَّه يحرِّك قوائمَه!"

"ويتنفَّسُ أيضاً".

"إنَّها معجزةٌ!... معجزة!..."

"اصمتْ يا جيمس، لا تصرخ بصوتٍ عالٍ".

"مُذهلةٌ هذه القيامة!"

"لن أنفيَ ذلك".

"هذا اكتشافٌ من شأنه أن يقلب العالَمَ رأساً على عقب".

"لا على الإطلاق، فأنا حريصٌ جدَّاً على عدم البوح بهذا السِّرِّ. لسنا سوى ثلاثة أشخاصٍ على درايةٍ بالأمر: أنا، وأنت، وكاتبُ عدلِ هذه البلدة، فخامة السَّيِّد ماكس".

"ولماذا كاتبُ العدلِ على درايةٍ بالأمر هو الآخر؟" سألَ براندوك.

"ستعلم فيما بعد: تأمَّل النَّتيجة الآن".

كان قد رفعَ الأرنبَ من الجفنة ووضعه على الطَّاولة، بعد أن لفَّه بقطعة قماشٍ من الصُّوف.

كانت عينا الحيوان مفتوحتَين، وكان يتنفَّسُ بطلاقةٍ مكشِّراً بأنفه، ولكن كان يُرَى بوضوحٍ أنَّه كان ضعيفاً جدَّاً، غيرَ قادرٍ على الوقوف على قوائمه، ولا على الإتيان بمحاولةٍ للهرب. لا بدَّ وأنَّه كان مصعوقاً.

"ألن يموت؟" سألَ براندوك.

"هذا المساء ستراه يأكل ويركض مع قُرَنائه الذين أحتفظ بهم هناك في حديقتي. ليس أوَّل أرنبٍ أبعثه من الموت؛ فقبلَ أسبوعٍ أعدت أرنباً آخرَ إلى الحياة أمامَ كاتب العدل وهو كذلك كان نائماً منذ أربعة عشر عاماً. إنَّه الآن يأكل ويقفز وينام كما البقيَّة، وجميع أعضائه تعمل على نحوٍ مثاليٍّ تماماً".

"إنَّك يا طوبي،" هتفَ براندوك بإعجابٍ عميقٍ "رجلٌ عظيمٌ حقّاً؛ إنَّك أعظم علماء هذا القرن".

"هذا القرن، أم القرن الآخر؟" سألَ الطَّبيب.

"أيُّ سؤالٍ هذا؟"

"عزيزي جيمس، لا بدَّ أنَّك جائعٌ ووجبةُ الغداء جاهزة. هواءُ البحرِ يشحذ الشَّهيَّة وقد وعدَتْني ماغي العجوز بطبق سمكٍ لا يُضاهَى. فلنترك الأرنبَ هنا، ولنمضِ لنملأ البطون: ستكون الطَّاهية قد بدأت تغضب بالفعل بسبب التَّأخير. سينضمُّ إلينا كاتبُ العدل كذلك لتناول حلوى البودِنق".

"ولماذا كاتبُ العدل؟"

بدلاً من الرَّدِّ، أطلَّ الطَّبيبُ من النَّافذة، وإذْ رأى صبيّاً يسقي مساكبَ الحديقة صاحَ به:

"ها توم، أخبر ماغي بأنَّنا جاهزان لتذوُّقِ أسماك السُّلطان إبراهيم وأسماك البوري المذهَّبة، أمَّا أنتَ فاربطْ لكلينا الحصانَ القزمَ(*) إلى العربة. ينبغي لنا القيام برحلةٍ قصيرةٍ إلى صخرةِ ريتز".

*) حصانٌ صغير الحجم من نوع "بوني"؛ (م).

بعد خمس دقائق، كان الطَّبيب والسَّيِّد براندوك جالسَين في غرفةِ طعامٍ أنيقة، أمامَ مائدةٍ مُعَدَّةٍ ببراعة، يتذوَّقان بشهيَّةٍ كبيرةٍ محارَ نيوجيرسي الكبيرَ الحجم، وأطايبَ ما يكتنزهُ السَّاحلُ الشَّرقيُّ لأمريكا الشَّماليَّة، إلى جانب البوريِّ المذهَّب وسمك السُّلطان إبراهيم المُعَدَّين بيدَي ماغي الماهرة، بعد نقعهما بالنَّبيذ الأبيض الفاخر المجلوبِ من كروم فلوريدا.

لم ينبس الطَّبيبُ ببنتِ شفة؛ بدا منهمكاً بالكامل في التهام تلك الأسماك اللذيذة، أفضل ما تزخر بهِ سواحلُ شمالِ الأطلسيِّ على الأرجح.

أمَّا براندوك في المقابل، وهذا شيءٌ طريفٌ تماماً، فقد بدا متخفِّفاً تماماً مِن وَصَبِ الكآبة؛ كان يثرثرُ نيابةً عن اثنين، مُداهماً صاحبَه بأسئلةٍ حول هذا الاكتشاف المذهل الذي لا بدَّ، وفقاً له، أن يُحدِثَ ثورةً على مستوى العالَم. ومع ذلك كلِّه لم يُفلح سوى في انتزاعِ ابتسامةٍ من شفتي العالِم.

"أأخرستْكَ إذاً هذه الأسماك المذهَّبة؟" صرخَ براندوك على حين غرَّةٍ، وقد بدأ ينتابُه الغضب. "منذ عشرين دقيقةً وأسنانك مستمرَّةٌ في المضغ فيما بقيَ لسانك هامداً بلا حراك".

"لا يا عزيزي جيمس، إنَّني أفكِّر" أجابَ الطَّبيبُ ضاحكاً.

"يبدو أنَّك سهوتَ عن اكتشافك".

"الأمرُ مختلفٌ تماماً".

"فلنتحدَّث عن ذلك إذاً".

"إنَّها البودِنق".

"وما شأن تلك الحلوى الشَّحميَّة؟"

"لقد أخبرتك بأنَّ كاتب عدلِ البلدة، وهو سيِّدٌ حاذقٌ وشجاعٌ يُدعى ماكس، سيأتي هو الآخرُ لتذوُّقها".

"ولكن في المحصِّلة ما شأنه هو بهذا؟"

"يا إلهي، كيف تقول ما شأنه؟! ماذا لو بعد مِائةِ عامٍ لم يتذكَّرني أحدٌ وتُركتُ نائماً إلى الأبد؟ ذلك يعادلُ الموتَ تماماً".

"طوبي!" صرخَ براندوك، "ما الذي تنوي القيامَ به؟"

"أن أرى كيف يسيرُ العالَمُ بعد مِائةِ عامٍ ولا شيء غير ذلك".

"ماذا؟! تريدُ أن..."

"أن أنامَ عشرينَ خمسيَّةً(*)".

"هل جُنِنْت؟"

"لا أظنُّ ذلك" أجابَ الطَّبيبُ بصوتٍ هادئ.

ضربَ براندوك الطَّاولةَ ضربةً عنيفةً بقبضته، حدَّ أنَّه جعلَ الكؤوس تهتزُّ وإحدى القوارير تنقلب.

"تريدُ أن؟..." صرخَ.

"أن أحبسَ نفسي في الغارِ الذي أعدَدتُه لي على قمَّة صخرة ريتز،

---

*) مثلما هناك لفظة "عقد" لعشر سنوات، ولفظة "قرن" لمائة سنة، كذلك ثمَّة لفظةٌ في الإيطاليَّة تدلُّ على خمس سنوات، ترجمناها إلى العربيَّة بلفظةِ "خمسيَّة" على غرارِ "ألفيَّة"؛ (م).

لأستفيق بعد مِائةِ عامٍ، يا عزيزي. سوف تضطلع ذرِّيَّةُ كاتب العدل ورئيسُ بلديَّةِ نانتوكيت المستقبليُّ أو أخلافُه بمسؤوليَّةِ إعادتي إلى الحياة. سأترك عشرين ألف دولارٍ كاملةً غيرَ منقوصةٍ لبعثي من الموت، سويَّةً مع القارورة المحتوية على السَّائل السِّرِّيِّ الذي عليهم أن يحقنوني به في المواضع المُشار إليها في وصيَّتي".

"ستقتل نفسك!"

"هذا يعني إذاً أنَّه ليس لديك أيَّة ثقةٍ باكتشافيَ العظيم".

"بلى، لديَّ ثقةٌ تامَّة؛ بيدَ أنَّك لست أرنباً ثمَّ إنَّ مِائة عامٍ ليست كأربعة عشر عاماً" قالَ براندوك.

"إنَّ لدينا دماً وعضلاتٍ كسائرِ الدَّوابِّ وقلباً يعمل بالمبدأ ذاتِه. كنت أرغب في أن أقترح عليك أن تنام معي؛ ولكنَّني عدلتُ الآن عن ذلك".

"فكَّرتَ فيَّ إذاً؟"

"نعم، آملاً أنَّه بفضلِ مِائة عامٍ من الاسترخاء لا بدَّ لكآبتك من أن تنتهي إلى زوال".

"إذا كنتُ في ذلك اليوم أردتُ رميَ نفسي من فوق تمثال الحرِّيَّة، فلتنظرْ إذاً إلى أيِّ حدٍّ أعبأ بحياتي! أتريدني أن أرافقك يا طوبي؟ أنا مستعدٌّ. فحتَّى إذا متُّ، لن أخسرَ شيئاً".

"إذاً، هل تروق لك فكرتي؟"

"بصراحةٍ، نعم".

"إنَّك غريب الأطوار كأيِّ إنجليزيٍّ أصيل".

"أيُحتمَلُ ألَّا أكون إنجليزيّاً؟" قال براندوك ضاحكاً.

نهض الطَّبيبُ، اتَّجهَ صوب أحد الرُّفوف ليُحضِرَ زجاجةً مُغبَرَّةً لا بدَّ وأنَّها تعود إلى عددٍ لا بأس به من السِّنين وقام بنزع سِدادتها، مالئاً مِن ثَمَّ الكأسين.

"نبيذُ ميدوك، مِن عام ثمانيةٍ وثمانين وثمانمائةٍ وألف" قال. "بعد أربعةٍ وعشرين عاماً من الرُّقاد لا بدَّ وأنَّه أصبحَ فاخرَ المذاق. نخب قيامتنا سنةَ ثلاثٍ وألفين!" هتفَ رافعاً الكأس. أفرغَه في نفَسٍ واحدٍ ثمَّ، بعد أن لبثَ بضعَ لحظاتٍ مستغرقاً في التَّفكير، قال:

"كم لديك، يا جيمس...؟"

"خمسة ملايين ليرة".

"كعملةٍ ورقيَّةٍ محلِّيَّة؟"

"أجل".

"عليك أن تحوِّلها إلى ذهب، يا صديقي. فبعد مِائةِ عامٍ قد لا يعود لتلك الأوراق أيُّ قيمةٍ، في حين أنَّ الذَّهب يبقى على الدَّوام ذهباً، أكان مصبوباً في سبائك أم في قطعٍ تعادلُ واحدتُها العشرين ليرة. أمَّا أنا فلا أملك سوى ثمانين ألف دولارٍ، ومع ذلك آملُ أن تكون، حتَّى بعدَ مِائةِ عامٍ، كافيةً لئلَّا أقضي جوعاً. لقد وضعتها بالفعل في باطن قبوٍ صغيرٍ صنعتُه تحت قبري، داخلَ خزنةٍ حديديَّةٍ ثنائيَّةِ المفتاح".

"وهل أنت على يقينٍ من أنَّ جسدَينا سيظلَّان في حالةٍ جيِّدة؟"

"على نحوٍ مُذهِلٍ" قالَ الطَّبيب. "كما لو كنَّا لحماً مُجمَّداً".

"سنُجَمَّد؟"

"أجل".

"مَن سيضع ألواح الجليد في قبرنا؟"

"لن يكون ثمَّة حاجةٌ إلى ذلك. لقد ابتكرتُ سائلاً بميزاتٍ معيَّنةٍ سوف يخفضُ درجة حرارةِ قبرنا إلى عشرين درجةً تحت الصِّفر".

"وهل سيدوم؟"

"ما لَم يخرقوا قبَّتنا الكريستال لبعثنا من الموت. سنكون على أحسن ما يُرْجَى هناك في الدَّاخل، أؤكِّدُ لك ذلك. آه! هوَذا كاتب العدل الشُّجاع؛ لقد وصل في الوقت المناسب ليتذوَّق بودِنق طاهيتي ويحتسيَ كأساً من هذا الميدوك اللذيذ".

من الغرفةِ المجاورة تناهى إلى سمعه صوتُ ماغي وهي تصيح:

"دائماً ما تصلُ متأخِّراً يا سيِّد ماكس! خمس دقائق أخرى وما كنتَ لتتذوَّق البودِنق الذي صنعتُه. يوماً ما ستجعلني أحرقه".

فُتحَ بابُ الرَّدهةِ مُحدِثاً جلبةً ودخلَ كاتبُ العدلِ بخطواتٍ ثقيلةٍ لدرجةِ أنَّها جعلت القوارير والكؤوس تهتزُّ.

كان السَّيِّد ماكس رجلاً في السِّتِّينات من عمره، بديناً مثلَ برميلٍ وذا

وجهٍ أحمرَ قانٍ يتشامخُ في وسطِهِ أنفٌ غِطريفٌ يمكن مقارنته، بصرف النَّظر عن حُمْرتِهِ، بأنفِ ذلك الغاسكونيِّ(*) سيرانو دي برجراك(**).

"هنيئاً مريئاً، أيُّها السَّيِّدان" هتفَ، بصوتِ جنديٍّ من جُندِ المشاة. "كيف حالك يا سيِّد براندوك؟ هل زالت عنك الكآبة بعد رحلتك إلى نيويورك؟"

"يمكن القولُ، يا سيِّد ماكس، إنَّها بدأت تترك لي فسحةً للرَّاحة،" أجابَ الشَّابُّ "وآملُ أنَّها في غضون بضعة أيَّامٍ ستدخلُ في طورِ السُّكون لقرنٍ من الزَّمن. ثمَّ سنرى ما يمكن أن يحدث".

"آه!... فهمت" قال كاتبُ العدل، ضاحكاً. "لقد عثر طوبي على مُرافِقٍ له".

"مرافقٍ سيمنحني أجملَ رفقة" قال الطَّبيب وهو يملأ كأساً.

"تذوَّق هذا الميدوك، يا عزيزي ماكس؛ لا يوجد له مثيلٌ ولا حتَّى في فرنسا".

دخلت ماغي في تلك اللحظة وهي تحمل على طبقٍ من الفضَّة قطعةَ بودنِق جميلةَ المنظر تعلوها قشرةٌ مذهَّبةٌ، وكانت ما تزالُ ترسلُ بخاراً وتبثُّ أريجاً شهيّاً.

"هل رُبطَ الحصانُ القزمُ إلى العربة؟"

"أجل، يا سيِّدي" أجابت الطَّاهية.

---

*) نسبةً إلى غاسكونية التي كانت تشكِّل مقاطعةً جنوب غربي فرنسا قبل الثَّورة الفرنسيَّة؛ (م).

**) شخصيَّة "سيرانو دي برجراك"، التي ألَّف عنها الشَّاعر الفرنسيُّ إدموند روستان مسرحيَّته التي حملتْ اسمَ الشَّخصيَّة عنواناً لها، هي شخصيَّةٌ حقيقيَّةٌ لفارسٍ مغوارٍ كانت عقدة حياته دمامته وكبر حجم أنفه الذي سبَّبَ شقاءَه ووقفَ عقبةً بينه وبين غرامه. المسرحيَّة عرَّبها مصطفى لطفي المنفلوطي تحت عنوان "رواية الشَّاعر"؛ (م).

"فلننطلق مِن فورنا إذاً".

في غضون دقائق قليلةٍ أتوا على البودِنق، واحتسى كلٌّ منهم فنجاناً من الشَّاي، ثمَّ نزلوا إلى الفناء، حيث كانت في انتظارهم عربةٌ يجرُّها حصانٌ أبيضُ صغير بدا متلهِّفاً إلى المغادرة.

"فلننطلق" قالَ الطَّبيب، مُلتقِطاً الرَّسنَ ومُحكِماً قبضتَه على السَّوط. "في غضون نصف ساعةٍ سنكون فوق صخرةِ ريتز".

كان نهاراً بديعاً من نهارات الخريف، مُبَرَّداً بنسيمٍ مُنعِشٍ مُشبَعٍ بالملوحة يهبُّ من جهة الشَّمال.

وكان الأطلسيُّ مُهَوِّماً في سكينةٍ مُطلَقة، مع أنَّ تيَّاراته كانت تتدفَّق بين الشِّعاب الصَّخريَّة التي تحمي الشَّواطئ من أمواجٍ كانت تتكسَّرُ بآلاف الفرقعات، متقافزةً ومُرتدَّة. بضعةُ قوارب صيدٍ بأشرعتها الخلَّابة الملطَّخةِ بخطوطٍ صفراء وحمراء وببقعٍ سوداء، ما كان يمنحها هيئةَ فراشاتٍ عملاقة، كانت تنبلجُ بائتلاقٍ على زرقةِ المياه القاتمة، وهي تندفعُ بهوادةٍ إلى عُرض البحر، بينما في الأعلى أسرابٌ من طيورٍ بحريَّةٍ كبيرةٍ، من نوارس وفرقاطاتٍ، كانت تحلِّق نزويّاً.

ما إن خرجَ الحصان الصَّغير من وراء السُّور حتَّى اتَّخذ طريقاً رحيبةً كانت تمتدُّ بمحاذاة ساحل المحيط، مُندفعاً في خببٍ سريعٍ جدّاً، من دون أن يحتاج الطَّبيبُ إلى حثِّه بالسَّوط.

عادَ براندوك ثانيةً إلى صمتِه، كما لو أنَّ الكآبة استولتْ عليه من جديد؛ كاتبُ العدل هو الآخر لم ينبس بكلمة، مُنكبّاً بالكامل على تدخين غليونه الذي كان ينفث دخاناً كثيفاً وكأنَّه مدخنةُ سفينةٍ بُخاريَّة.

كان الطَّبيبُ متيقِّظاً لكي يبقى الحصانُ القزمُ على سواءِ الطَّريق ولئلَّا يضعَ قوائمَه في حفرةٍ أو يقترب كثيراً من الجرف الصَّخريِّ الذي كان ينحدرُ هناكَ شبهَ عموديٍّ نحو المحيط.

بين الفينةِ والأخرى كان بعضُ الفِتيةِ يظهرون فجأةً من أحراجِ الصَّنوبر والشُّوح التي كانت تمتدُّ حتَّى المناطق الدَّاخليةِ من الجزيرة لكي يجروا بضعَ لحظاتٍ وراء العربة، وهم يصيحون بأعلى أصواتهم:

"نزهةً طيِّبة، أيُّها الطَّبيب!"

كان المشهدُ الطَّبيعيُّ يتغيَّرُ بوتيرةٍ سريعة، ملوِّحاً بأنَّه سيصبحُ أكثر بدائيَّةً، كلَّما ازدادوا قرباً من الشَّاطئ الشَّرقيِّ للجزيرة. لم يعد ثمَّة مزيدٌ من البيوت والسَّاكنين في مرمى النَّظر. لا شيء سوى أنَّ أحراجَ الصَّنوبر والشُّوح باتت أكثر وفرةً وكثافةً والشِّعابَ الصَّخريَّةَ أكثرَ عُلْواً ووعورة؛ فيما كانت أمواجُ الأطلسيِّ تتكسَّرُ هناك بعنفٍ وكأنَّها تتفجَّرُ من مدافع مكنونةٍ في قيعان الخلجان الخِلاليَّةِ المنحوتةِ بالفِعل الأزليِّ للمياه.

كان هديراً متواصلاً، يزداد مع الوقت اصطخاباً، ويمنع الصِّحابَ الثَّلاثة من الكلام.

كانت الطَّريق قد بلغتْ نهايتها، غير أنَّ الحصان لم يتوقَّف عن الخبب، دون أن يُبديَ أيَّ علامةٍ من علامات التَّعب، فكان يرجرج العربةَ على نحوٍ مُريع.

فجأةً توقَّف أمامَ جدارٍ صخريٍّ كان يُسمَعُ من ورائه المحيطُ وهو يخورُ بهِياج.

"ها قد وصلنا" قال الطَّبيبُ، قافزاً إلى الأرض. "هي ذي صخرةُ ريتز".

"وهنالك في الأعلى أعددتَ قبرَنا؟" سألَ براندوك.

"أجل، وفي موقعٍ هو في غاية الجمال" أجابَ الطَّبيب. "هديرُ الأمواج سيُهدهدُنا، بلا هوادةٍ، إلى يوم قيامتنا".

"هذا إذا كنَّا سنعود إلى الحياة حقَّاً".

"ما زالت لديك شكوكٌ، يا جيمس؟"

"لا تُعِرْ أيَّ التفاتٍ إلى شكوكي. لقد قلتُ لك إنَّ الحياة الآنَ باتت ثقيلةً جدَّاً عليَّ، ولذلك فإنَّني قليلاً ما أعبأ بها حتَّى وإلَّم أستيقظ مرَّةً أخرى. هلَّا تُريني إذاً مثوانا الأخير".

"ليس الأخير".

"كما تريد".

"هلمَّ، يا جيمس".

ربطَ الحصان إلى جذعِ شجرةِ بَتولا، ثمَّ اتَّخذَ ممرَّاً ضيِّقاً منحوتاً في الصَّخرة العارية وصاعداً بشكلٍ متعرِّجٍ خلالَها. الصَّخرة، هذهِ المسمَّاة على نحوٍ غير مناسبٍ بصخرة ريتز، كانت جلموداً ضخماً، ارتفاعُها مِائة مترٍ، وتمثِّل أعلى قمَّةٍ في الجزيرة، في اتِّجاه الشَّرق.

واجِهَتُها الصَّلدةُ، المقدودةُ عموديَّاً، كانت تضع عقبةً هائلةً أمامَ الاندفاع الجنونيِّ لأمواج الأطلسيِّ، وبالتَّالي لم يكن ثمَّة خوفٌ من انهيارها، حتَّى لو بعد مِائة عامٍ.

حين بلغوا قمَّةَ الصَّخرة، والتي كانت مسطَّحَةً بدلاً من انتهائها بشكلٍ مدبَّب، لمحَ براندوك سوراً مُحيطُ دائرته حوالي أربعة أو خمسة أمتار، تعلوه قبَّةٌ بلَّوريَّةٌ مجهَّزةٌ بمانعة صواعق شاهقةِ الارتفاع.

"ذلك هو مثوانا الأخير؟" سأل.

"أجل" أجاب الطَّبيب.

"متى أوعزتَ في أمرِ بنائه؟"

"في العام المنصرم".

"هل لساكني البلدةِ علمٌ به؟"

"لا، لأنَّني جلبتُ العمَّالَ والألواح الزُّجاجيَّة من نيويورك".

"وهل سيحترمون وجودَه هنا؟"

"الصَّخرةُ مُلكٌ لي: اشتريتُها من مجلس البلديَّة، بمقتضى عقدٍ نظاميٍّ، ولدى كاتب العدل تفويضٌ بتدمير الممرِّ المؤدِّي إلى هنا وتطويق الجرف الصَّخريِّ بسورٍ عالٍ".

"ولقد أرسلتُ بالفعل في طلبه" قال السَّيِّد ماكس. "لن يأتيَ أحدٌ ليُقلق راحتكما".

"فلندخلْ" قال الطَّبيب.

بمفتاحٍ ثنائيٍّ فتحَ باباً حديديَّاً واطئاً جدَّاً لا يمكن الولوج فيه إلَّا حَبواً، ثمَّ دخل الرِّجال الثَّلاثة في ذلك الصَّرح الصَّغير.

من الدَّاخل كان مغطَّىً بالكامل بألواحٍ زجاجيَّةٍ سميكةٍ جدَّاً ومعشَّقةٍ بمغاليق مكينةٍ من النُّحاس، ومن اللافت للنَّظر أنَّه لم يكن يحتوي إلَّا على سريرٍ واحدٍ واسعٍ جدَّاً ومنخفض، مع لُحُفٍ ثقيلةٍ إلى حدٍّ ما ورفٍّ صغيرٍ وُضِعَتْ عليه قواريرُ ومحاقن.

"هذا هو مثواي، أو بالأحرى مثوانا" قال طوبي، ملتفتاً إلى صديقه. "أتجده باعثاً على الملل؟"

"لا، على الإطلاق" أجاب الشَّابُّ وهو يتأمَّلُ المحيطَ من خلال القبَّة الزُّجاجيَّة. "آملُ أنَّ أحداً لن يغشى هذا المكانَ لِيُقلِقَ مضجعَنا قبلَ حلول اليوم الذي حدَّدناه في وصيَّتنا. ما أعذبَ أن تسمعَ هديرَ الأمواج! ههنا تكون خيرُ صُحبة".

"أظنُّ الأمرَ لا يستحقُّ أن تهيِّئ لنفسك سريراً. فهذا أكثر من كافٍ لكلينا".

"وأين هو القبو حيث أودعتَ مَصاغك؟"

انحنى الطَّبيبُ؛ رفعَ صفيحةً من الحديد كانت موجودةً عند قدمِ السَّرير، وأشارَ إلى درَجٍ ضيِّقٍ محفورٍ في الصَّخرة العارية لا بدَّ وأنَّه كان يُفضي إلى حُجَيرةٍ ما تحت الأرض.

"الخزانة الحديديَّة هنا في الدَّاخل" قال.

"أنا أيضاً سأُخفي مَصاغي هنا. غداً أتوجَّه إلى نيويورك لأبدِّلَ بأوراقي النَّقديَّةِ وبأسهمي في شركة السِّكَك الحديديَّة ذهباً. سيكون لدينا ما يكفي من الذَّهب عندما نصحو. متى موعدُ رُقادنا؟"

"في غضون ثمانية أيَّام؛ ما إن يُغلقوا قاعدةَ الصَّخرةِ بالسُّور".

"سؤالٌ آخر بعدُ، عزيزي الطَّبيب. ماذا إذا ما نسوا إيقاظنا؟ إنَّك تعلم أنَّه ليس لديَّ أقارب".

"لي أختٌ لديها سبعة أبناء" أجاب طوبي. "آمُلُ أنَّه في غضون مِائة عامٍ سيكون ثمَّة بعض الأحفاد الذين سيأتون ليفتحوا أعيننا، أو ليضعوا اليدَ على كنزنا في حال كنَّا ميِّتَين فِعلاً؛ ثمَّ إنَّ هنالك كاتب العدل، كما أنَّني أودعْتُ وثيقةً لدى مجلس البلديَّة. لا تخفْ يا جيمس: أحدٌ ما سيأتي ليلتقطَ ميراثنا".

"أخلافي لن ينسوا أمرَكما، كونا على يقينٍ بذلك" قال السَّيِّد ماكس.

"ألديك أيُّ اعتراضٍ آخر تودُّ الإدلاء به، يا جيمس؟" سألَ طوبي.

"لا" أجابَ الشَّابُّ.

"هل أنت ثابتُ العزيمةِ على خوضِ هذه التَّجربة؟"

"أعطيكَ كلمتي".

"إذاً، فلنعُدْ إلى منزلي لإجراء الاستعدادات النِّهائيَّة".

خرجوا وأغلقوا الباب، هبطوا الصَّخرةَ وصعدوا إلى العربة من دون أن يُضيفوا كلمةً أخرى.

علينا أن نعترف، على أيَّةِ حالٍ، بأنَّ الثَّلاثة كانوا في حالةٍ من الانفعال لا تخفى على أحد.

بعد ثمانيةِ أيَّامٍ، قبلَ مغيب الشَّمس، تركَ براندوك والطَّبيبُ وكاتبُ

العدل البلدةَ دون أن يلاحظهم أحدٌ وخرجوا سيراً على الأقدام صوبَ صخرةِ ريتز.

كانوا آنذاك قد اتَّخذوا جميعَ التَّرتيبات لأجل تلك الرَّقدة التي ستدومُ مِائة عامٍ، وجميعَ التَّدابير لئلَّا يأتي أحدٌ ويُقلِقَ مضجعَهما خلال ذلك الأمد الطَّويل.

وكان السَّيِّد براندوك قد قام آناءَ الليل بنقلِ ملايينه وأخفاها في الخزانة الحديديَّة المخبَّأة في باطن القبو الصَّغير؛ كان قد باع كلَّ ممتلكاته، تاركاً لمجلس بلديَّةِ الجزيرة جزءاً من المردود شريطة أن يُعنَوا بحماية القبر؛ وكان الطَّبيب قد أهدى منزلَه لطاهيته وأقامَ السُّور الحديديَّ حول الصَّرح الصَّغير جاعلاً عليه الكثير من اللوحات المعدنيَّة التي كُتِبَ عليها: *ملكيَّةٌ خاصَّةٌ تعودُ إلى الطَّبيب طوبي هولكر.*

عندما وصلوا إلى قمَّة الصَّخرة كانت الشَّمس على وشك المغيب في محيطٍ من النَّار.

توقَّف الثَّلاثة ينظرون إلى المحيط وهو يلتهب تحت انعكاسات المغيب ويتموَّجُ بلطفٍ تحت نسيم المساء.

في البعيد كانت سفينةٌ كبيرةٌ ترسلُ دخانَها، متَّجهةً نحو السَّاحل الأمريكيِّ؛ وعلى امتداد الشِّعاب الصَّخريَّة للجزيرة كانت بعض قوارب الصَّيد تتقدَّم بعذوبةٍ، آيبةً صوبَ ميناء البلدة الصَّغيرة؛ بينما في الأسفل، عندَ قاعدة الصَّخرة، كانت الأمواج تتكسَّر مهشِّمةً الصَّمتَ الباسطَ سلطانَه على المحيط الشَّاسع. لبث الرِّجال الثَّلاثة صامتين: كاتبُ العدل بدا متأثِّراً بعُمق؛ فيما ظهرت علاماتُ قلقٍ طفيفٍ على كلٍّ من براندوك وطوبي. بقوا على

تلك الحال عدَّةَ دقائق، ينظرون تارةً إلى القوارب وتارةً إلى الشَّمس التي بدت وكأنَّها توشكُ أن تنزلَ في مغطسِ ماءٍ؛ ثمَّ على حين غرَّةٍ اختلجَ الطَّبيبُ قائلاً:

"ألستَ نادماً على الكلمة التي أعطيتَها، يا جيمس؟"

"لا" أجابَ براندوك، بنبرةِ صوتٍ هادئة.

"حتَّى وإن كنَّا لن نستيقظ بعد اليوم أبداً؟"

"نعم".

"فلنتصافحْ ولنتعانقْ إذاً، يا سيِّد ماكس، بما أنَّنا لن نلتقي بعد اليوم أبداً، إلَّا إنْ وقعتْ مُعجزة".

"يجب أن أبلغَ من العمر مِائةً وأربعين سنة، وهي سنٌّ من المستحيل بلوغها" قال كاتبُ العدل، متنهِّداً. "سأموتُ أنا، وأمَّا أنتما فستُبعَثان".

"دعني أعانقك يا صديقي، ولنفترق".

بمُقلتين بَليلتَين، وقد بدا في غاية الانفعال، ضمَّ السَّيِّدُ ماكس بين ذراعيه الطَّبيبَ، مُبقياً رأسَ هذا الأخير على صدره لبضع لحظات.

"وداعاً، يا سيِّد براندوك" قال بعدئذٍ بصوتٍ منكسرٍ، مادّاً إليه يدَه. "أتمنَّى أن تعودا ثانيةً إلى الحياة وأن تتذكَّراني".

"نعدُك بذلك" أجابَ الشَّابُّ. "وداعاً يا سيِّد ماكس: إنَّنا ذاهبان إلى النَّوم".

انصرفَ كاتبُ العدل عنهما، مُلتفتاً عدَّة مرَّاتٍ ليومئ إليهما بإشارةِ

وداع؛ ثمَّ اختفى في الممرِّ المؤدِّي إلى قاعدة الصَّخرة حيث كان قد وضع خرطوشة ديناميتٍ كبيرةً بغيةَ تدميره.

"هلُمَّ يا جيمس" قال طوبي، حالما أصبحا وحدَهما. "تأمَّل المحيطَ لآخر مرَّةٍ".

"لقد تأمَّلتُه ما فيه الكفاية، ثمَّ إنَّنا بالتَّأكيد لن نجدَ أيَّ تغيُّرٍ فيه، إذا ما عدنا إلى الحياة".

فتحا البابَ الواطئَ ودخلا قبرَهما المستنارَ كفايةً بأشعَّة الشَّمس الأخيرة التي جعلتْ القبَّة الزُّجاجيَّة تتلألأ.

تناول طوبي عن الرَّفِّ زجاجةً وكأسين ونزعَ سِدادةَ الزُّجاجة.

"كأسٌ هنيئةٌ من الشَّمبانيا" قال، وهو يصبُّ ذلك الكوثرَ المزبد. "نخبُ قيامتنا، يا جيمس!"

"أو نخب موتنا، سيَّان عندي" أجابَ الشَّابُّ، مُرغِماً نفسَه على الابتسام. "أقلُّه أنَّ الكآبة لن تنكِّلَ بيَ بعد اليوم".

أفرغا الكأسين بجُرعةٍ واحدة، ثمَّ وضعَ الطَّبيبُ في مغلَّفٍ عدداً من الوثائق وأخفاه في صندوقٍ معدنيٍّ صغير.

"ها طوبي، ماذا تفعل؟" سألَ براندوك.

"ههنا في الدَّاخل توجد القوارير التي تحتوي على السَّائل السِّرِّيِّ الذي من شأنه أن يهبنا الحياة، جنباً إلى جنبٍ مع الوصفة التي ستعلِّم أولئك الذين سيأتون ليوقظونا كيفيَّة استخدامه".

"هل انتهيت؟"

"نعم. كأسٌ أخرى؟"

"ليكن" أجابَ براندوك.

أفرغا الزُّجاجةَ، ثمَّ نزعَ الطَّبيبُ سِدادةَ قارورةٍ وملأ كوبين صغيرين. كان مشروباً روحيَّاً لونه ضاربٌ إلى الحُمرة، كثيفاً إلى حدٍّ ما، ويضوعُ منه أريجٌ غيرُ عاديٍّ.

"اشربْ" قال، مقدِّماً لبراندوك أحدَ الكوبين.

"ما هذا؟"

"المخدِّرُ الذي سينوِّمُنا، أو بالأحرى الذي سيُعلِّق حياتينا ويمنع جسدينا من التَّفسُّخ".

تناول الشَّابُّ الكوبَ بيدٍ ثابتةِ العزم، رفعَه عَكْسَ الضَّوء وتأمَّلَ السَّائلَ، ثمَّ تجرَّعَه من دون أن ترتجف في وجهه عضلةٌ واحدة.

"إنَّه مُرٌّ قليلاً، ولكنَّه ليس بذلك السُّوء" قال. "آه! يا لِهذا البرد يا طوبي. أحِسُّ أنَّ ثمَّة كتلةً من الجليد مكانَ قلبي".

"ليس بالشَّيء الذي يستحقُّ الذِّكر، ثمَّ إنَّه لن يدوم طويلاً. استلقِ على السَّرير وتدثَّر جيِّداً".

فيما كان براندوك يمتثلُ لذلك، تجرَّع الطَّبيبُ هو الآخرُ كوبَه، ثمَّ دنا مترنِّحاً من وعاءٍ فخَّاريٍّ كان موضوعاً في إحدى الزَّوايا وأمسك مطرقةً كانت بجانبه، وبضربةٍ واحدةٍ قويَّةٍ حطَّم غطاءه، ثمَّ أدركَ على عجلٍ رفيقَه.

صقيعٌ سيبيريٌّ اجتاحَ الحُجرة. بدا الأمرُ وكأنَّما من ذلك الوعاء الغامض خرجَ تيَّارُ هواءٍ جليديٍّ، كذلك الهواء الذي يهبُّ في المناطق القطبيَّة.

نظرَ الطَّبيبُ إلى براندوك: لم يعد الشَّابُّ يُبدي أيَّ علامةٍ من علامات الحياة. بدا وكأنَّ الموتَ قد حَصَدَهُ في لمح البصر.

"في غضون... مِائةِ... عام..." بالكاد كان لدى الطَّبيب وقتٌ للتَّلعثم، فما لبث أن سقط بجانب صديقِه. في اللحظةِ نفسِها انطفأ آخرُ خيطٍ من خيوط الشَّمس وبدأتْ أولى ظلالِ الليلِ تهبطُ على الضَّريح.

قيامةٌ باهرة

في صباح يومٍ من آخر أيَّام أيلول لِعام ثلاثةٍ وألفين، كان ثلاثة رجالٍ يصعدون ببطءٍ صخرةَ ريتز، يساعدُ بعضُهم بعضاً على اجتياز الصُّخور، لعدم وجود أيِّ أثرٍ لدربٍ أو مسلك.

أحدُهم كان رجلاً كهلاً إلى حدٍّ ما، بين الخمسين والسِّتِّين عاماً من عمره، ومع ذلك كان ما يزال مفعماً بالهمَّة والحيويَّة، بلا لحيةٍ ولا شاربَين، طويلَ الذِّراعين والسَّاقين إلى حدٍّ لا يتناسبُ وطول جذعه، والعينان جدُّ واسعتَين ومُبيضَّتان قليلاً.

الآخران كانا أصغر سنَّاً ببضع عشراتٍ من السِّنين، قويَّي البنية هما أيضاً، مع كتلةٍ عضليَّةٍ متينةٍ وعينين بنفس الدَّرجة من الابيضاض والشُّحوب.

كان من الملاحَظ أنَّ لدى الرِّجال الثَّلاثة نموَّاً خارجاً تماماً عن المألوف في تكوين الرَّأس وخاصَّةً في تكوين الجبين.

وكان ملبوسُهم من قماشٍ بلون القهوة المذهَّبة، يشبه الحرير، ويتكوَّن من سترةٍ واسعةٍ جدَّاً وسروالٍ قصيرٍ وفضفاضٍ ينتهي تحت الرُّكبتين.

ما إن بلغوا شفيرَ الصَّخرةِ الأعلى حتَّى توقَّفوا أمام سورٍ حديديٍّ مرتفعٍ، صدئٍ ومتآكلٍ من أملاح البحر، يطوِّقُ صرحاً صغيراً دائريَّ الشَّكل تعلوه قبَّةٌ زجاجيَّة.

على وتدٍ من أوتاد السُّور كان ثمَّة صفيحةٌ معدنيَّةٌ تحمل النَّقش التَّالي الذي كان ما يزال واضحاً كفايةً: *ملكيَّةٌ خاصَّةٌ تعودُ إلى الطَّبيب طوبي هولكر.*

"ها نحن ذا" قال الرَّجل الكهلُ، مُخرِجاً من أحد جيوبه مفتاحاً قديماً جدَّاً، مميَّزَ الشَّكل، ورقعةَ ورقٍ مُصفرَّة. "ما أجمل المفاتيح التي كانوا يستخدمونها قبل مِائة عام!"

"أتأمَلُ في بعث جدِّك من الحياة يا سيِّد هولكر؟" سأل أحدُ الرَّجلين المرافقَين له.

"أقلُّه أن نعثر على عظامِه، وكذلك على عظامِ صديقِه" أجاب السَّيِّد هولكر.

"وعلى تلك الملايين، بما أنَّك الوريث الوحيد".

"هذا صحيحٌ، أيُّها السَّيِّدُ كاتبُ العدل".

"هل ستتمكَّن من فتحِه؟"

"فلنحاولْ" أجاب السَّيِّد هولكر.

أولجَ المفتاحَ في القفل، وبِبَذلِ قليلٍ من الجهد تمكَّن من تدوير المزلاج.

"لم يكونوا غير أكفاء في صنعتهم، حدَّادو تلك الأيَّام" قال، دافعاً البابَ. "لم أتصوَّر أبداً أنَّ الأقفال بعد مِائة عامٍ من الممكن أن تعمل".

كان السِّياج الصَّغير مغطَّىً بالوزَّال والشُّوَّيك وبأكوامٍ من الحشائش المتيبِّسة. كان من الواضح أنَّ أحداً، منذ أمدٍ بعيدٍ، لم يدخل إلى هناك.

"فلنرَ" قال هولكر، شاقّاً طريقه وسطَ الأغصان الشَّوكيَّة اليابسة.

اقتربَ، ليس من دون أن تعتريه بعض المشاعر، من الصَّرح الصَّغير، ثمَّ مشرئبَّاً بطولِه الكامل وضع وجهه على القبَّة الزُّجاجيَّة.

على الفور أفلتتْ منه صرخة.

"هذا لا يُصدَّق! كلاهما هناك ويبدوان لي سليمَي الجسد! أحقّاً تمكَّن جدِّي من اكتشاف مشروبٍ سحريٍّ قادرٍ على إيقافِ الحياة مِائةَ عام؟"

ألقى رفيقاه نظرةً من خلال الزُّجاج، وهما أيضاً لم يتمكَّنا من كبح صرخةِ ذهول.

"إنَّهما هناك! إنَّهما هناك!"

"ويبدوان نائمَين" قال هولكر، وكانت تَتَناهَبُهُ مشاعرُ عميقةٌ.

"ها سيِّد هولكر، هل أخطأتَ الحكمَ؟" سألَ كاتبُ العدل.

"لا أدري ماذا أقول؛ فالآنَ أَمَلي بعيدٌ في أن أرى جدِّي حيَّاً من جديد".

"فلندخلْ، يا سيِّدي. أمفتاحُ الضَّريح معك؟"

"نعم؛ ولكن لن ندخلَ فوراً على أيَّة حال".

"لماذا؟..."

"لقد كتبَ جدِّي إنَّ علينا تركَ الباب مفتوحاً لبضع دقائق".

"لا أستطيع فهمَ السَّبب" قال زميلُ كاتب العدل.

"لئلَّا نعرِّض أنفسنا لنزلةِ بردٍ قويَّة، يا سيِّدي رئيس البلديَّة" قال هولكر. "فمن الممكن أن نصابَ من لحظتنا بالتهابٍ رئويٍّ".

"هل الجوُّ باردٌ جدَّاً هناك في الدَّاخل؟"

"يبدو أنَّ الدُّكتور طوبي، بالإضافة إلى ذلك المشروب السِّحريِّ، اكتشف أيضاً سائلاً معيَّناً قادراً على نَفْثِ بردٍ قطبيٍّ".

"من المفترض أنَّه موجودٌ في ذلك الوعاء الذي تريانه في تلك الزَّاوية هناك".

"هلَّا تفتح، يا سيِّد هولكر" قال كاتب العدل. "إنَّني متلهِّفٌ لحضور قيامةِ هذين الرَّجلين".

أخذوا في الطَّواف حول الصَّرح الصَّغير، إلى أن عثروا على بابٍ حديديٍّ واطئ.

أولجَ هولكر المفتاحَ في القفل فانفتح بسهولة. في الحال داهمَ تيَّارٌ شديدُ البرودة الرِّجالَ الثَّلاثة، مُرغِماً إيَّاهم على التَّراجع بسرعة.

"ثمَّة بنكُ جليدٍ هناك في الدَّاخل!" صاحَ رئيس البلديَّة. "على ماذا يحتوي ذلك الوعاء لكي يولِّدَ صقيعاً من هذا القبيل؟ أكان العلماء قبل مِائة عامٍ أفضل من علماء اليوم؟"

"يا له من رجلٍ عظيمٍ سَلَفي ذاك" قال هولكر. "ويا لها من صورةٍ هزيلةٍ تلك التي سأبدو بها أنا بجانبه!...".

تريَّثوا لبضع دقائق ثمَّ، عندما خَفَتَ التَّيَّارُ البارد، دخلوا واحداً تِلْوَ الآخر في الضَّريح، متقدِّمين حَبواً، لِكون الباب خفيضاً وضيِّقاً للغاية.

انتهوا داخل حجرةٍ دائريَّةٍ، جدرانها مكسوَّةٌ بألواحٍ زجاجيَّةٍ معشَّقةٍ جيِّداً بمغاليق من نحاس.

في المنتصف كان ثمَّة سريرٌ واسعٌ كِفايةً، رأوا عليه كائنين بشريَّين مضطجعَين أحدهما بجانب الآخر، وقد التفَّا بلُحُفٍ سميكةٍ من الجوخ.

كان وجهاهما أصفرَين، وعيونهما مُغمَضة، فيما بدتْ متحجِّرةً أذرعُهما التي كانا قد أبقياها تحت اللُحُف. لم يقعوا على أيِّ علامةٍ من علامات تحلُّل الجسد.

اقترب السَّيِّد هولكر على عجلٍ منهما ورفعَ الأغطية.

"هذا لا يُصدَّق!" هتفَ. "كيف أمكن لهذين الرَّجلين أن يبقيا محفوظَين على هذا النَّحو، إلى ما بعد مِائة عام؟ أيُعقل أنَّهما ما يزالان على قيد الحياة؟ لا أحد سيصدِّق ذلك".

كان زميلاه قد اقتربا هما أيضاً وراحا ينظران بشيءٍ من الهلع إلى ذينك الرَّجلين، متسائلَين بقلقٍ عمَّا إذا كانا واقفَين أمامَ جثَّتين أو أمامَ راقدَين.

ذلك الذي على اليمين كان شابّاً وسيماً بين الخامسة والعشرين والثَّلاثين من عمره، ذا شعرٍ أشقر ضاربٍ إلى الحُمرة، وقامةٍ طويلةٍ ورشيقة؛ فيما بدا الآخرُ بين الخمسين والسِّتِّين، بشعرٍ وَخَطَهُ الشَّيب، وقامةٍ أقصر من قامةِ الأوَّل وبنيةٍ أكثر امتلاءً من بنيته.

كلاهما كان محفوظاً على نحوٍ مُبهرٍ: جلدُ الوجه فحسب، كما سبق وقلنا، كان قد اتَّخذ لوناً مائلاً إلى الصُّفرة، شبيهاً بذلك الذي للأعراقِ المنغوليَّة.

"أيُّهما سَلَفُك؟" سألَ كاتبُ العدل.

"الأكبر سنّاً. الآخرُ هو السَّيِّد جيمس براندوك".

"هل ستبدأ فوراً؟"

"دونما تأخير".

"أنت طبيبٌ، أليس كذلك؟"

"كَجَدِّي هذا".

"أتعرف كيف ينبغي أن تتصرَّف؟"

"الوثيقة التي تركها طوبي هولكر تشرحُ ذلك بوضوح. لا يتعلَّق الأمر سوى بإجراء حقنتين".

"وماذا عن السَّائل السِّرِّيِّ؟"

"من المفترض أن يكون في ذلك الصُّندوق" أجاب السَّيِّد هولكر، مُشيراً إلى علبةٍ معدنيَّةٍ كانت أسفلَ السَّرير.

"هل سيعودان على الفور إلى الحياة؟"

"لا أظنُّ ذلك؛ ربمَّا ليس قبل أن نغمرهما بالماء الدَّافئ".

"علينا إذاً أن نحملهما إلى البلدة؟"

"ليس ذلك ضروريّاً" أجاب السَّيِّد هولكر. "لقد سبقَ أن أعطيت أمراً إلى سائقي بأن يوافيني إلى هنا بطائرتي *الكوندور* ولن يتأخَّر عن موعد

الوصول. سأنقلُ جدِّي والسَّيِّد براندوك إلى منزلي، في نيويورك. أريدُ أن يغضَّ الجميعُ الطَّرفَ في هذه اللحظة عن بعثِ هذين الرَّجلين".

وفيما كان يتكلَّم فتحَ الصُّندوقَ الحديديَّ حيث وجدَ عدداً من الوثائق وقارورتين من الكريستالِ مليئتين بسائلٍ يميل لونُه إلى الحُمرة إضافةً إلى بعض المحاقن.

"ها هو التِّرياق السِّرِّيُّ" قال، متلقِّفاً القارورتين. "فلنبدأ دون إضاعة الوقت".

عرَّى صدرَي النَّائمَين، ثمَّ غمس حقنةً في إحدى القارورتين، وهو يقول:

"حقنةٌ جهةَ القلب وأخرى في الرَّقبة: سنرى إنْ كان سيكون لها أيُّ أثر".

"بصفتك طبيباً يا سيِّد هولكر،" قال كاتب العدل "أيبدو لك أنَّهما ميِّتَان؟ إنَّ لهما قليلاً هيئةُ..."

"المومياواتِ الفرعونيَّة؟"

"لا، فما يزال لجسديهما شيءٌ من النَّضارة".

"لهما هيئة مَن ليس مَيْتاً إذاً" قال السَّيِّد هولكر. "تعلمان أنَّني لن أفقد الأمل، أليس كذلك؟"

"هل ينبض قلباهما؟"

"لا".

"أهما باردان؟"

"أظنُّ، مع درجة الحرارة التي كانت سائدةً هنا في الدَّاخل، أنَّهما كانا غارقين في نوعٍ من أنواع الجَمْدَة(*) التي تذكِّرني بالظَّواهر الخارقة للدَّراويش الهنود".

"ألم تفقد الأمل إذاً؟"

"آه... كلُّ الأمر أنَّني أتحقَّق من أنَّهما بقيا محفوظين على نحوٍ مُذهِلٍ بعد عشرين خمسيَّةٍ. هلَّا تساعدني، يا سيِّد ستيركين".

"ماذا عليَّ أن أفعل؟"

"لا شيء سوى أن تمسك ببساطةٍ إحدى هاتين القارورتين، فيما أحقن أنا هذا السَّائل المكتشَفِ من قِبَل سَلَفي".

"والذي قد يكون، خِلافاً لذلك، قاتلاً؟"

"إنَّني أنفِّذ مشيئته الأخيرة؛ فإذا ماتَ - وأنا أفترضُ أنَّه ما يزال نائماً- فإنَّ الذَّنب لن يكون ذنبي. فلنحاولْ!...".

تناولَ السَّيِّد هولكر المحقن، ووضعَ رأسَ الإبرة الثَّاقبَ على صدر الطَّبيب بالقرب من موضع القلب وحقنه هناك بغزارةٍ، تحت الجلد. كرَّرَ نفسَ العمليَّةِ على العنق، ووضعَ يدَه على الوريد الوِداجيِّ، ثمَّ انتظرَ في جزعٍ عميقٍ، مُحكِماً قبضته على معصم سَلَفِه. لم ينبس أحدٌ بكلمة: الجميع ثبَّت ناظرَيه على الطَّبيب، رجاءَ أن يُبدي ذلك الوجهُ المصفرُّ على

---

*) الجَمْدَة أو التَّخشُّب هي حالةٌ يفقد معها الإنسان، بصورةٍ مؤقَّتة، القدرة على الحركة الإراديَّة، متَّخِذاً أوضاعاً غير اعتياديَّة قد يبقى عليها لعدَّة دقائق، وترتبط هذه الحالة بالدَّرجات المتقدِّمة من مرض الفصام (الشِّيزوفرنيا)؛ (م).

حين بغتةٍ أيَّ حركةٍ من الممكن أن تكون علامةً على العودة إلى الحياة. كانت دقيقةٌ قد مرَّت عندما ترك السَّيِّد هولكر صرخةَ ذهولٍ تُفلِت منه.

"هذا لا يُصدَّق!"

"ماذا لديك هناك؟" سألَ بصوتٍ واحدٍ كاتبُ العدل ورئيسُ البلديَّة.

"هذا الرَّجل ليس مَيْتاً!"

"أثمَّة نبضٌ في معصمِه؟"

"لقد أحسستُ باختلاجةٍ خفيفة".

"ألست تتوهَّم ذلك؟" سألَ كاتب العدل، وقد أصبح في غاية الشُّحوب.

"لا... هذا مستحيل... ثمَّة نبضٌ في المعصم... صحيحٌ أنَّه خفيفٌ، ولكنَّه نبضٌ... أنا لستُ أحلم".

"بعد مِائةِ عام!...".

"صَهٍ... فلنستمعْ إنْ كان القلبُ كذلك يُبدي علامةً من علامات الحياة...".

مالَ السَّيِّد هولكر برأسه على الصَّدرِ العريضِ، صدرِ سَلَفِه.

"أهو باردٌ؟" سألَ رئيسُ البلديَّة.

"حتَّى اللحظة نعم".

"تلك علامةٌ سيِّئة: الموتى دائماً باردون".

"هلَّا تريَّث أيُّها السَّيِّد رئيس البلديَّة، فالتِّرياق بدأ عملَه للتَّوِّ".

"هل..."

"اصمتا! إنَّه لأمرٌ مُذهِلٌ!... أمرٌ لا يُصَدَّق!... ما هذا الشَّيء الذي ابتكرَه سَلَفي؟ ماذا يكون الأطبَّاءُ المعاصرون بالمقارنة معه؟ إنَّهم حميرٌ، بمن فيهم أنا!"

"القلب ينبض إذاً؟" سألَ بصوتٍ واحدٍ رئيسُ البلديَّة وكاتبُ العدل.

"أجل... إنَّه ينبض...".

"ألست تتوهَّم ذلك؟"

"أنا طبيبٌ".

"ولكنَّ ذلك الاصفرار لم يختفِ بعد" قال كاتبُ العدل.

"فيما بعد... بعدَ الحمَّام ربَّما... أجل، إنَّ القلب ينبض!... إنَّها لَمُعجزة!... العودة إلى الحياة بعد مِائة عام! مَن سيصدِّق ذلك؟"

"والمعصم؟"

"إنَّه يختلج بقوَّةٍ تزداد لحظةً بعد لحظة".

"هلَّا تتحوَّل إلى السَّيِّد براندوك، أيُّها الطَّبيب" قال رئيس البلديَّة.

في تلك اللحظة تردَّد في الخارج صدى صَفْرَةٍ رنَّانة.

"إنَّها *الكوندور*" قال السَّيِّد هولكر. "لقد وصلَتْ في الوقت المحدَّد!"

"هل تريد شيئاً من سائقك؟" سألَ كاتبُ العدل.

"أن يأتيني بقضيبٍ معدنيٍّ لفتح القبو. أمَّا الآن، فلنلتفتْ إلى السَّيِّد براندوك"، عرَّى صدرَ الشَّابِّ وأعطاه نفس الحقنتين اللتين أعطاهما للسَّيِّد طوبي.

بعد دقيقتين، سمع رعشةً خفيفةً في المعصمين، ولاحظ فوق ذلك أنَّ لون الصُّفرة كان يميل إلى الاختفاء وأنَّ حُمرةً طفيفةً للغاية بدأت تظهر على وجنتي النَّائم.

"أيُّ معجزةٍ هذه!" كرَّرَ السَّيِّد هولكر القولَ. "غداً سينطق هذان الرَّجلان كما ننطق نحن الآن".

كان كاتبُ العدل قد عاد يصحبُه زنجيٌّ ضخمُ الجثَّة، هرقلٌ حقيقيٌّ عريضُ المنكبين وذو ذراعين غليظتين ومكتظَّتين بالعضلات.

"هاري،" قال السَّيِّد هولكر، ملتفِتاً نحو المارد "خذْ هذين الرَّجلين واحملهما إلى *الكوندور*. حذارِ أن تضيِّق الخناق عليهما".

"سمعاً وطاعةً يا سيِّدي".

"هل الفِراشان جاهزان؟"

"وكذلك السِّتارة".

"أسرعْ إذاً، يا بُني".

حرَّك السَّيِّد هولكر السَّرير ووضع يديه على صفيحةٍ معدنيَّةٍ دائريَّة الشَّكل، مزوَّدَةٍ بحلقة.

"يجب أن يكون هنا في الأسفل القبوُ الذي يحتوي على الملايين، ملايين سَلَفي وملايين السَّيِّد براندوك".

"أتُراها ما تزال هنا؟" سألَ كاتبُ العدل.

"لا يمكن أن يكون أحدٌ غيرنا على درايةٍ بأنَّ النَّائمَين وضعاها هنا، ثمَّ إنَّنا رأينا أنَّ كلَّ شيءٍ كان في موضعه هنا في الدَّاخل، ولذلك فإنَّه من غير الممكن أن يكون أحدٌ قد دخل إلى هنا".

مرَّرَ القضيبَ الذي أتاه به السَّائقُ في الحلقة ورفعَ، ليس من دون مشقَّةٍ، تلك الصَّفيحة.

ولَمَّا كانت الظُّلمات قد هبطت، أضاءَ مصباحاً كهربائيَّاً فرأى درَجاً محفوراً في الصَّخرة العارية.

نزلَ الدَّرَجَ، متبوعاً بكاتب العدل ورئيس البلديَّة، ووجدَ نفسَه في حُجرةٍ صغيرةٍ مساحتها مترين مربَّعين وتحتوي على خزانتين من الحديد المقوَّى بالصُّلْب.

"إنَّها هنا في الدَّاخل، تلكما الملايين" قال.

"هل ستنقلها بطائرتك *الكوندور*؟" سألَ كاتبُ العدل.

"إنَّها تعود إلى سَلَفي وإلى السَّيِّد براندوك. بما أنَّهما حيَّان فإنَّه لم يعد لي أيُّ حقٍّ في تلك الثَّروات... تعالَ يا هاري!"

الزِّنجيُّ الذي كان قد عاد بالفعل، بعد أن نقلَ طوبي وبراندوك، نزلَ إلى القبو.

"ساعدني" قالَ له هولكر.

"كفى بي وحدي، يا سيِّدي" أجابَ المارد. "فعضلاتي متينةٌ ومنكباي عريضان".

رفعَ الخزانة الأثقل وزناً وصعدَ بها.

"أيُّها السَّيِّدان،" قال هولكر، فيما كانت الثَّانية قد حُمِلَتْ "لقد انتهت مهمَّتكما. السَّيِّد براندوك وجدِّي سيعرفان قريباً كيف يكافآنكما على مروءتكما".

"هل ستحملهما إلى هنا ذات يومٍ؟" سألَ كاتب العدل.

"أعدكما بذلك".

"أأنت على يقينٍ الآن من أنَّهما سيعودان إلى الحياة؟" سألَ رئيسُ البلديَّة.

"آملُ ذلك، بعد حمَّامٍ لطيفٍ في الماء الفاتر. في غضون أربع ساعاتٍ أكون في نيويورك وغداً أبلغكما بالأخبار".

خرجوا من الضَّريح ومن ضميمةِ السُّور، ثمَّ أرتجوا البوَّابة وتوجَّهوا إلى حافَّة الصَّخرة المطلَّة على المحيط حيث رأوا، بشكلٍ مُبهَمٍ ومن بين سُدَفِ الظَّلام، كتلةً سوداء تهتزُّ فوق أمواجه بأجنحتها الوحشيَّة.

"أضئ المصباحَ يا هاري" قالَ السَّيِّد هولكر.

وميضٌ باهرٌ انبعثَ فجأةً، غامراً بالضَّوء قمَّة الصَّخرة برمَّتها والكتلةَ التي كانت تهتزُّ عند الحافَّة.

كانت ضرباً من آلةٍ طائرة، مجهَّزةٍ بأربعة أجنحةٍ عملاقةٍ وبمراوح ضخمة، تموضعَتْ فوق منصَّةٍ معدنيَّةٍ طويلةٍ وضيِّقة، محصَّنةٍ من حولِها بحاجزٍ معدني. في الوسط، كنتَ ترى الطَّبيبَ طوبي وبراندوك على فراشٍ وثيرٍ محجوبٍ بستارةٍ، مُضطجعَين أحدهما بجانب الآخر. في حين كان الزِّنجيُّ واقفاً في نهايةِ مُنبَسَطِ المنصَّة، وراءَ آلةٍ صغيرةٍ مجهَّزةٍ بعدَّة أنابيب.

"إلى اللقاء قريباً، أيُّها السَّيِّدان" قال هولكر، صاعداً إلى المنصَّة ليجلس قربَ المُعَادَين إلى الحياة.

"سَفَراً ميموناً، يا سيِّد هولكر" أجابَ كاتبُ العدل ورئيسُ البلديَّة. "أبلِغْنا غداً بأخبار الطَّبيب والسَّيِّد براندوك".

"امضِ بسرعة مِائة ميلٍ في السَّاعة، يا بُني" قال هولكر للزِّنجيِّ. "فأنا في عجلةٍ من أمري".

شرعَت الأجنحة والمراوح في الحركة وأقلعَت الآلةُ الطَّائرة بسرعة البرق، طاويةً السَّماء فوق جزيرة نانتوكيت وميمِّمَةً مقدِّمَتَها نحو الجنوب الغربي. كان السَّيِّد هولكر يتفحَّص في الوقت نفسِه الطَّبيبَ طوبي ورفيقَه، واضعاً يدَه مِراراً وتكراراً على صدريهما وجاسَّاً بين الفينة والأخرى نبضَ معصميهما.

كانت علامات الحياة تعود ببطءٍ إلى ذينك الرَّاقدَين. كان النَّبض قد بدأ بالفعل يختلجُ في معصميهما، بوهنٍ شديدٍ على أيَّة حال، بيد أنَّهما لم يكونا قد بدآ بالتَّنفُّس بعد والقلبُ كان ما يزال صامتاً.

"سنرى بعدَ الحمَّام،" همهمَ السَّيِّد هولكر. "إنَّهما ليسا ميِّتَين، ولذلك عليَّ ألَّا أيأس. أيُّ ذهولٍ سيصيبهما عندما يفتحان أعينهما! أن يعودا إلى

الحياة بعد مِائةِ عامٍ! أيُّ مشروبٍ سحريٍّ مُذهلٍ هذا الذي ابتكرَه سَلَفي! والأمرُ المتعذَّر تفسيرُه، فوق ذلك، هو أنَّهما لم يشيخا!"

في تلك الأثناء كانت *الكوندور* تواصلُ اندفاعَها بسرعة البرق. قطعَتِ الجزيرةَ وانطلقتْ فوق المحيط، ثابتةً دوماً على ارتفاعِ مِائةٍ وخمسين متراً.

كان مصباحُها يرسلُ دونما انقطاعٍ ومضةَ ضوءٍ طويلةً كانت تنعكس على الأمواج.

في منتصف الليل، جهةَ الغرب، انبلجتْ فجأةً موجاتُ ضوءٍ أبيضَ كانت تصعدُ إلى عُلْوٍ شاهق.

"هي ذي نيويورك، يا سيِّدي" قال الزِّنجيُّ.

"حقّاً؟" سألَ هولكر. "لقد تجاوزتَ المِائة ميلٍ في السَّاعة، يا عزيزي هاري. فلنسرعْ، وحذارِ أن تصدمَ أحداً".

نهضَ ونظرَ إلى تلك الأضواء.

"سنصلُ عمَّا قليل" همهمَ.

بعد عشرين دقيقةً كانت *الكوندور* تنحدرُ فوق تجمُّعاتٍ شاسعةٍ من البيوت والبروج وأبراج الكنائس.

رسمَتْ بضع دوائرَ في الهواء، مُلقِيةً بحزمةِ الضَّوء على أسطح المنازل، ثمَّ حطَّتْ على مصطبةٍ معدنيَّةٍ فسيحة، لتتَّخذ لها في أعلى عمارةٍ مؤلَّفةٍ من عشرين طابقاً موضِعاً.

"لقد وصلنا، يا سيِّدي" قال الزِّنجيُّ.

"احملْ هذين النَّائمَين وانقلهما إلى غرفتي. ولتلزَمْ حيالهما الصَّمتَ مع الجميع!"

أُوْلَياتُ عجائب الألفيَّةِ الثَّالثة

كانت ساعتان أخريان قد مرَّتا عندما فتحَ الدُّكتور طوبي أخيراً عينيه للمرَّة الأولى، بعد مِائة عامٍ من إبقائهما مُغمضَتَين.

بعدَ غطسةٍ دامتْ ربعَ ساعةٍ، في حوضٍ مليءٍ بالماء الفاتر، بدأ يُظهِرُ بالفعل بعض علامات الحياة ويفقد اصفرارَ لونه، ومع ذلك كان لا بدَّ من حقنه مجدَّداً بذلك السَّائل الغامض التَّركيب لكي يستأنفَ القلبُ في نهاية المطاف أداءَ وظائفه.

تحجُّرُ العضلات تلاشى من فوره وعاد اللونُ الورديُّ إلى وجهه بعدما استعادت الدَّورة الدَّمويَّة دفقَها.

بمجرَّدِ أن فتحَ عينيه ثبَّتَ ناظرَيه في السَّيِّد هولكر القابعِ بجانبه، وقد انكبَّ على دعكِ صدرِ براندوك.

"صباح الخير..." قال الحفيدُ له، مقترباً بسرعةٍ منه.

بقي طوبي صامتاً، ولكنَّ بريقاً كان يتلألأ في عينيه وفقاً لما رآه هولكر.

كان ثمَّة في عينيه ذهولٌ، وقلقٌ، بل وربَّما هلعٌ أيضاً.

"أتسمعني؟" سألَ هولكر.

أومأ الطَّبيبُ برأسه إيجاباً، ثمَّ حرَّك شفتيه عدَّة مرَّاتٍ من دون أن يتمكَّن من إصدار أيِّ صوت. لا ريب أنَّ اللسان لم يكن قد استعاد مرونته بعدُ، بعدما بقي مُجمَّداً سنواتٍ طِوال.

"بماذا تشعر؟ بتوعُّكٍ ربَّما؟"

أومأ طوبي سلباً، ثمَّ رفع يديه صانعاً إشاراتٍ لم يفهم منها السَّيِّد هولكر شيئاً على الإطلاق. فجأةً خفضهما مشيراً بهما إلى السَّيِّد براندوك الذي كان راقداً في السَّرير بجانبه.

"تسألني إن كان رفيقك حيَّاً أم ميِّتاً، أليس كذلك؟"

أومأ الطَّبيبُ بنعم.

"لا تخفْ يا سيِّدي... يا خالي، إن كنت لا تمانع أن أناديك بلقب القرابة هذا، بما أنَّني أنتمي إلى عائلتك بصفتي سليلُ أختك... لا تخفْ، فرفيقك أيضاً على وشك العودة إلى الحياة وعمَّا قليلٍ يفتح عينيه. أتجد صعوبةً كبيرةً في تحريك لسانك؟ دعني أرى يا خالي العزيز... فأنا الآخرُ طبيبٌ مثلك".

فتحَ له فمَه وسحبَ عدَّة مرَّاتٍ ذلك العضوَ الذي بدا كما لو أنَّه ضمُرَ، لاوياً إيَّاه في كلِّ الاتِّجاهات لجعله يستعيد خفَّةَ حركته المفقودة.

"هل يعمل الآن؟"

في أوَّل الأمر، صوتٌ مرتبكٌ خرجَ مِن بين شفتَي الدُّكتور طوبي، ثمَّ ما لبثت أن تلتْهُ صيحةٌ:

"الحياة! الحياة!"

"هذا بفضل ترياقك الغامض، يا خالي".

"مِائة عام؟"

"نعم، بعد مِائة عامٍ من النَّوم" أجاب هولكر، "أنا على يقينٍ من أنَّك لم تكن تعتقد أنَّك قد تعود إلى الحياة يوماً".

"بلى! بلى!"

في تلك اللحظةِ راحَ صوتٌ خافتٌ يسأل:

"طوبي؟ طوبي؟"

كان السَّيِّد براندوك قد فتحَ عينيه وراح يحملق في صديقه القديم بذهولٍ من السَّهل فهمُ أسبابه.

"طوبي!" كرَّرَ للمرَّة الثَّالثة، محاولاً رفع رأسه عن الوسادة.

"لا تتحرَّك، يا سيِّد براندوك" قال هولكر. "يسرُّني أن أقول لك عِمْ صباحاً وأن أسمعك تتكلَّم أيضاً. ابقيا مستلقيَين؛ فأنتما في حاجةٍ إلى إغفاءةٍ جيِّدة، إغفاءةٍ حقيقيَّة".

اقترب من طاولةٍ وُضِعَتْ عليها عدَّة قوارير، تناول إحداها وسكب مُحتواها في كوبين فضِّيَّين.

"اشربا هذا لُطفاً" قال، مُناولاً الكوبين لكليهما. "سيمنحكما القوَّة... آه!... لقد نسيت أن أخبركما بأنَّ ملايينكما في مأمنٍ، هنا في بيتي...

عودا إلى النَّوم، احظيا بإغفاءةٍ جيِّدةٍ وفي آخر النَّهار نتناول الغداء معاً، أنا على يقينٍ من ذلك".

غمغمَ الطَّبيبُ طوبي:

"شكراً لك، يا قريبيَ البعيد النَّسَب".

ثمَّ أغلق من لحظتِه تقريباً عينيه مرَّةً أخرى. كان السَّيِّد براندوك قد غطَّ في النَّوم بالفعل، مُرسِلاً شخيراً طنَّاناً.

مكث السَّيِّد هولكر في الحُجرةِ لعدَّة دقائق، منحنياً فوق المُعَادَين إلى الحياة، تارةً فوق هذا وتارةً فوق ذاك، ومردِّداً القول بارتياحٍ جليٍّ:

"هذا هو النَّوم الحقيقيُّ الذي سيعيد إليهما القوَّة. يا لِذلك التِّرياق الغامض!... إنَّه لَسِرٌّ، سِرٌّ إذا ما كُشِف الحجابُ عنه، جعلَ مِن سَلَفي هذا الرَّجلَ الأكثر شهرةً في العالَم. سأتركهما يأخذان قسطاً من الرَّاحة. أظنُّهما في منجىً الآن".

بعد ثماني ساعاتٍ من ذلك استيقظَ الطَّبيبُ طوبي على صوتِ صفيرٍ خفيفٍ بدا له أنَّه يأتي من تحت الوسادة.

مشدوهاً للغاية، نهض جالساً، مُجيلاً من حوله نظرةً مُستغربة. لم يكن ثمَّة أحدٌ في الغرفة وكان براندوك يواصلُ شخيرَه في السَّرير الآخر.

"مَن الذي صفرَ في أذني؟" سألَ نفسَه. "هل كنتُ أحلم؟"

كان على وشك أن ينادي براندوك عندما سمعَ صوتاً بدا له بشريّاً يهمسُ في أذنيه:

"أحداثٌ مُفجعةٌ وقعت بالأمس في مدينة "قادس". فوضويُّو مدينة "بريسَّاك" الغائصة في أعماق البحر، وبعدما استولوا على سفينة هوليندورف، نزلوا في الليل إلى البرِّ الرَّئيسِ، وقاموا برمي عدَّة قنابل على البيوت. السُّكَّان تسلَّلوا لِواذاً ونهبَ الفوضويُّون المدينة. تمَّ استدعاءُ الجنود المتطوِّعين في مدينتَي "مالقة" و"لَقَنْت" إلى السِّلاح حيث نُقلوا إلى موقع الهجوم بالأساطيل الجويَّة. يُقال إنَّ مدينة "بريسَّاك" قد دُمِّرَتْ بأسْرِها وإنَّ العديد من العائلات لقيتْ حتفها غرقاً".

بذهولٍ ليس من الصَّعب تخمين أسبابه، وبعد أن استمعَ إلى ذلك الصَّوت وهو يعلن عن تلك الكارثة المرعِبة، رفعَ الطَّبيبُ الوسادةَ بحركةٍ خاطفة، ذلك أنَّ الصَّوتَ كان يأتيه بالضَّبط من وراء حافَّة السَّرير، فرأى ضرباً من أنبوبٍ كُتِبَ على طرَفِه: "اشتراكٌ في صحيفةِ *العالَم*".

"تلك من عجائب الألفيَّة الثَّالثة!" هتفَ. "الصُّحف تنقلُ الأخبارَ مباشرةً إلى منازل المشتركين. أتُراهم ألغوا الورق وآلات الطِّباعة؟ في أيَّامنا لم تكن وسائل الرَّاحةِ هذه معروفةً بعد. لَكَم تقدَّمَ العالم!"

كان على وشك أن ينادي صديقَه، الذي لم يكن قد قرَّر فتحَ عينيه بعد، عندما سمع صفيراً آخر يخرج من الأنبوب، ثمَّ الصَّوتَ نفسَه يقول:

"تأمَّلوا المشهدَ".

في اللحظة نفسِها رأى الطَّبيبُ صورةً كبيرةً تتوهَّجُ محتلَّةً الحائطَ القائمَ أمامَ السَّرير ومشهداً رهيباً فائقَ الواقعيَّةِ يدور.

ظهرَ بعضُ الرِّجال وهم يركضون بجنونٍ في وسط البيوت، ويرمون بقنابل كانت تنفجرُ مُصدِرةً بروقاً وهَّاجة الألوان.

كانت الجدران تهوي، والأسطحُ تنهار؛ رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ كانوا يُلقون بأنفسهم إلى الشَّوارع، فيما ارتفعت ألسنةُ لهبٍ ضخمةٌ فوق أكوام الحُطام تلك، ملوِّنةً كامل الصُّورة بالأحمر.

كان الفوضويُّون يواصلون في أثناء ذلك أعمالَ التَّدمير، وكانت المَشاهدُ تعقبُ المَشاهدَ بسرعةٍ مُدَوِّخةٍ ومن دون أدنى انقطاعٍ. كان ذلك ضرباً من فنِّ التَّصوير السِّينمائيِّ، بلغ درجةً لا تضاهَى من الكمال، درجةً مُذهِلةً بحقٍّ، وهو يُعيد بدقَّةٍ مدهشةٍ تصويرَ المذبحة المروِّعة التي أذاعت خبرَها الصَّحيفةُ منذ قليل.

لعشر دقائق استمرَّ ذلك الخراب، ثمَّ انتهى بالفرار الفوضويِّ للنَّاس، إذ تحوَّلوا نحو أحد الشَّواطئ، فيما كانت السَّماء تعكس من فوقهم وميضَ الحرائق.

"مذهلٌ!" كرَّر الطَّبيبُ حينَ عاد الحائطُ إلى لونه الأبيض. "أيُّ تقدُّمٍ هذا الذي أحرزتْه الصَّحافة في مِائة عام! ومَن يعلم كم من العجائب سيكون لدينا لنراه أيضاً. ها براندوك، هل اكتفيت بما نُمْتَه؟"

ما إن سمع ذلك النِّداء حتَّى فتح الشَّابُّ أخيراً عينيه، متثائباً مثل دُبٍّ يستفيق بعد سباته الشَّتويِّ الطَّويل.

"كيف تشعر، يا صديقي؟" سألَ طوبي.

"إنَّني في أحسن حال"

"وكآبتك؟"

"في هذه اللحظة لا أشعر بأنَّها تصبُّ عذابها عليَّ. ولكن... قُلْ لي يا طوبي، أكنَّا نحلمُ، أم أنَّه عينُ الحقيقة أنَّنا رقدنا قرناً؟"

"البرهان موجودٌ في خزائننا التي حملوها إلى هنا بعدما أخلدنا ثانيةً إلى النَّوم".

"مَن يستطيع أن يصدِّق أنَّنا بُعِثنا من الموت؟"

"قريبي بطبيعةِ الحال، بما أنَّه هو الذي جاء ليُخرِجنا من ضريحنا".

"وأين نحن الآن؟ أما نزال في نانتوكيت؟"

"في الحقيقة لا أعرف".

"وكيف حالك أنت؟"

"أشعرُ بتشوُّشٍ لا أعرفُ كيف أفسِّره ويبدو لي أنَّني في غاية الوهن".

"دعني أخمِّن، ربَّما هو ذلك الصَّوم الذي كان طويلاً للغاية؟" قال براندوك، ضاحكاً. "ألا تشعر بشهيَّةٍ للطَّعام؟ من جهتي سأتناول بطيب خاطرٍ شريحةً كاملةً من اللحم، على سبيل الذِّكْرِ لا الحصرِ طبعاً".

"تريَّثْ، يا عزيزي. ما نزالُ لا نعرفُ بَعْدُ كيف ستعمل أعضاؤنا الدَّاخليَّة".

"بما أنَّ القلب والرِّئتين لم تُعطِ إشارةً على ضِيقٍ ما، بعد توقُّفها لأمدٍ طويلٍ من الزَّمن، فإنَّني أفترض أنَّ الأمعاء أيضاً ستستأنف عملَها".

"ولكنَّني أخشى أن تكون قد ضمرتْ" قال طوبي.

في تلك اللحظة فُتحَ البابُ وظهرَ السَّيِّد هولكر، متبوعاً بالمارد الزِّنجيِّ

الذي كان يحمل ملابسَ مشابهةً لتلك التي كان يرتديها سيِّدُه وبياضاتٍ ناصعةِ البياض.

"كيف حالكَ يا خالي؟ أتسمح لي بأن أدعوك هكذا من الآن فصاعداً؟"

"بالتَّأكيد، يا حفيدي العزيز البعيد النَّسَب والمتقدِّم عنِّي كثيراً في الزَّمَن" قال الطَّبيب. "أنا بخيرٍ إلى حدٍّ ما".

"وأنت، يا سيِّد براندوك؟"

"أشعر بقليلٍ من الجوع وحسب".

"تلك إشارةٌ جيِّدة؛ ارتديا ملابسكما ولننطلقْ من ثَمَّ إلى الغداء. ستجدان الملابس مختلفةً قليلاً عن تلك التي كنتما ترتديانها قبل مِائة عام، ولكنَّها أكثر راحةً ولا تغفل عمَّا قد ترغبان فيه من النَّاحية الصِّحِّيَّة، كونها معقَّمةً تماماً".

"القماش كذلك يبدو لي مختلفاً".

"إنَّه قماشٌ نباتيٌّ. منذ ستِّين عاماً تخلَّينا عن ذلك الحيوان، الباهظ الكُلفة والقليل النَّظافة مقارنةً بهذا. آه! ستجدان أنَّ العالَم تغيَّر كثيراً؛ لن أقول لكما شيئاً آخرَ الآن لئلاَّ أُنقِصَ من فضولكما. أنتظركما في غرفة الطَّعام".

غيَّر الدُّكتور طوبي وبراندوك ملابسهما، تأنَّقا على المرآة قليلاً، ثمَّ غادرا الغرفة، ليسيرا عبر ممرٍّ كان لجدرانه اللمَّاعة لُمْعاتُ بريقٍ غريبة، كما لو كان ثمَّة، تحت الطِّلاء الذي كان يغطِّيها، طبقاتٌ من الموادِّ الفوسفوريَّة، ثمَّ دخلا غرفةً رحيبةً إلى حدٍّ ما، مُضاءَةً من خلال نافذتين واسعتين وعاليتين حتَّى السَّقف، تسمحان للهواء بالدُّخول بحرِّيَّة.

كانت مفروشةً بأسلوبٍ يتوخَّى البساطة، ولا يخلو في الوقت نفسِه من الأناقة. كانت الكراسي، والخِوان، والرُّفوف الموضوعة في الزَّوايا، وحتَّى المائدة التي كانت تحتلُّ المركز، مصنوعةً من معدنٍ أبيض برَّاقٍ يشبه الألمنيوم.

كان السَّيِّد هولكر جالساً إلى المائدة، وكانت هذه مغطَّاةً بمفرَشٍ ملوَّنٍ لم يبدُ من القماش.

"هلمَّا، يا صديقيَّ العزيزَين،" قال، متقدِّماً نحوَهما "الغداء جاهزٌ".

"وأين سنتناوله؟" سألَ براندوك، ولم يكن قد رأى على المائدة من قبلُ أطباقاً، ولا كؤوساً، ولا أدوات مائدةٍ، ولا فُوَطٍ، ولا أصناف طعامٍ من هذا القبيل.

"آه! لقد نسيتُ أنَّ أصحابَ الفنادق كانوا متأخِّرين قرناً قبلَ مِائةِ عام!" قال هولكر، ضاحكاً. "لقد تقدَّموا هم أيضاً. انظرا".

دنا إلى جدارٍ وأنزلَ لوحاً من المعدن طوله بضعة أمتارٍ وعرضه حوالي ثلاثين سنتيمتراً، واصلاً إيَّاه بالمائدة على شكل جسرٍ صغير. أمَّا الطَّرَف الآخر فاستندَ إلى رفٍّ صغيرٍ مكتوبٌ فوقه: "اشتراكٌ في فندق *بارديللي*".

"والآن؟" سأل براندوك الذي كان ينظرُ بذهولٍ مُتعاظم.

"أضغطُ على هذا الزِّرِّ فيغادرُ الغداء مطابخَ الفندق ليحُلَّ على مائدتي".

"أين يقع هذا الفندق؟ في هذا المنزل؟"

"لا، بل إنَّه بعيدٌ جدَّاً: على الشَّاطئ المقابل لهدسون".

"نحن في نيويورك إذاً؟!" هتفا بصوتٍ واحدٍ، طوبي وبراندوك.

"وأين كنتما تظنَّان أنَّكما موجودان؟ في نانتوكيت إلى الآن؟"

"متى نقلتمونا إلى هنا؟" سألَ براندوك وهو في غاية الذُّهول.

"مساءَ أمس. في الثَّامنة غادرتُ الجزيرةَ وفي منتصف الليل كنتما هنا".

"في أربع ساعاتٍ فقط، بينما قبل مِائة عامٍ كانت الرِّحلةِ تستغرق ستَّ عشرة ساعةً وفي قاربٍ بخاريٍّ!" هتف الطَّبيب.

"لقد سرنا مع الاختراعات، يا خالي العزيز" قال هولكر. "آه! هوَذا الغداء".

أزيزٌ حادٌّ انبعثَ من فتحةٍ ضيِّقةٍ في ذلك الرَّفِّ، ثمَّ انفتحَ تلقائيَّاً بُوَيبٌ في نهاية اللوح المعدنيِّ المتَّصلِ بالمائدة فإذا آلةٌ صغيرةٌ، تليها ستُّ مقطوراتٍ أسطوانيَّةِ الشَّكل من الألمنيوم، تتقدَّمُ، منسابةً على تجويفين يقومان مقامَ سكَّتي حديدٍ لِقطار.

"أهو الغداء الذي يرسله الفندق؟" سأل طوبي وبراندوك.

"نعم، أيُّها السَّيِّدان، ومع كلِّ ما تحتاجانه. كما تريان إنَّه شيءٌ مريحٌ جدَّاً يُعفيني من امتلاك طاهيةٍ أو مطبخ" أجابَ هولكر.

فتح المقطورة الأولى، وكانت ذات محيطٍ قدرُه أربعون سنتيمتراً وطولٍ يعادلُه، ورفعَ منها كؤوساً، وأدواتِ مائدةٍ، وفُوَطاً، وأربعَ زجاجاتٍ لا بدَّ وأنَّها كانت تحتوي على النَّبيذ أو الجعة. من المقطورات الأربع الأخرى أخرجَ بالتَّالي أوانٍ صغيرةَ احتوتْ على حساءٍ كان ما يزال في منتهى السُّخونة، ثمَّ أطباقاً مع مختلف أصناف المعجَّنات والوجبات الخفيفة، والبيض،

والمشروبات الرُّوحيَّة وهلمَّ جرَّاً. باختصارٍ، كان ثمَّة كلُّ ما يلزم لتناول وجبة غداءٍ وافرة.

عندما فرغَ من ذلك، ضغطَ على زرٍّ، فانفتح البُوَيبُ والقطارُ المصغَّرُ اختفى، منسحباً بسرعة البرق.

"ما قولك في هذا، يا سيِّد براندوك؟" سألَ هولكر.

"أقول إنَّه في أيَّامنا لم تكن وسائل الرَّفاهيةِ هذه موجودةً على الإطلاق. وهل سيعود القطار؟"

"بالطَّبع، لكي يستعيد الأواني والأطباق".

"وكيف يصل إلى هنا؟"

"عبرَ نفقٍ، ويسير متحرِّكاً بواسطة مولِّدَةٍ كهربائيَّةٍ صغيرةٍ باستطاعةٍ تمنحها سرعةً تقاربُ المِائةَ كيلومترٍ في السَّاعة. هذه الوجبات لم توضَع داخلَ حاوياتها سوى منذ بضع دقائق؛ وها أنتما تريان بالفِعل أنَّها ترسلُ دخاناً، بل وتكوي اللسان".

"وكيف يُخطِرُ العميلُ صاحبَ الفندق بما يرغب فيه؟"

"عبرَ الهاتف. في الصَّباح يرسل خادمي إلى الفندق قائمةً بوجبتَي الغداء والعشاء وبالأوقات التي أودُّ تناولَ الطَّعام فيها، فيَصِلُ القطارُ بدقَّةٍ رياضيَّةٍ في مواقيته".

"ربَّما ليس في مقدور الجميع تكلُّفُ مثل هذا التَّرف" لاحظَ الدُّكتور طوبي.

"بالطَّبع،" أجاب هولكر "ولكنَّ أولئك الذين لا يستطيعون الاشتراك في الفندق سيسارعون إلى ذلك عاجلاً".

"لتناول الطَّعام ربَّما، لا لتحضيره بكلِّ تأكيد".

"لم يعد العامل يطهو في المنزل، بما أنَّه ليس لديه وقتٌ ليضيِّعَه. إنْ هي إلَّا ثمانية أو عشرة أقراص، ويكون المرءُ قد ابتلعَ طبقَ حساءٍ شهيٍّ، وخلاصةَ نصف رطلٍ من لحم العجل، أو الدَّجاج، أو خلاصةَ رطلٍ من لحم الخنزير، أو خلاصةَ بيضتين، وخلاصةَ فنجانٍ من القهوة، وهكذا دواليك. قبل مِائةِ عامٍ كان المرء يضيِّعُ الكثير من الوقت؛ كنتم تسيرون وتعملون ببطءِ السَّلاحف. أمَّا اليوم فإنَّنا نُباري الكهرباء. كُلا، أيُّها السَّيِّدان، وإلَّا فإنَّ الطَّعام سيبرد. ابدأ بطبق الحساء الشَّهيِّ، يا سيِّد براندوك، قبل كلِّ شيء، ثمَّ اخترْ ما تشتهيه أكثر من سواه. أودُّ أن أخبركما بأنَّها وجبةٌ نباتيَّةٌ، ولكنَّ هذه الأطباق ليست أقلَّ نفعاً للأجسام، ولن تبدوَ لكما أقلَّ لذَّةً. بعد ذلك نتحدَّث قدرَ ما تشاءان".

الضَّوءُ والحرارةُ المستقبليَّان

الطَّبيبُ هولكر قال الحقيقة. لقد كان الحساءُ شهيَّاً للغاية، ولكن أيٌّ من الأطباق لم يكن لحمَ عجلٍ، أو خنزيرٍ، أو ضأن. سمكٌ فحسب: كلُّ الأطباق الأخرى كانت مكوَّنةً من نباتاتٍ، وكثيرٌ من تلك النَّباتات كان غير معروفٍ بتاتاً لطوبي وبراندوك.

في المقابل كان النَّبيذُ فاخراً للغاية، لدرجةِ أنَّ أحداً منهما لم يكن قد ذاق له مثيلاً من قبل.

"هل أنت نباتيٌّ يا سيِّد هولكر؟" قال براندوك وهو يلتهم طعامه بشهيَّةٍ يُحسَد عليها، كما لو أنَّه استفاق بعد نومةٍ استغرقتْ عشر أو اثنتي عشرة ساعةً فقط.

"لماذا تسألني هذا السُّؤال؟" سألَ حفيدُ الطَّبيب البعيدُ النَّسَب.

"في أيَّامنا كان يجري الحديث كثيراً عن النَّزعة النَّباتيَّة، ولا سيَّما في ألمانيا وإنجلترا. من الواضح أنَّ المطبخ النَّباتيَّ قد أحرز بعض التَّقدُّم".

"أهذا لأنَّك لا تجد شرائح لحمٍ؟"

"نعم؛ ويدهشني كيف أنَّ الأميركيِّين الحديثين تخلَّوا عن شرائح اللحم الغنيَّة بالعُصارة وعن لحم البقر المشويِّ المدمَّى".

"إنَّها أطباقٌ باتت نادرةً قليلاً اليومَ، يا عزيزي، ولسببٍ بسيطٍ هو أنَّ الأبقار والخِراف قد اختفتْ تقريباً".

"آه!"

"أيدهشك ذلك؟"

"كثيراً".

"يا سيِّدي العزيز، لقد ازداد تعدادُ سكَّان العالم بشكلٍ كبيرٍ في المِائة عامٍ الأخيرة، ولم تعد ثمَّة مروجٌ لإطعام القطعان الكبيرة التي كانت موجودةً في أيَّامكم. كلُّ الأراضي المتاحة تُزرَعُ الآن بكثافةٍ لنأخذ من التُّربة كلَّ ما يمكن أن تُعطيه. لو لم يسِر الأمرُ على هذا المنوال، لرأيتَ كلَّ سكَّان العالم اليومَ تحت المجاعة. مراعي الأرجنتين العظيمة ومراعي غربنا الأقصى لم تعد موجودةً، والأبقار والخِراف تدنو شيئاً فشيئاً من شفير الاختفاء، لأنَّنا لم نأخذ في الحسبان توسيع المروج بما يتناسب مع تمدُّد القطعان. ومع ذلك، لم نعد في الوقت الحاضر في حاجةٍ إلى اللحوم. لقد كثَّف كيمائيُّونا، في قرصٍ واحدٍ بوزن بضعة غرامات، كلَّ العناصر التي كان من الممكن قبل ذلك الحصولُ عليها من رطلٍ واحدٍ من لحم عجلٍ ممتاز".

"وكيف تتمُّ الزِّراعة من دون ثيران؟"

"تلك أفكارٌ بالية" قال هولكر. "فلَّاحونا لا يستخدمون سوى آلاتٍ تعمل بالكهرباء".

"وبناءً عليه لم يَعُدْ ثمَّة خيولٌ أيضاً؟"

"وبماذا عساها تنفعُنا الخيول؟ ما يزال هناك بعضٌ منها، محفوظٌ لإشباع الفضول أكثر ممَّا لأيٍّ غرضٍ آخر".

"والجيوشُ، هل توقَّفتم عن استخدامها؟" سألَ الدُّكتور طوبي. "في أيَّامنا كانت جميع الأمم تمتلك أفواجاً منها".

"وما الذي كانت تفعله بها؟" سأل هولكر بنبرةٍ ساخرة.

"تستخدمها في الحروب".

"جيوشٌ! فرسانٌ! مَن يتذكَّر ذلك الآن؟"

"لم يعد ثمَّة جيوش؟" سألَه بصوتٍ واحدٍ طوبي وبراندوك.

"لقد اندثرت الجيوش منذ ستِّين عاماً، بعد أن أجهزتِ الحربُ على الحرب. المعركة الأخيرة التي دارت رحاها في البرِّ والبحر بين الدُّول الأمريكيَّة والأوروبِّيَّة كانت رهيبةً ومروِّعة، وقد أزهقتْ ملايين الأرواح البشريَّة، دونما طائلٍ لهذه القوى أو تلك. كانت المذبحة من الفظاعة حدَّ أنَّها دفعت الدُّول المختلفة إلى اتِّخاذ قرار إلغاء الحروب إلى الأبد. وأصبح من المستحيل بعد ذلك خوضُها. لدينا اليومَ قنابلُ قادرةٌ على تفجير مدينةٍ يقطنها ملايين السُّكَّان؛ لدينا آلاتٌ قادرةٌ على رفع جبال؛ وفي مُكْنَتِنا، بضغطةِ زرٍّ بسيطةٍ، أن نُطلِقَ شرارةً كهربائيَّةً قابلةً للبثِّ إلى مكانٍ يبعد مئات الأميال وأن نفجِّرَ أيَّ مستودعِ ذخيرةٍ جاعلين منه هباءً منثوراً. أيُّ حربٍ، في أيَّامنا هذه، ستشكِّلُ نهاية البشريَّة. لقد انتصر العلمُ اليومَ على كلِّ شيءٍ وعلى الجميع".

"ولكنَّني اليومَ بالتَّحديد، ما إن صحوتُ حتَّى بلغَ مسمعي مِن قِبلِ صحيفتكم خبرٌ يدحض ما قلتَه الآن، يا حفيدي العزيز" قال طوبي.

"آه أجل! تدميرُ قادِس على أيدي الفوضويِّين. محضُ ترَّهات! في هذه اللحظة سيكون أولئك المضطربون الخبثاء قد مُحِقوا كلِّيّاً مِن قِبل رجال إطفاءِ "مالقة" و"لَقَنْت"".

"رجال إطفاء؟"

"ليست لدينا قوَّاتٌ أخرى في هذه الأيَّام، وأؤكِّد لكما أنَّهم يعرفون كيف يحفظون النِّظام في كلِّ المدن ويقمعون أيَّ شغب. يضعون بعض المضخَّات في وحداتٍ مدفعيَّةٍ ويوجِّهون إلى المحرِّضين على العصيان تيَّاراتِ ماءٍ مُكَهْرَبةً إلى أعلى درجة. كلُّ قطرةٍ تنزل كصاعقة، فإذا القضيَّة برمَّتها حُلَّتْ في الحال".

"إنَّها وسيلةٌ وحشيَّةٌ بعض الشَّيء، يا سيِّد هولكر، ولاإنسانيَّة".

"إذا لم نفعل ذلك، فإنَّ الدُّوَل ستضطرُّ إلى امتلاك قوَّاتٍ لحفظ النِّظام. ومن جهةٍ أخرى، فإنَّنا كثيرون جدَّاً في هذه الأرض، وإذا نحن لم نجد وسيلةً لغزو أحد الكواكب، لا أعلم كيف سيدبِّرُ أحفادُنا أمورهم في غضون مِائةِ عامٍ أخرى ما لم يعودوا، مثل أسلافنا، إلى أكل لحوم البشر. إنتاجُ الأراضي والبحار لن يكفي لإطعام الجميع، وهذه هي المشكلة الفادحة التي لا تني تُقلِق وتُمِضُّ العلماء. آه! ليت في مقدورنا الصُّعود إلى المرِّيخ الذي فيه عددٌ جِدُّ قليلٍ من السُّكَّان والكثيرُ من الأراضي التي لم تُستثمَر بعد!"

"وأنَّى لك العلم بذلك؟" سألَ طوبي، وهو يقوم بحركةٍ تعبِّر عن الدَّهشة.

"مِن المريخيِّين أنفسِهِم" أجاب هولكر.

"مِن سكَّان ذلك الكوكب؟!" هتف براندوك.

"آه، نسيتُ أنَّه في أيَّامكم لم تكن قد وُجِدَتْ بعض وسيلةٌ للاتِّصال بأولئك المرِّيخيِّين الألبَّاء".

"أتمزح؟"

"إنَّني أتكلَّم بجدِّيَّة، يا عزيزي براندوك".

"وهل أنت على اتِّصالٍ بهم؟"

"بل إنَّ لديَّ هناك صديقاً حميماً، كثيراً ما يُبلِغني بأخباره".

"كيف حدث وصرتم على اتِّصالٍ بأهل المرِّيخ؟"

"سأخبركما بذلك لاحقاً، عندما تزورون محطَّة بروكلين للطَّاقة الكهربائيَّة. إيه! إنَّها الآن أربعون عاماً مُذ بدأ اتِّصالُنا بأهل المرِّيخ".

"إنَّه لأمرٌ مُذهل!" هتف الدُّكتور طوبي. "أيُّ اكتشافاتٍ باهرةٍ تلك التي توصَّلتم إليها في المِائة عامٍ الأخيرة!"

"كثيرةٌ هي الأشياء التي من شأنها أن تجعلك في غاية الدَّهشة، يا خالي العزيز. حالما تتعافيان كلِّيَّاً، سأقترح عليكما القيام بجولةٍ عبر العالَم. في غضون سبعة أيَّامٍ نكون من جديدٍ في المنزل".

"جولةٌ حول العالَم في أسبوع!..."

"من الطَّبيعيِّ أن يدهشكما ذلك. في أيَّامكم كان الأمر يستغرق خمسةً وأربعين أو خمسين يوماً، إذا لم أكن مخطئاً".

"وكان يبدو لنا أنَّنا بلغنا السُّرعة القصوى".

"للسَّلاحف" قال هولكر ضاحكاً. "ثمَّ سنقوم كذلك برحلةٍ إلى القطب الشَّماليِّ لزيارة تلك المستعمَرة".

"أبات من الممكن الذَّهاب إلى القطب في هذه الأيَّام؟"

"آه!... إنَّها نزهةٌ بسيطة".

"هل وجدتم الوسيلة لتدمير الجليد المحيط به؟...".

"لا على الإطلاق، بل أظنُّ أنَّ القبَّعات الجليديَّة التي تغلِّف طرفيَ الأرض أصبحت أكبر ممَّا كانت عليه قبل مِائة عام؛ ومع ذلك لم نعدم الوسيلةَ للذَّهاب إلى هناك سواءً لزيارتها أو حتَّى لاستعمارها. لقد أقصينا إلى هناك..."

صفيرٌ حادٌّ انبعث من ثُلمةٍ مفتوحةٍ فوق رفٍّ في إحدى زوايا الغرفة ليقطع تلك العبارة.

"آه، هوذا بَريدي قد وصل" قال هولكر ناهضاً.

"تلك أعجوبةٌ أخرى!" قال طوبي وبراندوك ناهضَين.

"إنَّها مجرَّد شيءٍ في غاية البساطة" أجاب هولكر. "انظرا يا صديقيَّ".

ضغط على زرٍّ أسفلَ لوحةٍ تصوِّرُ معركةً بحريَّة. الصُّورة اختفتْ، مرتفعةً داخلَ أخدودَين عموديَّين، وتاركةً مكانها فراغاً بمساحة نصف مترٍ مربَّع. في الدَّاخل كان ثمَّة أسطوانةٌ معدنيَّةٌ مغطَّاةٌ بأرقامٍ باللون الأسود، طولها ستُّون أو سبعون سنتيمتراً، مع محيطٍ قدرُه ثلاثون أو أربعون.

"رقم اشتراكي البريديِّ هو ١٩٨٧" قال هولكر. "هوذا هنا، وداخلَ حُجَيرةٍ صغيرةٍ وُضِعَتْ رسائلي".

وضع إصبعاً على الرَّقم، فانفتحَتْ سديلةٌ أخرجَ منها رسائلَه، ثمَّ أنزلَ الصُّورة ثانيةً وضغط زرّاً آخر.

"هي ذي الأسطوانة أقلعَتْ من جديد" قال. "مضتْ لتوزِّع الرِّسائل على مستأجري المنزل".

"كيف وصلَتْ إلى هنا تلك الأسطوانة؟" سألَ براندوك.

"عبرَ نفقٍ متَّصلٍ بأقرب مكتبٍ بريديٍّ، ومقطورٍ بواسطة مَكَنَةٍ كهربائيَّةٍ صغيرة".

"وكيف تتوقَّف؟"

"خلف اللوحة ثمَّة أداةٌ لقطع التَّيَّار الكهربائيِّ. بمجرَّد مرور الأسطوانة فوقها تتوقَّف ولا تُقلع من جديد ما لم أُدِرْ أوَّلاً التَّيَّار الكهربائيَّ من جديدٍ عن طريق الضَّغط على هذا الزِّرِّ".

"هل ثمَّة أسطوانةٌ لكلِّ منزل؟"

"أجل، يا سيِّد براندوك؛ لا بدَّ لي من أن ألفت انتباهكما إلى أنَّ المساكن الحديثة تتكوَّن من عشرين إلى خمسةٍ وعشرين طابقاً وتضمُّ من خمسمائة إلى ألف عائلة".

"وهو ما كان يشكِّل تعداد سكَّان ضاحيةٍ من ضواحينا القديمة؛" قال الطَّبيب. "لم يعد لديكم منازلُ صغيرةٌ إذاً؟"

"الأراضي باهظة الثَّمن في أيَّامنا هذه، وذلك التَّرف القديم تمَّ حظرُه. لا يمكن اقتلاع مساحاتٍ من قِطاعِ الزِّراعة. ولكنَّها بدأت تُظلِم؛ ربمَّا حان موعدُ إنارة هذه الغرفة. في أيَّامكم ماذا كنتم تضيؤون في المساء؟"

"غازٌ، نفطٌ، مصابيحُ كهربائيَّة" قال براندوك.

"يا لِلمساكين" قال هولكر. "لا بدَّ وأنَّ الإضاءة كانت باهظة الكُلفة!"

"بالطَّبع، يا سيِّد هولكر" قال براندوك. "وكيف هي اليوم في المقابل؟"

"الإضاءة والتَّدفئة عندَنا تكادان تكونان بلا ثمن".

من السَّقف كان يتدلَّى قضيبٌ حديديٌّ ينتهي بِجسمٍ كرويٍّ مَصوغٍ من معدنٍ أزرق.

أدارَه السَّيِّد هولكر جاعلاً إيَّاه ينزلق على القضيب فإذا ضوءٌ ساطعٌ، شبيهٌ بذلك الذي كانت ترسله ذات يومٍ المصابيحُ الكهربائيَّة، ينتشرُ في الحال، غامراً غرفة المعيشة.

ذاك الذي كان يولِّدُه كان كرةً صغيرةً بالكاد تُرَى، مثبَّتةً أسفلَ الجسم الكرويِّ، والضَّوء الذي كانت ترسلُه كان ينشرُ حرارةً أعلى بكثيرٍ من تلك التي لمصابيح الغاز.

"ما هذا الشَّيء؟" سأل براندوك وطوبي بصوتٍ واحد.

"مجرَّد قطعةٍ صغيرةٍ من الرَّاديوم" أجاب هولكر.

"الرَّاديوم!" هتف العائدان إلى الحياة.

"أكان معروفاً في تلك الأيَّام؟"

"كانوا قد اكتشفوه بالفعل" أجاب طوبي. "ولكنَّه لم يكن قد استُخدِمَ بعدُ بسبب كلفته الباهظة. غرامٌ واحدٌ منه لم يكن ليساوي أقلَّ من ثلاثة أو أربعة آلاف ليرة. ثمَّ إنَّ أحداً لم يكن قد تمكَّن بعد من إيجاد طريقةٍ لاستخدامه، مثلما فعلتم أنتم اليوم. بيد أنَّ الجميع كانوا يتنبَّؤون له بمستقبلٍ عظيم".

"ذلك الذي لم يستطع كيميائيُّو القرن العشرين القيامَ به قامَ به كيميائيُّو الألفيَّة الثَّالثة" قال هولكر. "هذه الشَّقَفَة هنا لا تساوي أكثر من دولارٍ واحدٍ وهي تحترق على الدَّوام، من دون أن تنفَدَ أبداً. إنَّها النَّارُ الأبديَّة".

"يا لِلْفِلِزِّ المدهش!...".

"أجل، إنَّه لَمدهشٌ، لأنَّه إلى جانب إرفادِنا بالضَّوء، يُرفدنا كذلك بالحرارة. لقد خلعَ الفحمَ الأحفوريَّ، والكهرباء، والغاز، والزَّيت البتروليَّ، والمواقد والمدافئ، عن عروشها".

"وهل تُنارُ الشَّوارعُ أيضاً بمصابيح الرَّاديوم؟" سألَ طوبي.

"بل والمنشآت والمصانع وهلمَّ جرَّاً".

"ولم يعد هنالك من يعمل في مناجم الفحم؟"

"ما الذي سنفعله بالفحم؟ ثمَّ إنَّه بدأ فِعلاً بالنَّفاد".

"والطَّاقة اللازمة لتدوير مَكَنات المصانع، ما الذي يرفدكم بها اليومَ؟"

"الكهرباء المنقولة عبرَ مسافاتٍ هائلة. شلّالات نياجارا، على سبيل المثال، تديرُ آلاتٍ تقع على بعد آلاف الأميال. وإذا أردنا، يمكننا كذلك إمدادَ أوروبًا بتلك الطّاقة، بإرسالها إليها عبر المحيط الأطلسيِّ. ولكنَّهم هناك أيضاً أنشؤوا شلّالاتٍ على أنهارهم ولم يعودوا في حاجةٍ إلينا".

"ها صديقي جيمس،" قال طوبي "أنادمٌ أنتَ لأنَّك رقدتَ مِائة عامٍ لتتمكَّن بعدَها من رؤية عجائب الألفيَّة الثَّالثة؟"

"أوه لا!" هتف الشَّابُّ عالياً.

"أكنتَ تظنُّ أنَّك سترى العالَم على هذه الدَّرجة من التَّقدُّم؟"

"لم أكن أتوقَّع الكثير".

"وكآبتك، ماذا عنها؟"

"لم أعد أشعرُ بها، ولكنْ أنتَ، ألا تشعر بشيء؟"

"بلى، بتشوُّشٍ غريبٍ، بتهيُّجٍ غير مفهومٍ في الجهاز العصبيِّ" قال طوبي. "يُخيَّلُ إليَّ أنَّ عضلاتي ترقص تحت جلدي".

"وأنا كذلك" قال براندوك.

"أتعرف من أين ينشأ ذلك؟" سألَ هولكر.

"لا يمكنني التَّخمين" أجابَ طوبي.

"من التَّوتُّر الكهربائيِّ الهائل الذي يهيمنُ اليومَ على كلِّ مدنِ العالَم والذي لم تعتادا عليه بعد. قبل قرنٍ من الزَّمن لم تكن الكهرباء قد بلغَتْ

بعدُ درجةً كبيرةً من التَّطوُّر، في حين أنَّ الجوَّ والأرضَ شبيعان بها اليوم. ولكنَّكما ستعتادان عليها، أنا على يقينٍ من ذلك. أمَّا الآن فكفانا هذا. اذهبا إلى النَّوم وغداً صباحاً نقوم بجولةٍ عبر نيويورك على متن كوندوري".

"أهي مركبةٌ ذاتيَّة الحركة؟" سألَ براندوك.

"نعم، ولكن من صنفٍ مختلف،" أجابَ هولكر، مع ابتسامة. "وسنبدأ بذلك رحلتنا عبر العالَم".

•

على متنِ الكوندور

كان الفجرُ بالكاد قد انبلجَ عندما دخل هولكر غرفةَ سَلَفه والسَّيِّدِ براندوك، وهو يصيح:

"نهوضاً يا صديقيَّ العزيزين... كوندوري ينتظرُنا أمام نافذتيَ غرفة المعيشة، والفندق أرسل إلينا الشَّايَ منذ قليل".

لم يقتضِ الحالُ أكثر من سماع هذه الكلمات "ينتظرُنا أمام النَّافذتين" لجعل الطَّبيب ورفيقه ينزلان قفزاً عن السَّرير.

"المركبة ذاتيَّة الحركة أمام النَّافذتين!" هتفا، داسَّين أرجلهما في بنطاليهما.

"أيدهشكما ذلك؟"

"في أيِّ طابقٍ نحن؟" سألَ براندوك.

"في التَّاسع عشر. التَّنفُّس يكون أفضل في الأعلى وضوضاءُ الشَّارع بالكاد تصل إلى هنا".

"فأيُّ ضربٍ من المركبات هي مركبتك، لكي تصعدَ إلى مثل هذا الارتفاع؟"

"ستريان ذلك؛ هيَّا أسرعا يا صديقيَّ، فأنا أرغب في اصطحابكما هذا الصَّباح إلى شلَّالات نياجارا، لأريكما محطَّات توليد الكهرباء الضَّخمة

التي توفِّر الطَّاقة لجميع منشآت الفدراليَّةِ تقريباً. سنذهب أوَّلاً لنشاهد محطَّة بروكلين العالية القدرة، حيث عليَّ أن أنقلَ أخباري إلى صديقي المرِّيخي. ذلك الرَّجل الطَّيِّب لا بدَّ وأن يكون قلِقاً بعض الشَّيء بسبب صمتي الطَّويل وسوف يتلقَّى بكلِّ سرورٍ خبرَ قيامتكما".

"ماذا؟!" صاحَ طوبي. "هل أبلغتَه أنَّ سَلَفاً لكَ نائمٌ منذ مِائة عام؟"

"نعم، يا خالي العزيز" أجابَ هولكر. "من وقتٍ إلى آخر نفضي إلى بعضنا ببعض الأسرار، ذلك أنَّ صداقةً عميقةً تربط بيننا".

"من دون أن يكون أحدُكما قد رأى الآخر قطُّ؟" هتفَ براندوك.

"بناءً على بعض ما قدَّمته له من أوصافي سيكون قد خربشَ صورةً شخصيَّةً لي".

"وأنت؟" سألَ طوبي.

"لديَّ صورته".

"كيف هم إذاً سكَّان المرِّيخ؟ هل يشبهوننا؟"

"من الأوصاف التي تلقَّيناها منهم، ليسوا على الإطلاق شبيهين بنا؛ مع أنَّهم في الحضارة والعلوم ليسوا أقلَّ شأناً منَّا كما يبدو. تصوَّر، يا خالي العزيز، أنَّ لديهم رؤوساً أكبر أربع مرَّاتٍ من رؤوسنا، ومِن ثَمَّ فإنَّهم، مع مثل هذا التَّطوُّر الدِّماغيِّ، لن يكونوا على الإطلاق متخلِّفين عنَّا".

"والجسم؟"

"المرِّيخيُّون، بقدر ما استطعنا أن نفهم، مخلوقاتٌ برمائيَّةٌ تشبه

الفُقْمات، بأذرعٍ قصيرةٍ للغاية، تنتهي بعشرة أصابع، وأقدامٍ كبيرةٍ جدّاً وراحيَّةِ الشَّكل".

"هم مسوخٌ حقيقيُّون، إذاً!" هتفَ طوبي الذي كان يستمع بفضولٍ شديدٍ إلى تلك التَّفاصيل.

"لا يبدو في حقيقة الأمر أنَّهم فائقو الجمال" أجاب هولكر. "ولكن فلنذهب لتناول الشَّاي، وإلَّا وجدناه بارداً. سنعود للحديث عن أهل المرِّيخ وعن كوكبهم عندما نصل إلى محطَّة بروكلين العالية القدرة".

غادروا الحُجرةَ ودخلوا غرفةَ المعيشة. كانت سكَّة القطار المصغَّرة هناك مع مقطورةٍ واحدةٍ متوقِّفةٍ في نهاية اللوح المعدنيِّ. ولكن لم تكن هي ما جذب انتباهَ براندوك والطَّبيب، وإنَّما الظِّلُّ الهائلُ الذي كان يهتزُّ أمامَ النَّافذتين الكبيرتين.

"ما هذا؟" سألا، مندفعَين إلى الأمام.

"إنَّه كوندوري" أجاب هولكر بهدوء.

"أهو منطادٌ مُسيَّر؟" سألَ أحدُهما.

"لا، أيَّها السَّيِّدان، إنَّها طائرةٌ تعملُ بصورةٍ تبلغ درجةَ الكمال، مجهَّزةٌ بسرعةٍ فوق العادة قادرةٍ على أن تنافسَ السُّنونوات والحمائم المهاجرة. ألم تكن موجودةً في تلك الأيَّام؟"

"لم يكن لدينا سوى بضعة مناطيد مُسَيَّرةٍ، لا يخلو ركوبُها أبداً من مخاطرة" قال طوبي.

"ولَمَّا كانت المناطيدُ قد تسبَّبت في الكثير من المآسي، فإنَّنا منذ خمسين عاماً تخلَّينا عن الهيدروجين مستعيضين عنها بالأجنحة. فلنتناول الشَّاي، وبعد ذلك سيكون لديكما الوقت لتتأمَّلا كوندوري وتشاهداه وهو يُناورُ ويُداور".

بالقوَّة تقريباً انتزعَ الطَّبيبَ وبراندوك من أمام النَّافذتين وأخرجَ من المقطورةِ الأكوابَ والفُوَطَ والإناءَ المشتملَ على المشروب العبِق، وكذلك البسكويت.

"لا تكونا قليلَي الصَّبر جدَّاً" قال. "عليكما أنِ تريا كلَّ شيءٍ على حِدة وإلَّا فستتعبان كثيراً. لدينا من الوقت ما يكفي".

احتسوا الشَّاي، مغمِّسين فيه بعض أقراص البسكويت، ثمَّ صعدَ هولكر إلى رفِّ النَّافذة الذي كان واطئاً للغاية ووضع قدميه على منصَّةِ الآلةِ الطَّائرةِ حيث وُضِعَتْ أربعُ أرائك مُريحة.

كان هاري، الزِّنجيُّ العملاق، واقفاً وراء الآلة، واضعاً يديه على عجلةٍ صغيرةٍ كانت تديرُ دفَّتين هائلتين مثلَّثتي الزَّوايا، مكوَّنتين من نوعٍ من القماش البرَّاق المركَّب على هيكلٍ معدنيٍّ خفيف.

ما إن اتَّخذ براندوك وطوبي مجلسيهما حتَّى ارتفع *الكوندور* من فورهِ فوق المنازل الشَّاهقة، راسماً سلسلةً من الدَّوائر بدقَّةٍ آسِرة. لقد كانت تلك الآلة، المبتكَرة من قِبل علماء الألفيَّة الثَّالثة، شيئاً مُذهلاً بحقٍّ، وفوق ذلك، شيئاً ذا بساطةٍ استثنائيَّة.

لم تكن تتكوَّن سوى من منصَّةٍ من معدنٍ بدا أخفَّ من الألمنيوم، مع

أربعة أجنحةٍ ومروحتين رُكِّبتْ كلُّ واحدةٍ على طرفٍ من طرفي الطَّائرة، وكانت كلُّها من نسيج القنَّب، مع أذرعٍ من الفولاذ وآلةٍ صغيرةٍ تجعلها تدور.

أمَّا الغاز، كما كان واضحاً، فلم يكن داخلاً على الإطلاق في تكوينها؛ لقد انتصرت الميكانيكا على مناطيد القرن الماضي المسيَّرة.

كان طوبي ورفيقه يتأمَّلان بانشداهٍ تلك الآلة العجيبة التي كانت تصعد وتهبط وتلتفُّ وتدورُ كما لو كانت طائراً حقيقيَّاً.

أعدادٌ كبيرةٌ من شِباهٍ أُخَر كانت تطير فوق أسطح العِمارات، متباريةً في سرعتها، وأكثرُها قد استقلَّه سيِّداتٌ يضحكن بابتهاجٍ وأطفالٌ يصيحون.

كانت بجميع الأحجام: كبيرةً تحمل حتَّى عشرين شخصاً، وصغيرةً بالكاد تتَّسع لاثنين، وأخرى مكوَّنة من جناحين فحسب يشابهان تلك التي للخفافيش ويحملان مقعداً يركبه شخصٌ واحدٌ، ولم تكن هذه أقلَّ دقَّةً وسرعةً في المناوَرة من غيرها.

عالياً، وأقلَّ عُلْواً، كانت تحيَّاتٌ ونداءاتٌ تتقاطعُ، قبلَ أن يتفرَّق الأسطولُ الجويُّ في كلِّ الاتِّجاهات، هابطاً إلى الشَّوارع، إلى السَّاحات، وإلى شرفات البيوت الشَّاسعة أو متوقِّفاً أمام النَّوافذ أو الشُّرفات الصَّغيرة لإقلال أشخاصٍ جُدُد. أصبح براندوك وطوبي عاجزَين عن الكلام، كما لو أنَّ الدَّهشة شلَّتْ لسانيهما.

"ألن تقولا شيئاً، إذاً؟" سألَ هولكر أخيراً. "هل فقدتما القدرة على الكلام؟"

"إنَّني أتساءل عمَّا إذا كنتُ أحلم" قال براندوك. "من المستحيل أن يكون كلُّ هذا حقيقةً".

"يا عزيزي براندوك، نحن في الألفيَّة الثَّالثة".

"وأرى أنَّ لديكم كلَّ ما تشتهون؛ ومع ذلك أجدُ صعوبةً في إقناع نفسي بأنَّ العالمَ، في غضون مِائةِ سنةٍ فقط، قد تقدَّم إلى هذه الدَّرجة. تحويل البشر إلى طيور! إنَّه لأمرٌ مُذهل!"

"أوَلَيس هنالك خطرٌ من أن تسقط آلاتُ الطَّيران هذه؟" سألَ طوبي.

"أحياناً تقع بعض الاصطدامات؛ تتحطَّم الأجنحة، تتمزَّق المراوح وويلٌ آنذاك لمن يهوي: ولكن من يبالي؟ ألم تكن القطارات والسُّفن تصطدمُ في أيَّامكم يا ترى؟ إنَّها حوادثُ لا تحرِّك مشاعرَ أحد".

"ما هي تلك المكَنات التي تجعل الأجنحة تعمل؟"

"إنَّها مَكَناتٌ كهربائيَّةٌ عالية القدرة. فكما أخبرتكما، في غضون المِائة عامٍ الماضية أحرزت الكهرباءُ تقدُّماً مُذهلاً".

"وما السُّرعة التي تستطيعون مدَّ هذه السُّفن الطَّائرة بها؟"

"حتَّى مِائةٍ وخمسين كيلومتراً في السَّاعة".

"وهل ألغيتم القطارات وفقاً لذلك؟" سألَ براندوك.

"أوه لا، يا سيِّدي العزيز، ما يزال لدينا الكثير منها، ولكنَّها لم تعد تلك التي كانت تُستخدَم في أيَّامكم، والتي هي في منتهى البطء بالنِّسبة إلينا. ستدركان أنَّه من غير الممكن تحميل هذه الآلات الطَّائرة بصورةٍ زائدةٍ عن الحد. إنَّها لا تنفع إلَّا للَّهو أو للقيام ببعض الجولات القصيرة على سبيل المتعة. وكذلك للرِّحَلات الطَّويلة عبر المحيطات" تابعَ هولكر. "إنَّ

لدينا سفناً طائرةً حقيقيَّةً تُقلعُ بانتظامٍ من جميع موانئ المحيط الأطلسيِّ والمحيط الهادئ وتهبط في غضون ستٍّ وثلاثين ساعةً في إنجلترا، وفي غضون أربعين ساعةً في اليابان أو الصِّين أو أستراليا".

"ألم يعد ثمَّة سفنٌ في البحار؟"

"أوه بلى، ما يزال لدينا منها؛ ولكنَّها لم تعد تلك التي كانت تُستخدَم في القرن الماضي. سترىان الكثير منها عندما نعبرُ المحيط الأطلسي. بل إنَّني فكَّرت في أن أترك عندَ شلَّالات نياجارا طائرتي *الكوندور* وأن أصطحبكما إلى "كيبك" عبر السِّكَّة الحديديَّة الكنديَّة، لنركب من ثمَّ البحرَ متَّجهين إلى أوروبَّا".

"يا حفيدي العزيز،" قال طوبي "إنَّك تُهملُ أعمالك؛ أفترضُ أنَّ لديك بعض الأشغال".

"أنا طبيبٌ في مستشفى بروكلين الكبير؛ وفي الوقت الرَّاهن لا حاجة لهم بي هناك، ولذلك فأنا في إجازةٍ لمدَّة شهرين".

"أنت أيضاً طبيب!" هتفَ طوبي.

"وهو ما يجعلني شخصيَّةً ضئيلةً أمام الرَّجل الذي توصَّل إلى هذا الاكتشاف العظيم".

"ستكون وريث ذلك الاكتشاف" قال طوبي.

في تلك اللحظة انخفضَ *الكوندور* بغتةً فوق ساحةٍ فسيحةٍ مكتظَّةٍ بأناسٍ كانوا يبدون كالمجانين.

"ما الذي يجري هناك؟" سأل براندوك وهو ينحني على حاجز المنصَّة.

"إنَّها ساحة البورصة" أجاب هولكر.

"لكأنَّ النَّار مسلَّطةٌ على أولئك النَّاس. إنَّهم يروحون ويجيئون بشيءٍ من العجلة".

"وحتَّى أولئك الذين يتقاطرون في الشَّوارع القريبة يبدون وكأنَّهم يمشون على قطعٍ من الجمر" قال طوبي. "مع أنَّهم ليسوا من مُضاربي البورصة على ما أعتقد".

"هل كنتم تسيرون على نحوٍ مُغايرٍ قبل مِائةِ عام؟" سأل هولكر وبه شيءٌ من الدَّهشة.

"كان الرِّجالُ أكثر اتِّئاداً بكثير، أمَّا اليوم فإنَّني أرى حتَّى السَّيِّدات يسرن سِراعاً، كما لو كنَّ يخشين أن يفوتهنَّ القطار".

"دائماً، مُذ جئتُ إلى هذا العالم، كنت أرى النَّاسَ وهم يسيرون سِراعاً هكذا".

"آه! فهمتُ الآن،" قال طوبي. "إنَّه فِعلُ التَّوتُّر الكهربائيِّ العالي على أعصابهم. لقد جُنَّ العالَم أو يكاد".

"هيَّا يا هاري،" قال هولكر "تحرَّكْ صوبَ بروكلين".

ارتفعَ *الكوندور* بضعَ مئاتٍ من الأمتار ثمَّ اندفعَ نحو الشَّرق بسرعة خمسين ميلاً في السَّاعة.

طُرُقاتٌ شاسعةٌ تراءت تحت ملَّاحي الأجواء، إذا أمكن أن نسمِّيهم

هكذا، تُجانبُها صفوفٌ من عماراتٍ رهيبةٍ بعشرين، وخمسةٍ وعشرين، وحتَّى بثلاثين طابقاً، والتي من المفترض أنَّ كلَّ واحدةٍ منها كانت تؤوي آلاف الأسَر، ما يُعادلُ قاطنةَ قرية. آلافُ الأصوات المُضِجَّةِ كانت تتصاعد متناهيةً إلى مِسْمَعَي العائدَين إلى الحياة، منبعثةً من مَكَناتٍ عملاقةٍ لا يدري كُنهَها إلَّا الله: صفيرٌ، طَرْقاتٌ رهيبةٌ، فرقعاتٌ، وانفجارات، وكانت تُرَى على امتداد الجدران وعلى رؤوس أعمدةٍ حديديَّةٍ آلاتٌ طائرةٌ بحُجُومٍ لم يُرَ لها مثيلٌ من قبلُ وهي تحومُ بسرعاتٍ تفوق الوصف.

"ما الذي يفعلونه هناك في الأسفل؟" سألَ براندوك.

"إنَّها وِرَشٌ ميكانيكيَّة" أجاب هولكر.

"يعلم الله كم ألفاً مؤلَّفةً من العمَّال تعمل هناك!"

"إنَّك واهمٌ يا سيِّدي العزيز؛ فالعمَّال اليومَ لا وجود لهم تقريباً. ليس هنالك سوى ميكانيكيِّين لتدوير الآلات. الكهرباءُ اجتثَّت اليدَ العاملة".

"ماذا حدث لتلك الجماهير الغفيرة من العمَّال القدامى؟"

"لقد أصبحوا صيَّادين ومزارعين؛ البحرُ والحقولُ امتصَّت العمَّالَ بالتَّدريج".

"ولذلك لم يعد ثمَّة إضرابات؟"

"تلك كلمةٌ غير معروفة".

"في أيَّامنا كانت الإضراباتُ فرضاً، وكيف لا؟! خاصَّةً بعد تشكيل الهيئة من قِبَل الحزب الاشتراكيِّ الكبير. ولكنْ ما الذي حدث للاشتراكيَّة؟ لقد كنَّا نتنبَّأ بمستقبلٍ عظيمٍ لذلك الحزب".

"لقد اندثرَ بعد سلسلةٍ من التَّجارب التي ساءتِ الجميعَ ولم تُرضِ أحداً. كان وهماً جميلاً لم يؤتِ على الصَّعيد العمليِّ شيئاً من ثماره، فانتهى به الحالُ إلى شكلٍ من أشكال العبوديَّة. وهكذا عدنا إلى عهدنا القديم، فثمَّة اليوم فقراء وأغنياء، سادةٌ وتابعون، كما كان الحالُ قبلَ آلاف السِّنين، وكما كان دوماً منذ أوَّل لحظةٍ سكنَّا فيها العالَم. غير أنَّ بعض المستعمرات الألمانيَّة والرُّوسيَّة ما تزال قائمةً، وتضمُّ اشتراكيِّين قدماء يزرعون معاً بعض المساحات في باتاغونيا وفي أرض النَّار(*)، ولكن لا أحد يعبأ بهم، وليس لهم أيُّ شأنٍ، بل إنَّهم آخذون بالزَّوال شيئاً فشيئاً".

"جسرُ بروكلين!" هتفَ براندوك. "ما زلتُ أتذكَّره. هل صمدَ إلى هذا اليوم إذاً؟"

"نعم؛ لقد مضى أكثر من مِائةٍ وعشرين عاماً على وجوده هناك. كانوا بناةً جيِّدين بِحَقٍّ مهندسو ذلك العصر" قال هولكر.

"كمْ أصبحت شاسعةً تلك الضَّاحية!" هتفَ الطَّبيبُ ناظراً بانبهارٍ إلى الامتداد العمرانيِّ الهائل الذي كان يترامى على مدِّ البصر.

"أربعة ملايين ساكنٍ" قال هولكر. "باتتْ تضاهي نيويورك الآن".

"وماذا عن لندن؟"

"مدينةٌ يبلغ عددُ سكَّانها اثني عشر مليون نسمة".

"وباريس؟"

---

*) أرخبيلٌ في أقصى جنوب أمريكا الجنوبيَّة بين المحيط الأطلسيِّ والمحيط الهادي؛ (م).

"حاضرةٌ مترامية الأطراف، أكثر شسوعاً من لندن بعدُ. اتَّجِهْ مباشرةً إلى المحطَّة العالية القدرة يا هاري".

ما إن تجاوز *الكوندورُ* الجسرَ حتَّى زاد من سرعة طيرانه.

حتَّى فوق الضَّاحية القديمة لنيويورك كان يحومُ عددٌ كبيرٌ من الآلات الطَّائرة، محمَّلاً بأناسٍ يتَّجهون إجمالاً نحو هدسون أو نحو البحر.

بعد أن مرَّ *الكوندورُ* فوق المدينة، اتَّجه صوبَ هضبةٍ صغيرةٍ أُقيمَ على قُنَّتِها برجٌ هائلٌ زُوِّدَتْ قمَّتُهُ بهوائيٍّ لا حدَّ له، هوائيٍّ بدا أشبهَ بمدفعٍ وحشيٍّ يتوعَّدُ السَّماء.

"هي ذي المحطَّة الغالية القدرة" قال هولكر. "أترىان كذلك، هناك بجوار البرج، ذلك الأنبوبَ البرَّاقَ ذا الأبعاد الهائلة؟"

"نعم، وما هو؟"

"إنَّه أكبر مِرقبٍ فلكيٍّ موجودٍ على وجه الأرض".

"لا بدَّ وأنَّه هائلٌ حقَّاً".

"إنَّه، يا سيِّدَيَّ، أعجوبةٌ حقيقيَّةٌ بطول خمسةٍ وخمسين متراً تتيحُ لنا رؤية القمر على مسافةِ مترٍ واحدٍ فقط".

"لقد حقَّقتم إذاً حلمَ فلكيِّينا القديم".

"آه! حتَّى علماؤكم حاولوا تقريبَ قمرنا كثيراً؟"

"نعم، يا حفيدي،" أجابَ طوبي "ولم ينجحوا في ذلك. القمرُ إذاً بات معروفاً الآن بأدقِّ تفاصيله؟"

"نعرف كذلك تفاصيلَ صخوره الأصغر حجماً".

"أهو مأهولٌ؟"

"إنَّه جسمٌ خامدٌ، بلا هواءٍ، ولا ماءٍ، ولا نبتٍ، ولا ساكنين".

"أجل، فلكيُّونا أيضاً افترضوا أنَّه على هذه الشَّاكلة".

"والمرِّيخ، على أيَّة مسافةٍ ترونه بمِرقبكم هذا؟" سألَ براندوك.

"على مسافة ثلاثمائة مترٍ فقط".

"يا لِلعجب!"

"على رِسْلِك، يا هاري، اهبطْ برِفقٍ".

كان *الكوندورُ* قد تجاوز سوراً وسيعاً يحيط بالمحطَّة وراح ينحدرُ بلطفٍ راسماً منحنياتٍ مديدة.

في تمام الثَّامنة صباحاً كان يستريحُ على بعد ثلاثين متراً من المِرقبِ الفلكيِّ الهائل.

المرِّيخيُّون

رجلٌ يناهز السِّتِّين من عمره، برأسٍ أكبر حجماً بعدُ من رأس السَّيِّد هولكر ووجهٍ حليقٍ بالكامل، كان قد خرجَ من البرج الهائل القائم في مركز السُّور وهرع لملاقاة الزُّوَّار، قائلاً:

"عِمْ صباحاً، أيُّها الطَّبيب؛ منذ بعض الوقت لم نَرَكَ هنا".

"صباح الخير، يا سيِّد هيبيرت" أجاب هولكر. "أحمل إليك صديقين وصلا من إنجلترا يوم أمس، وهما في غاية الفضول لزيارة محطَّتكم والاطِّلاع على أخبار المرِّيخيِّين".

"على الرَّحب والسَّعة" أجاب السَّيِّد هيبيرت مُصافحاً الضَّيفين. "إنَّني تحت تصرُّفهما".

"إنَّه أكبر عالمٍ فلكيٍّ في أمريكا،" قال هولكر بعد الانتهاء من تقديم ضيفيه "ومجدُ وضعِ الأرضِ على اتِّصالٍ مع المرِّيخ لا بدَّ لنا من أن ننسبه إليه".

"كنت أظنُّ أنَّهم علماءٌ أوربِّيُّون" قال طوبي. "فما أعرفه هو أنَّهم كانوا مرَّةً منكبِّين كثيراً على ذلك".

"لقد سبقتهم أمريكا إلى ذلك" قال هولكر.

"لديَّ فضولٌ لمعرفة كيف تمكَّنتَ من نقل أخبار الأرض إلى أولئك السُّكَّان البعيدين. لا بدَّ وأنَّك تغلَّبتَ على صعوباتٍ جِسام".

"ولكن ما قولُك إذا ما أخبرتُك بأنَّ فكرةَ بثِّ إشاراتٍ لنا وُلِدَتْ أوَّلَ مرَّةٍ في أذهان المرِّيخيِّين؟" قال الفلكيُّ.

"يبدو لي ذلك من المستحيلات!" هتفَ براندوك.

"ومع ذلك فالأمرُ هكذا بالضَّبط، يا سيِّدي العزيز. فمنذ عدَّة عقودٍ، أو بالأحرى منذ عام ١٩٠٠ وحتَّى قبل ذلك، لاحظ فلكيُّونا القدماء، وفلكيُّو أوروبَّا أيضاً، ولا سيَّما الإيطاليُّ إسْكيابارِللي(*)، أنَّه كانت تظهر على سطح ذلك الكوكب من وقتٍ إلى آخر، وخاصَّةً بعد تراجُع المياه التي تجتاح كلَّ عامٍ تلك الأراضي، خطوطُ نارٍ هائلةٌ تمتدُّ لآلاف الأميال".

"أذكرُ ذلك" قال الدُّكتور طوبي. "لقد قرأتُ عنه بالفعل في مجموعةٍ قديمةٍ من مجلَّات القرن المنصرم ما أزال أحتفظ بها في بيتي. كانوا يحسبون آنذاك أنَّ تلك النِّيران كانت إشاراتٍ يصنعها لنا أهلُ المرِّيخ".

"في هذا القرن، بعدما رأى فلكيُّونا أنَّ خطوط النَّار تلك باتت تتكرَّر بتردادٍ أكبر وأنَّها كانت تصوِّرُ في الغالب شكلاً شبيهاً بحرف "J" مُشوَّهٍ، افترضوا أنَّها كانت حقَّاً إشاراتٍ وقرَّروا القيامَ بمحاولةِ الرَّدِّ عليها. كان ذلك في عام ١٩٤٠ عندما أُجرِيَتْ أوَّلُ تجربةٍ في سهول الغرب الأقصى

---

*) جيوفانيِّ إسكيابارللي (١٨٣٥-١٩١٠) عالم فلك إيطاليٌّ عمل لأكثر من أربعين عاماً في مرصد بريرا، ورصدَ بعضَ الأجسام في النِّظام الشَّمسيِّ، وفي عام ١٨٧٧ قام برصد المرِّيخ أثناء اقترابه من الأرض فأكَّد أنَّه رأى قنواتٍ تغطِّي سطحه، وقد بدت له هذه القنوات في ما بعد تامَّة الاستقامة ممَّا يعطي احتمالاً ببنائها من قبل سكَّان المرِّيخ، حتَّى أنَّه نشر في عام ١٨٩٥ كتاباً وضَّح فيه حججه حول وجود حياةٍ ذكيَّةٍ على المرِّيخ؛ (م).

الشَّاسعة. مئتا ألف رجلٍ انتشروا على نحوٍ شكَّلوا معه الحرفَ "J" ومئتا ألف شعلةٍ أُضيئتْ خلال ليلةٍ شديدةِ الظُّلمة. بعد أربعٍ وعشرين ساعةً ظهرت نفسُ الإشارة مكانَ واحدةٍ من قنوات كوكب المرِّيخ الهائلةِ تلك. ثمَّ خطر لهم بعد ذلك، لكي يتأكَّدوا من أنَّ ذلك كان ردّاً علينا، أن يكرِّروا التَّجربة مع تغيير شكل الإشارة فوقع الاختيارُ على الحرفِ "Z". بعد عشرين ليلةٍ أجاب المرِّيخيُّون بلسانِ نارٍ يُحاكي الشَّكلَ نفسَه. لم يعد ممكناً إذَّاك أن يبقى الشَّكُّ قائماً. لقد كان المرِّيخيُّون يحاولون الاتِّصال بنا منذ زمنٍ لا يعلمه أحد. لمدَّة شهرٍ تواصلت الاختبارات، مع تغيير الحرف على الدَّوام وبنجاحٍ متزايد".

"ولكنَّكم لم تتمكَّنوا من فهمهم" قال طوبي.

"كان من الضَّروريِّ أن تكون لديهم أبجديَّةٌ مماثلةٌ لأبجديَّتنا، ثمَّ إنَّ تلك الوسيلة كانت مُكلفةً للغاية. في ذلك الوقت وُلِدَتْ في أذهان العلماء فكرةٌ تتمثَّلُ في إرسال موجةٍ هِرتزيَّةٍ(*) إلى هناك، برجاء أن يكون لدى المرِّيخيِّين أيضاً جهاز استقبال. فكان أن أُقِيمَ، على نفقة مختلف الحكومات الأمريكيَّة، هذا البرجُ الفولاذيُّ الذي بلغ ارتفاعُه أربعمائة مترٍ، وشُيِّدَتْ على القمَّة محطَّةُ إبراقٍ لاسلكيٍّ عاليةُ القدرة".

"إنَّه اختراعٌ غير حديثِ الإبراق الهوائي" قال براندوك.

"صحيحٌ أنَّه كان معروفاً منذ بدايات القرن المنصرم، وأنَّه جرى تحسينه مِن قِبَل العالم الإيطاليِّ البارع، السَّيِّد ماركوني(**)؛ ولكنَّه لم يكن يمتلك

---

*) نسبةً إلى العالم الألمانيِّ هاينريش هرتز الذي كان أوَّل شخصٍ يُثبتُ وجودَ الأمواج الكهرومغناطيسيَّة؛ (م).

**) غولييلمو ماركوني (١٨٧٤-١٩٣٧) مخترع الإبراق اللاسلكيِّ مع الألمانيِّ كارل فرديناند براون الذي حصل بالاشتراك معه على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٠٩؛ (م).

آنذاك نفس القدرة التي يمتلكها اليوم. فأجهزتنا التي طوِّرَتْ على أيدي العديد من العلماء قد بلغت من القوَّة مبلغاً جعلنا قادرين على التَّراسل حتَّى مع الشَّمس، إذا ما كان ثمَّة قاطنةٌ وأجهزة استقبالٍ كهربائيَّةٌ هناك. لأشهرٍ عديدةٍ رحنا نرسل موجاتٍ كهربائيَّةً من دون الحصول على أيَّة نتيجة؛ ثمَّ ذات يومٍ، بذهولٍ عظيمٍ، سمعنا لواقط الإشارة تُصدرُ طنيناً. لقد كانوا المرِّيخيِّين وقد أجابوا على إشاراتنا أخيراً".

"ذلك الشَّعبُ توصَّلَ هو الآخر إلى اكتشافاتٍ مُذهلة!" هتفَ طوبي.

"إنَّ لدينا أسبابنا التي تجعلنا نعتقد أنَّهم متقدِّمون علينا بأشواطٍ كبيرة. في البداية كانت الإشارات مشوَّشةً ولم نستطع فهمَها. ولكن شيئاً فشيئاً توصَّلنا إلى وضع كتابٍ خاصٍّ بمفاتيح الشَّفرة تمكَّن المرِّيخيُّون بعد بضع سنواتٍ من فهمِهِ، وها نحن الآن نتراسلُ على أتمِّ وجهٍ ونتبادلُ الأخبارَ عمَّا يقعُ هنا وهناك".

"مُدهشٌ حقَّاً!" هتفَ براندوك وطوبي بصوتٍ واحد.

"لقد أخبرتكما" قال هولكر.

"قل لي يا سيِّد هيبيرت: هل يشبه المرِّيخ أرضَنا؟..."

"قليلاً، ففيه تربةٌ ومياهٌ كما في كوكبنا. غير أنَّ خواصَّه الفيزيائيَّة مختلفةٌ كثيراً. بحارُ ذلك الكوكب لا تحتلُّ ولا حتَّى نصف المساحة الكلِّيَّة له؛ والحرارة التي يتلقَّاها من الشَّمس معتدلةٌ، كونَ بُعدِه عن الشَّمس أكبر من بُعدِ الأرض عنها. أمَّا العامُ هناك فأطول مرَّتين من العام الأرضيِّ أو قلْ إنَّه يعادلُ ٦٨٧ يوماً أرضيَّاً".

"وغلافُه الجويُّ، أهوَ شبيهٌ بغلافنا؟"

"إنَّه أرقُّ منه، وبالتَّالي فإنَّ تركيب الجوِّ هناك أكثر بساطةً، فلا غيوم تتشكَّل، ولا عواصف تهبُّ، الرِّياحُ تكاد تكون غائبةً تماماً هناك(*)، والأمطار غير معروفة".

"والماء؟..."

"يشبه الماءَ الأرضيَّ وذلك كان معروفاً من قبل، كما أن الثُّلوج المتراكمة في قطبي المرِّيخ مشابهةٌ لتلك التي لدينا. ولكنَّ وجود الماء لا يؤدِّي إلى حدوث تبخُّرٍ محسوسٍ، ولذلك ما مِن أمطار".

"لا وجود للغطاء النَّباتيِّ على سطح المرِّيخ إذاً؟"

"لا على الإطلاق، يا سيِّدي العزيز: ثمَّة مزارعُ وغاباتٌ رائعةٌ هناك(**)، وبالتَّالي فليس لدى كوكبنا ما قد يحسدونه عليه".

"ومن الذي يقوم بسقايتهم إذا كانت لا تمطر؟" سألَ براندوك.

"الطَّبيعة استدركتْ ذلك أيضاً" قال الفلكيُّ. "فبما أنَّ الماء لا يدورُ عبرَ نظامٍ من السُّحُب، والأمطار، والينابيع كما هو الحال عندنا، فإنَّهم قاموا بترويض الثُّلوج المكثَّفةِ في المناطق القطبيَّة. كلَّ ستَّة أشهرٍ، في فترة الاعتدال، تذوبُ تلك الثُّلوج وتُحدِثُ فيضاناتٍ فوق مساحاتٍ شاسعةٍ

---

*) المعلومة غير دقيقة، فقد تمَّ رصد عواصف محليَّة على سطح المرِّيخ، وهي عبارةٌ عن هبوب رياحٍ قويَّةٍ تكوِّن سُحُباً غباريَّةً وزوابعَ، ولها دورٌ في نقل التُّربة من مكانٍ إلى آخر وفي عمليَّات الحتِّ والتَّجوية على سطح هذا الكوكب؛ (م).

**) أظهرت البيانات التي وصلت من مسبار الفضاء "فينيكس" الذي حطَّ على سطح المرِّيخ سنة ٢٠٠٨ أنَّ تربة المرِّيخ تحتوي على المغذِّيات الضَّروريَّة لنموِّ النَّباتات؛ (م).

تمتدُّ لمئات آلاف الأميال. المياهِ المنظَّمة عبرَ سلسلةٍ من القنوات التي بناها أولئك السُّكَّان تتدفَّق وتتغلغل خلالَ قارَّات ذلك الكوكب مخصِّبةً الأراضي ومُندِّيةً السُّهول. بعد ذلك، عندما يتوقَّف الذَّوبان، تتراجع المياه منسربةً عبر القنوات نفسها وتاركةً الأراضي مكشوفةً من جديد".

"القنوات العظيمة التي ذكرها علماءُ القرن الماضي هي من صُنعِ المرِّيخيِّين إذاً؟" قالَ طوبي.

"نعم" أجابَ الفلكيُّ. "إنَّها لَإنشاءاتٌ مهيبةٌ وهائلة، بعرضٍ قدرُهُ قرابة المِائة ميلٍ وأكثر".

"ونحن الذين ذهبَتْ بنا الخُيَلاءُ بأعمال المصريِّين القدماء!"

"هلَّا تقودُنا إلى البرج، يا سيِّد هيبيرت" قال هولكر. "عليَّ أن أرسلَ تحيَّةً إلى صديقي أونيكس".

"أهو ذلك المرِّيخيُّ الذي حدَّثتنا عنه؟" سألَ طوبي.

"ماذا يعمل ذلك الرَّجل، أو بالأحرى ذلك البرمائيُّ؟" سألَ براندوك.

"إنَّه تاجرُ أسماكٍ دائمُ الشَّكوى لعدم قدرته على إذاقتي طعمَ الأنقليسيَّات العملاقة التي يصطادُها صيَّادوه في قناةِ إيج".

"إذاً ثمَّة سادةٌ وأُجَراءُ هناك؟"

"كما هو الحالُ على كوكبنا".

"وهل ثمَّة ملوكٌ أيضاً؟"

"ثمَّة قادةٌ يحكمون الجماعات المختلفة التي تتوزَّع على أصقاع القارَّات".

"العالمُ كلُّه قريةٌ واحدة".

"يبدو الأمرُ كذلك" قالَ هولكر ضاحكاً.

"هلمُّوا أيُّها السَّادة" قالَ الفلكيُّ. "الآلةُ جاهزةٌ لتحملنا إلى الأعلى، إلى مُنبسَطِ المنصَّة".

داروا حول البرج الهائل محدِّقين فيه بإعجابٍ كبير. أيُّ صورةٍ بائسةٍ كان سيبدو عليها أمامَه برجُ إيفل الذي بُنِيَ منذ خمسٍ وعشرين خمسيَّةً في باريس، والذي أثارَ في تلك الحقبة البعيدة إعجاب العالَم بأسْرِه لِما بلَغَه من ارتفاعٍ شاهقٍ!

كان هذا عبارةً عن أنبوبٍ مَهولٍ بارتفاعِ أربعمائة مترٍ وقطرٍ قدرُه مِائةٍ وخمسين متراً عندَ القاعدة، جزءٌ منه مبنيٌّ من الفولاذ وجزءٌ من الزُّجاج، مجهَّزٍ من الخارج بإفريزٍ يصعدُ بشكلٍ لولبيٍّ، إفريزٍ واسعٍ بما يكفي للسَّماح بمرور عربةٍ تتَّسع لثمانية أشخاص.

كان شكلُه مستديراً، كشكل المنارات، وكان يتمتَّع بطبيعة الحال بقوَّة احتمالٍ تمكِّنه من مواجهة أقوى أعاصير الأطلسيِّ.

أخذ براندوك، وطوبي، والفلكيُّ، وهولكر أماكنَهم داخلَ العربة التي ما لبثت أن بدأت بالصُّعود بسرعةٍ مُدوِّخةٍ، ملتفَّةً حولَ البرج، أمَّا ألواح الزُّجاج التي بدتْ وكأنَّها تتحرَّك بصورةٍ آليَّةٍ فقد أعطتْ الرَّاكبين انطباعاً وهميَّاً بأنَّهم كانوا يصعدون التفافاً من حولِ أنبوبٍ هائلٍ من الكريستال.

بعد دقيقتين توقَّفتْ العربة تلقائيَّاً عندَ منصَّة البرج، أمامَ الهوائيِّ الهائلِ المصنوعِ من الفولاذ والدَّاعمِ لأجهزة الإبراق اللاسلكيِّ.

"تشبه هذه المحطَّة، ولئن كانت أكبر حجماً، تلك التي أنشأها السَّيِّد ماركوني قبل مِائة عامٍ في جزيرة "كيب بريتون"" همهمَ طوبي في أُذنِ براندوك. "أتذكر أنَّنا زرناها معاً؟"

"نعم، ولكن انظرْ أيَّ استطاعةٍ تمكَّنوا من إعطائها اليومَ للموجات الكهربائيَّة" أجابَ الشَّابُّ. "آه! كم من العجائب بعدُ! كم... يا طوبي! إنَّ عضلاتي ترتعد".

"إنَّها الكهرباء".

"ألا يُعاني من هذه الرِّعدة أبناءُ اليوم؟"

"هؤلاء وُلِدوا ونشأوا في خضمِّ التَّوتُّر الكهربائيِّ العالي، أمَّا نحن فقومٌ من عصرٍ آخر. إنَّ ذلك يُقلقني، يا عزيزي جيمس، لا أُخفيكَ سرَّاً".

"لماذا؟"

"لا أعلم إن كنَّا سنتمكَّن من التَّكيُّف معه".

"ما الذي تخشاه؟"

"لا شيء في الوقت الرَّاهن، ولكن... هل تشعر بالكآبة؟"

"حتَّى اللحظةِ لا" أجابَ براندوك. "كيف يمكن أن تضجرَ مع كلِّ تلك العجائب التي تراها؟ إنَّه الوجودُ الثَّاني بالنِّسبة إلينا".

"هكذا أفضل".

فيما كانا يتبادلان هذه الكلمات، كان المديرُ قد أرسلَ بالفِعل عدَّة موجاتٍ كهربائيَّةٍ إلى سكَّان المرِّيخ.

تطلَّب الأمرُ خمس عشرة دقيقةً قبل أن يُعلن المنبِّهُ الكُهرُبيُّ وصولَ الرَّدِّ الأوَّل، والذي كان تحيَّةً من صديق هولكر.

"من الواضح أنَّ ذلك الرَّجل الطَّيِّب موجودٌ في محطَّة الإبراق" قال حفيدُ طوبي. "لا ريبَ أنَّه كان في انتظار أخباري".

"هل تعتقد أنَّكم ستتمكَّنون يوماً من الصُّعود إلى المرِّيخ، يا سيِّد هيبيرت؟"

"أعتقد أنَّه لم يعد هناك أيُّ شيءٍ مستحيلٍ الآن" أجابَ بجدِّيَّةٍ كبيرةٍ عالمُ الفلك. "على مدى عامين انكبَّ العلماء من كِلا العالَمين على هذه المسألة العظيمة لإيجاد مَخرَجٍ للانفجار السُّكَّانيِّ على كوكبنا. لدينا اليوم متفجِّراتٌ أشدُّ هولاً بآلاف المرَّات من البارود والدِّيناميت اللذين استُخدِما قديماً".

"قديماً!" هتف براندوك، كأنَّه اضطربَ حياءً.

"إذا جاز القولُ" قال الفلكيُّ. "قد يكون ممكناً ذات يومٍ أن نطلِق وسط المرِّيخيِّين بعض القنابل الرَّهيبة الملأى بسكَّانٍ أرضيِّين. لا نعلم ماذا يحمل لنا المستقبل. فلنهبط، وهلمُّوا معي لأريكم مرقبي الذي يُعَدُّ أكبر مرقبٍ شُيِّدَ إلى اليوم".

صعدوا إلى العربة مرَّةً أخرى وفي غضون نصف دقيقةٍ وجدوا أنفسهم عندَ قاعدة البرج. في مكانٍ قريبٍ انتصبَ المرقبُ المهول.

كان يتكوَّن من أنبوبٍ هائلٍ من صفائح فولاذيَّةٍ، بطولٍ يبلغ مِائةً وخمسين متراً وقطرٍ قدرُه خمسة أمتار، ويزن ثمانين طنَّاً، مُثبَّتٍ على عمودين حجريَّين ضخمَين.

"أيُّ مدفعٍ عملاقٍ هذا!" هتفَ براندوك. "كيف تحرِّكون هذا الوحش؟"

"لا حاجة لنا بذلك،" أجابَ الفلكيُّ "في الواقع إنَّه ثابتٌ".

"لا يمكنكم أن تروا إذاً سوى شَقَفَةٍ واحدةٍ من السَّماء" عقَّبَ طوبي مُلاحظاً.

"أنت مُخطئٌ يا سيِّدي العزيز. انظرْ جيِّداً إلى هناك وسترى أمامَ ذلك الجسم، في القارنةِ الامتداديَّةِ للمحور، مرآةً متحرِّكةً الغرض منها تحويلُ صورِ الأجرام السَّماويَّةِ إلى محورِ المرقب. تلك المرآة تتحرَّك بآليَّةٍ دقيقةٍ، منظَّمَةٍ على نحوٍ تتقدَّمُ معه باتِّجاهِ معاكسٍ لحركةِ الأرض، بحيث يبقى النَّجمُ الذي يرغبُ المرءُ في مراقبتِه دائماً ضمن مجال المرقب كما لو أنَّ كوكبنا هذا ثابتٌ تماماً".

"يا له من ابتكارٍ رائع!" همهمَ الطَّبيب.

"ماذا تساوي مقارنةً به تلك الابتكاراتُ التي كان العلماء الفرنسيُّون يتفاخرون بها في القرن الماضي؟" قالَ براندوك.

"أتقصدُ بقولك هذا مرقبَ باريس العظيم؟ أجل، لأعوامٍ عديدةٍ كان يُنظَر إليه كمعجزة،" قال الفلكيُّ "ولكنَّ هذا لم يكن يقرِّبُ القمرَ إلَّا إلى مِائةٍ وثمانيةٍ وعشرين كيلومتراً فقط، وكان ذلك رائعاً بالفِعل بالنِّسبة إلى تلك الأيَّام. لم يكن قادراً على تقريبه أكثر من ذلك، وهو الذي يبعد عن الأرض مسافةً قدرُها ٣٨٤,٠٠٠ كيلومتراً. اليومَ قرَّبناه نحن إلى مترٍ واحد".

"ها صديقيَّ،" قال هولكر "فلننطلقْ وإلَّا تأخَّرنا كثيراً على موعد تناول وجبة الإفطار. الشَّلَّالاتُ بعيدةٌ قليلاً".

"أذاهبون لزيارة شلَّالات نياجارا؟" سألَ الفلكيُّ.

"نعم" أجابَ هولكر.

صافحوا العالِمَ، ثمَّ صعدوا إلى *الكوندور*، وإن هي إلَّا هُنيهاتٌ قلائل حتَّى كانوا ينسربون في سماء بروكلين، مُيَمِّمين الشَّمالَ الشَّرقي.

شَلَّالاتُ نياجارا

العِماراتُ الضَّخمةُ كعِمارات نيويورك، المؤوِيَةُ مئاتِ العائلات، كانت تتلاحقُ دونما انقطاعٍ وحتَّى في شوارع الضَّاحية القديمة لعاصمة الولاية كانت تسودُ حركةٌ غيرُ عاديَّةٍ، ومحمومةٌ.

بدا أهالي بروكلين كالممسوسين وكانوا، بدلاً من المشي، يهرولون كما لو كان الشَّيطانُ في إثرهم والزِّئبقُ في أوردتهم.

كان التَّوتُّرُ الكهربائيُّ يُحدِث التَّأثيرَ نفسَه حتَّى على سكَّان الضَّاحية.

الشَّيء الذي كان يؤلمُ على الدَّوام العائدَين إلى الحياة كان الغيابَ المطلَقَ للخيول والعربات؛ حتَّى السَّيَّارات كانت قد اختفت أو تكاد، إذْ لم يريا سوى بضعٍ منها.

كان *الكوندور* يعبرُ إحدى السَّاحات الرَّحيبة عندما شدَّ انتباهَ براندوك مرورُ أربعة حيواناتٍ هائلةٍ يمتطي كلَّ واحدٍ منها رَجُلٌ.

"يا لِلرَّوعة!" هتفَ. "إنَّها فِيَلة!"

"أين؟" سألَ هولكر.

"هناك، انظرْ إليها".

"أتظنُّها فِيَلَةً من لحمٍ وعِظامٍ حقَّاً؟" سألَ حفيدُ الطَّبيب، ناظراً إليه بشيءٍ من السُّخرية. "أظنُّك مُخطئاً، يا سيِّد براندوك".

"لستُ بأعمى، يا سيِّد هولكر".

"ولا أنا" قالَ طوبي. "إنَّها فِيَلَةٌ حقيقيَّة".

"إنَّها كوانسُ فولاذيَّةٌ، أيُّها السَّيِّدان" قال هولكر، ضاحكاً.

"أيُّ ابتكارٍ طريفٍ هذا!" هتفَ طوبي وبراندوك.

"وليس بأقلَّ نفعاً من سواه،" قال هولكر "كما أنَّه اقتصاديٌّ جدَّاً، لأنَّه في وسع البلديَّة والحالُ هذه أن تستغنيَ عن جيشٍ من الكنَّاسين. علاوةً على أنَّ هذه المهنة لا تليق بالإنسان".

"تلك الحيوانات عبارةٌ عن كوانس إذاً؟" هتفَ براندوك باذلاً غايةَ وُسْعِه لتصديق كلماتِ هولكر.

"وهي تعمل على أحسن ما يُرجَى! تنظِّف الشَّوارعَ والسَّاحاتِ بواسطة خرطومٍ يتكوَّن من مئات الأنابيب الفولاذيَّة المتداخلةِ فيما بينها على نحوٍ يمنح ذلك الخرطومَ خفَّةَ حركةٍ استثنائيَّة. داخلَ الرَّأس في المقابل ثمَّةَ شافطةٌ قويَّةٌ، أمَّا المحرِّك، وهو كهربائيٌّ بطبيعةِ الحال، فيكمن في وركَي الحيوان. عندما يرى السَّائق الجالسُ، كما تريان، منفرِجَ السَّاقين على عنق الحيوان، كالفيَّالةِ الهنود، قمامةً في الشَّوارع، فإنَّه يدفعُ رافعةً رُكِّبَتْ لتكون في متناول يده، يوجِّهُ بها حركةَ الخرطوم والشَّافطة. إذَّاكَ يستطيلُ الخرطومُ نحوَ الغرضِ الذي عليه التقاطُه وتبدأ الشَّافطةُ بالعمل. يتبع ذلك عمليَّةُ شفطٍ قويَّةٌ لا يقدر على مقاومتها شيءٌ، بحيث إنَّ الحجارة،

والأطمارَ، ومِزقات الورق، ولُبُوبَ الفاكهة، وسائر أنواع القمامة، يُلقَى بها جميعاً داخل جسم الفيلِ الكانس. لا يبقى بعدئذٍ سوى المضيِّ لتفريغ الحمولة. الأمرُ، كما تريان، في غاية البساطة".

"بل إنَّه في غاية الرَّوعة" قال براندوك. "يا لها من ثورةٍ ميكانيكيَّةٍ بكلِّ معنى الكلمة!"

"هلَّا تزيدُ السُّرعةَ يا هاري" قال هولكر.

تلاشتْ بروكلين بسرعةٍ بين غيوم الأفق وحلَّق *الكوندور* فوق حقولٍ فائقةِ الجمال مزروعةٍ بمهارةٍ ودقَّةٍ كبيرتين، في وسطِها كانت تُرَى آلاتٌ زراعيَّةٌ غريبةٌ بما لها من أبعادٍ هائلة. كانت الأشجارُ نادرةً؛ أمَّا النَّباتات الخفيضة، في المقابل، فكانت تمتدُّ بلا نهاية. ماذا كانت ستنفع الأخشابُ، في واقع الحال، بما أنَّ سكَّان الأرض كان لديهم الرَّاديوم ليتدفَّأوا في الشِّتاء وكانوا لا يشيِّدون إلَّا بالحديد أو الفولاذ؟ كان من الواضح أنَّهم ضحُّوا بكلِّ شيءٍ ليجنِّبوا أنفسَهم خطرَ الوقوع في مجاعةٍ وشيكةٍ، نظراً إلى النُّموِّ الهائل والسَّريع في تعداد السُّكَّان.

في التَّاسعة صباحاً، وبعدما مرَّ على مقربةٍ من مدينة باتيرسون التي تحوَّلت هي الأخرى إلى مدينةٍ هائلةٍ، دخلَ *الكوندورُ* ولايةَ بنسيلڤانيا بسرعةِ مِائةٍ واثني عشر ميلاً في السَّاعة.

"يا سيِّد هولكر،" قالَ براندوك. "هناك شيءٌ لا أستطيع تفسيره".

"أيُّ شيء؟"

"في أيَّامنا كانت هذه الأراضي مغطَّاةً بخطوط السِّكَك الحديديَّة، أمَّا الآن فلا أرى أيَّ واحدٍ منها".

"ومع ذلك فإنَّنا نمرُّ في هذه اللحظة فوق واحدٍ من أهمِّ تلك الخطوط. هو ذلك الخطُّ الذي يربطُ باتيرسون بِكِيبك".

"أنا لا أراه".

"هذا لأنَّ السِّكك الحديديَّة في أيَّامنا هذه لم تعد تجري فوق التُّراب، بل تحتَه. وإلَّا فإنَّ الهواء سيتقلَّص. انظرْ هناك؛ ألا ترى بيتاً تعلوه شجرةٌ ليست أكثر من جهاز إرسالِ إشاراتِ كهربائيٍّ للإبراق اللاسلكيِّ؟..."

"إنَّني أراه".

"إنَّه محطَّةٌ".

"والسِّكَّة الحديديَّة؟"

"تمرُّ من تحته".

"كنتَ تحدِّثني عن الهواء. ما شأنه بالسِّكك الحديديَّة؟"

"سوف تعرف ذلك عندما نستقلُّ القطار الذي سيأخذنا إلى كيبك. آه! هيَ ذي الحافلة المتَّجهة إلى سكرانتون".

آلةٌ طائرةٌ عملاقة، مزوَّدةٌ بستَّةِ أزواج من الأجنحة الهائلة والمراوح الضَّخمة، مع منصَّةٍ طولُها عشرون متراً، مكتظَّةٍ بالنَّاس، كانت تتقدَّم بسرعةٍ مدوِّخةٍ، محافظةً على ارتفاع مِائةِ مترٍ عن سطح الأرض.

"رائع!" هتفَ الطَّبيب. "مَن هؤلاء؟"

"إنَّهم مزارعون يحملون منتجاتهم إلى سكرانتون".

"ما أشدَّ سُمرتهم! لَيَحسبُهم المرءُ هنوداً" قالَ براندوك. "بالمناسبة، ماذا حصل للهنود الحُمر الذين كانوا ما يزالون عديدَ الحصى قبل مِائة عام؟"

"لقد امتُصُّوا تماماً من قِبَل عِرقنا وانصهروا كلِّيّاً معنا. لم يبق منهم اليوم سوى بضع مئاتٍ من العوائل، منعزلةً في أعالي نهر يوكون وقرب الدَّائرة القطبيَّة الشَّماليَّة".

"كان ذلك مصيرُهم" قالَ الطَّبيب. "وماذا عن الزُّنوج الذين كانوا هُمُ أيضاً عديدَ الحصى والثَّرى هنا؟"

"هؤلاء في المقابل تكاثروا بشكلٍ مخيف" أجابَ هولكر. "لديهم دماءٌ جيِّدةٌ هؤلاء الأفارقة ولا يسمحون للدِّماء الأخرى بامتصاصهم، وكذلك شأنُ بني العِرق الأصفر".

"أما تزال الصِّين موجودةً؟"

"الصِّينُ، نعم؛ ولكن ليس الإمبراطوريَّة" أجابَ هولكر ضاحكاً. "لقد فُكِّكَتْ مِن قِبل القوى الأوروبِّيَّةِ الكُبرى وفي الوقت المناسب للحؤول دون غزوٍ مُريع. لقد تضاعف العِرق الصِّينيُّ خلال المِائةِ عامٍ الأخيرة، ولولا التَّدخُّل الفوريِّ للبِيض لَمَا توانى، مدفوعاً بالجوع، عن الانقضاض على أوروبَّا والهند. ولكنَّهم، مع ذلك، غزوا معظمَ أنحاء العالَم، لا كمستعمِرين، وإنَّما كمهاجرين، وثمَّة اليوم مستعمراتٌ صينيَّةٌ حتَّى في وسط إفريقيا وأستراليا".

"وشعبُ الملايو؟"

"هو عِرقٌ آخر لم يعد موجوداً. لا يوجد في العالَم اليوم غير البِيض والصُّفر والسُّود، وكلٌّ يحاول البطش بالآخر؛ وحتَّى اللحظة هُمُ الصُّفرُ

مَن لديهم الحظُّ الأكبر بالفوز من حيث أنَّهم عِرقٌ خِصبٌ بشكلٍ مخيف. إنَّنا معرَّضون من جهتنا لمهلكةٍ كبرى تتمثَّل في انقضاض العِرقين الآخَرين علينا".

"العالَم مهدَّدٌ إذاً بأن يتحوَّل كلُّ شيءٍ إلى أصفر" قالَ طوبي.

"للأسف، يا خالي العزيز" أجابَ هولكر. "كم كان يبلغ تعدادُ سكَّان العالَم في أيَّامكم؟"

"حوالي المليار ونصف المليار نسمة، في حين بلغ العنصرُ المنغوليُّ حوالي ستِّمائة مليون نسمة".

"يبلغ تعدادُ السُّكَّان حاليَّاً مليارين ومِائتي مليون وقد ارتفع تعدادُ الصُّفر من ستِّمائة مليون إلى مليارٍ ومِائة مليون".

"يا له من ارتفاع!" هتفَ الطَّبيب. "وما تعدادُ البِيض إذاً؟"

"بالكاد يبلغ ستَّمائة مليون".

"ارتفاعٌ يكاد يكون غيرَ محسوسٍ".

"ونحن مدينون بذلك لأعراق دولِ الشَّمال".

"والأعراق اللاتينيَّة؟"

"وحدها إيطاليا تنامتْ وبسرعة، فلديها اليومَ خمسون مليون، في حين أنَّ إسبانيا، وقبل كلِّ شيءٍ فرنسا، ظلَّتا شبهَ ثابتتَين. لولا وجود إيطاليا لَكان العِرق اللاتينيُّ الآن مُمتَصَّاً من قِبَل الأنجلوسكسونيِّين والصَّقالبة. هي ذي

أولمينا تلُوح في البعيد؛ إنَّنا ندخل مرَّةً أخرى ولاية نيويورك، وفي غضون ساعتين سنكون عندَ الشَّلَّالات".

كان *الكوندور* المتقدِّمُ دوماً بسرعة مِائةٍ وعشرة كيلومتراتٍ قد دخلَ بالفِعل ولايةَ نيويورك، ماراًّ بالقرب من أولمينا، المدينة التي كانت قبل مِائةِ عامٍ مجرَّدَ بلدةٍ صغيرةٍ وأصبحت الآن مدينةً مترامية الأطراف.

عدَّلَ الاتِّجاهَ قليلاً واندفعَ نحو بوفالو، ماراًّ فوق حقولٍ مزروعةٍ دوماً بمهارةٍ ودقَّةٍ كبيرتين.

عند الحادية عشرة كان *الكوندور* يحومُ على مقربةٍ من نياجارا، ذلك النَّهر العظيم الذي يربط بين اثنتين من أكبر بحيرات أمريكا الشَّماليَّة، "أونتاريو" و"إِري".

لم يكن الشَّلَّالُ الهائلُ مرئيَّاً بعد؛ ولكنَّ الدَّويَّ الهادرَ لكتلةِ المياه العظيمة كان مسموعاً.

جيشانٌ شديدٌ كان قد بدأ منذ بضع دقائق يستحوذ على كلٍّ من طوبي وبراندوك. كانت عضلاتهما تنتفض، وأطرافهما ترتجف، وشعرهما الأملس يُطلق شراراتٍ كُهربيَّة.

"ما أشدَّ التَّيَّار الكهربائيَّ السَّائد هنا!" قال طوبي. "الجوُّ مُشبَعٌ به. ألا تشعرُ بوعكةٍ يا جيمس؟"

"أجل" أجاب الشَّابُّ. "لا أستطيع أن أتحمَّل طويلاً هذا التَّوتُّر الذي يجعلني أنتفض".

"وأنت يا حفيدُنا؟"

"لا أشعر بشيءٍ على الإطلاق" أجابَ هولكر. "لقد بتنا معتادين على ذلك".

"لا أعرف ما إذا كنَّا سنتمكَّن من ذلك" قالَ طوبي وقد بدا في غاية القلق. "إنَّنا شخصان من قرنٍ آخر".

"آملُ أن تتمكَّنا من ذلك" قالَ هولكر. "آه! ها هي الشَّلَّالات!"

بعد أن جازَ *الكوندور* هضبةً كانت تحجبُ الرُّؤية، وصلَ بتحليقةٍ خاطفةٍ إلى أعلى الشَّلَّالات الشَّهيرة، محوِّماً في قلب سحابةٍ هائلةٍ من المياه المفتَّتَةِ التي انبثق من وسطها قوسُ قزحٍ رائع.

كانت الكتلة الهائلة للمياه تنصبُّ في النَّهر التَّحتانيِّ، مع هديرٍ يُصِمُّ الآذان، مؤدِّيةً إلى تحريك عددٍ لا حصر له من الدَّواليب العملاقة، المصنوعةِ كلِّها من الفولاذ، بغيةَ نقلِ القوَّة إلى جميع الآلات الكهربائيَّة في الفدراليَّة الأمريكيَّة.

كان المشهدُ مرعباً وفي الوقتِ نفسِه جليلاً.

في المِائة عامٍ الأخيرةِ تلك، حصلت تغييراتٌ ملحوظةٌ للشَّلَّال. الصُّخور التي كانت تقسمُه في أوَّل الأمر قد اختفتْ، وباتت المياه تندفع الآن بسلاسةٍ دونما عوائق، جاعلةً الدَّواليب تدورُ بصورةٍ مدوِّخة. وكان عددٌ لا حصر له من أسلاك الفولاذ الثَّخينة، المعدَّةِ لنقلِ قوَّة الشَّلَّال لمسافاتٍ كبيرةٍ وتوزيعها، ينتشر في جميع الاتِّجاهات.

"هي ذي المنشأة الكهربائيَّة الكبرى في الولايات المتَّحدة،" قالَ هولكر "والتي، من دون كيلوجرامٍ واحدٍ من الكربون الأحفوريِّ، تُديرُ آلافَ وآلافَ الآلات. هذا الماءُ جعلنا نتخلَّى عن مناجمِ الوقود كلِّها".

"أيُّ قوَّةٍ هائلةٍ تلك التي لا بدَّ أنَّها تُنتجُها!" هتفَ الطَّبيب.

"إذا رغبتْ أوروبَّا في بعضها، فإنَّنا قادرون على التَّخلِّي لها عن جزءٍ لا بأس به منها" ردَّ عليه هولكر.

"ويا له من تغييرٍ شهدَه الشَّلَّال!" قالَ براندوك.

"ولسوف يشهدُ تغييراتٍ أخرى بعدُ" ردَّ عليه هولكر. "لقد أكَّد علماؤنا أنَّه للوصول إلى النُّقطة الحاليَّة كان لا بدَّ له من أن يتغيَّر أربع مرَّات. في المرحلة الأولى، التي يُظنُّ أنَّها دامت ١٧٠٠٠ سنة، كانت كميَّة المياه أقلَّ بمقدار الثُّلث من حجمها الحاليِّ ومع مسقطٍ ارتفاعه ستُّون متراً فقط وعرضه ثلاثة كيلومترات. في المرحلة الثَّانية، انقسم النَّهرُ إلى ثلاثة شلَّالاتٍ بارتفاع مِائةٍ وثمانيةٍ وعشرين متراً، وقد دامتْ ١٠٠٠٠ سنة. نحن الآن في المرحلة الرَّابعة. هيَّا إلى وجبة الإفطار، ومِن ثَمَّ نأخذ القطار الذي سوف يحملنا إلى كيبك. لن نقوم سوى بتحليقةٍ واحدة".

رسمَ *الكوندورُ* لفَّتين أو ثلاث لفَّاتٍ فوق الشَّلَّال الهادر، داخلاً وخارجاً من سحابةِ الماء المفتَّت، ثمَّ يمَّمَ شطرَ بوفالو لبلوغِ القطار.

بعد نصف ساعةٍ كان يحومُ فوق المدينة، وسط عددٍ كبيرٍ من الزَّوارق الطَّائرة المتَّجهةِ في معظمها نحو الشَّلَّالات، محمَّلةً بسيَّاحٍ من المرجَّح أنَّهم توافدوا من أوروبَّا.

السَّائق، وبعد أن تلقَّى أمراً من سيِّده، هبطَ بآلته في ساحةٍ فسيحةٍ محفوفةٍ بعماراتٍ كبيرةٍ مؤلَّفةٍ من ثمانية عشر إلى عشرين طابقاً، مشيَّدَةٍ في معظمها من ألواح معدنيَّةٍ وبشكلٍ لم تكن تفتقر معه، أقلُّه من الخارج، إلى أناقة المظهر.

"هلمَّا نتناول إفطارنا في مقصفِ نياجارا" قالَ هولكر. "لتكوِّنوا بذلك فكرةً عن الفنادق الحديثة".

غادروا الطَّائرة وعبروا السَّاحة التي كانت شبهَ مهجورةٍ، إذْ كان الوقتُ منتصفَ النَّهار، أي موعد وجبة الظَّهيرة، ودخلوا رَدهةً واسعةً للغاية، مؤثَّثةً بفخامةٍ، وقد دُعِم سقفُها بعشرين عموداً معدنيَّاً.

ولدهشةِ براندوك وطوبي الكبيرة، لم يكن ثمَّة طاولاتٌ ولا كراسٍ ولا حتَّى نُدُلٌ في ذلك المطعم المزعوم.

"هل هذا مقصف؟" سألَ براندوك.

"هو كذلك، وحيث الطَّعام شهيٌّ والأسعار جيِّدة" أجابَ هولكر. "هنا يمكن أن تجدا ربمَّا بعضَ شرائح لحم الخنزير المحمَّرة بخبرةٍ ودرايةٍ، مع الشَّلجمِ المقدَّمِ كمشهِّيات".

"وممَّن عليَّ أن أطلبها إذا كنتُ لا أرى صاحبَ المقصف ولا حتَّى نادلاً واحداً؟"

"من يدري أين من الممكن أن يكون صاحبُ المقصف! ولكنَّ وجوده هنا ليس ضروريَّاً".

"ولا حتَّى وجودُ نادلٍ؟"

"للقيام بماذا؟"

لبثَ براندوك فاغرَ الفم، محملقاً في طوبي الذي لم يكن في تلك اللحظةِ أقلَّ انشداهاً منه.

"إنَّكما تنسيان، أيُّها السَّيِّدان، أنَّنا في الألفيَّة الثَّالثة" قالَ هولكر. "سأريكما الآن كيف أنَّ مطاعم اليوم أفضل من مطاعم الأمس وكيف أنَّ الخدمة جاهزةٌ دائماً وبشكلٍ لا لبس فيه. هيَّا يا سيِّد براندوك، تناولْ كوباً من الحساء أوَّلاً. سوف يُشعِرُك بتحسُّن".

"أنىَّ لي ذلك!"

ألقى هولكر نظرةً من حولِه، ثمَّ قادَ رفيقيه صوب واحدٍ من تلك الأعمدة التي ما لبثا أن رأيا حولها، على ارتفاع مترٍ واحدٍ عن سطح الأرض، أربعة رفوفٍ معدنيَّةٍ، وهناك أدخلَ عملاتٍ معدنيَّةً في بعض الثُّقوب.

"خدمةٌ ذاتيَّةٌ: حساء" قرأ براندوك، بانذهالٍ، على لوحةٍ صغيرةٍ ثُبِّتَتْ فوق الرَّفِّ.

"آه! فهمتُ الآن!" هتفَ طوبي.

لم تنقضِ نصفُ دقيقةٍ حتَّى انفتحَتْ ثلاثُ نوافذ صغيرةٍ وعلى الرَّفِّ ظهرَتْ، كما لو بسحر ساحرٍ، ثلاثة أكوابٍ من الحساء ينبعث منها الدُّخان، وكلٌّ منها إلى جانب فوطةٍ وملعقةٍ من معدنٍ أبيض.

"ها سيِّد براندوك،" قالَ هولكر "هل كانت الخدمة بمثلِ هذه الجاهزيَّةِ في أيَّامكم؟"

"أوه لا، لنقُلِ الحقيقة!" هتفَ الشَّابُّ. "يا إلهي إلى أين وصل علمُ الميكانيكا! ولكن كيف تصلُ هذه الأكواب إلى هنا؟"

"عبرَ سكَّةِ حديدٍ كهربائيَّةٍ مصغَّرة تشبه تلك التي سبقَ أن رأيتَها".

"هكذا تمَّ إقصاءُ أولئك النُّدُلِ المملِّين ومعهم أُقصِيَ سوءُ استخدام الإكراميَّات".

"وهل علينا أن نأكلَ وُقوفاً؟"

"هكذا أسرَع، ثمَّ إنَّ النَّاسَ اليومَ على عجلةٍ كبيرةٍ من أمرهم. أترغبان في أطباقٍ أخرى؟ يوجد هنا عشرون عموداً تمثِّلُ معاً قائمة وجبات اليوم. يكفي أن تضعا عملةً معدنيَّةً من فئة الخمسة وعشرين سِنتاً وستحصلان على كلِّ ما ترغبان، بما في ذلك الحلويَّات، والنَّبيذ، والجعة، وسائر المشروبات الرُّوحيَّة، والقهوة والشَّاي.

"يا لِلابتكاراتِ العجيبة! يا لِلأعاجيب!" هتفَ طوبي.

"ولكَم هي عمليَّةٌ ومُريحةٌ فوق كلِّ شيء!" أضاف براندوك النَّبيه.

"ها صديقيَّ،" قالَ هولكر فجأةً "ما رأيكما إذا غيَّرنا قليلاً مسارَ رحلتنا؟ أمستعجلان أنتما لزيارة أوروبَّا؟"

"لا" أجابَ براندوك وطوبي بصوتٍ واحد.

"أترغبان في الذَّهاب إلى القطب الشَّماليِّ؟ سوف نهبط مِن ثمَّ إلى أوروبَّا عبرَ سبيتسبرغن(*)".

ألَّا يسقط براندوك وطوبي من الدَّهشة، لدى سماعهما ذلك الاقتراح غير المتوقَّع، فتلك كانت معجزةً حقيقيَّة.

"الذَّهاب إلى القطب الشَّماليِّ!" هتفا.

---

*) تُعرَف حاليّاً باسم سفالبارد، وهي أرخبيلٌ نرويجيٌّ في المحيط المتجمِّد الشَّمالي؛ (م).

"من كِيبك وفي غضون خمس ساعاتٍ يمكننا بلوغُ النَّفق الأمريكيِّ(*).
وعند منتصف الليل نستريح وسط جليد المحيط المتجمِّد الشَّماليِّ، على أسرَّةٍ لا تقلُّ راحةً عن ذلك السَّرير الذي نمتما عليه في بيتي ليلةَ أمس".

"هل جُننِتَ، يا حفيدي، أمِ غرضُكَ أن تهزأ بنا؟" صاحَ طوبي.

"ليست لديَّ أيَّة نيَّةٍ على ذلك يا خالي العزيز. أتفهَّمُ أنَّ اقتراحي قد فاجأك، ولكن مع ذلك أعدكَ بأنَّني سأفي به".

"ماذا فعل أبناءُ الألفيَّة الثَّالثة؟"

"الأعاجيبَ، سبقَ وقلتُ لكما ذلك. فلننهِ إفطارنا، ونُعِدِ *الكوندورَ* إلى نيويورك، ثمَّ نستقلُّ قطارَ السِّكَّة الحديديَّةِ الكنديَّة".

---

*) لعلَّه يقصد "النَّفق العابر للأطلسيِّ" وهو نفقٌ افتراضيٌّ يعبر المحيط الأطلسيَّ رابطاً بين أمريكا الشَّماليَّة وأوروبَّا؛ (م).

سِكَكُ الألفيَّةِ الثَّالثةِ الحديديَّةُ

بعد أن تناولوا وجبة إفطارٍ وافيةً، مُسَقَّاةً بعدَّةِ كؤوسٍ من الخمور الإسبانيَّةِ والإيطاليَّةِ السَّخيَّة، أذِنَ السَّيِّدُ هولكر ورفيقاه لهاري بالانصراف وتوجَّهوا نحو مبنىً ضخمٍ يعلوه برجٌ فولاذيٌّ تتفرَّع من ذروته عدَّة أسلاكٍ معدنيَّةٍ ثخينة.

"هي ذي محطَّة القطار" قالَ هولكر.

"المعذرة، يا سيِّد هولكر،" قالَ براندوك لحظةَ دخولهم "ألم تعِدْ أنَّك ستأخذنا إلى القطب الشَّمالي؟"

"بلى".

"هل وجدتم طريقةً لتقريب الشَّمس، على سبيل الافتراض؟"

"لماذا تسألني هذا السُّؤال؟"

"هل ما يزال الطَّقس بارداً هناك؟"

"كما كان الحالُ في أيَّامكم وربَّما أكثر، كما سبقَ أن أخبرتكما. في العام الماضي سجَّلت المحطَّة القطبيَّة خمساً وخمسين درجةً تحت الصِّفر".

"وستأخذنا إلى هناك في هذه الثِّياب؟"

"لا تفكِّرا في الأمر" أجابَ هولكر. "ففي محطَّة كِيبك سنجدُ الأمتعة التي تحتوي على اللوازم الضَّروريَّة لتحدِّي أكثر أحوال البرد شدَّةً. انتظراني لحظةً هنا ريثما أذهب لأرسلَ برقيَّةً لاسلكيَّةً إلى أحد أصحاب تلك المتاجر الذين أعرفهم".

فيما هو ماضٍ إلى مكتب الإبراق، دخلَ طوبي وبراندوك رَدهةً فسيحةً لَمَحا في نهايتها درَجاً كبيراً.

"أين هي هذه القطارات؟ إنَّني لا أراها ولا أسمع آلافَ الجَلَبات التي كان صداها يتردَّدُ في عصرنا تحت السَّقائف الرَّحراحة" قالَ براندوك.

"من مكانٍ ما سنراه خارجاً من مكمنه ذلك الذي سيحملنا إلى كِيبك".

"أتعلم، يا طوبي، أنَّني لوقوعي مرَّةً إثْرَ مرَّةٍ في الحيرة والذُّهول سوف ينتهي بيَ الأمرُ إلى الجنون؟"

"ألا تشعر بأنَّك على ما يُرام؟..."

"كنتُ أفضلَ حالاً قبل مِائة عامٍ مع كآبتي. الآن تنتابني باستمرارٍ انفعالاتٌ غريبة".

"إنَّه التَّوتُّر الكهربائيُّ".

"ها صديقَيَّ،" هتفَ هولكر في تلك اللحظة "القطار على وشك الوصول؛ بالكاد لدينا الوقت الكافي لنزول الدَّرَج".

"والتَّذاكر؟" سألَ طوبي.

"أصبحَتْ في محفظتي؛ لقد حجزتُ مقصورةً لنا، لكي نتمكَّن من التحدُّث بسلامٍ مِن دون أن يكون هناك أيُّ شهود".

في نهاية الدَّرَج تناهى إلى مسامعهم صوتٌ قويٌّ يصيح:

"استعدُّوا! لقد وصل القطار!"

قُرابةَ العشرين شخصاً، كأنَّما صار الشَّيطان في إثرهم، تهاطلوا إلى أسفل الدَّرَج. تبعَهم هولكر ورفيقاه.

رُواقٌ مقنطَرٌ بعشرة أبوابٍ كانت في تلك اللحظة مفتوحةً ومن خلالها كانت تخرجُ رشقاتُ ضوءٍ قويَّةٌ، كان يمتدُّ حوالي أربعين متراً.

دفعَ هولكر رفيقَيه نحو واحدٍ من تلك الأبواب، قائلاً:

"هيَّا، اصعدا!"

وجدَ المُعادان إلى الحياة نفسيهما داخلَ حجرةٍ صغيرةٍ مُنارَةٍ بلمبةٍ تحتوي على قطعةٍ من الرَّاديوم، مع أربع أرائك مريحةٍ من السَّاتان الأحمر يمكن تحويلها إلى أسِرَّةٍ.

"والسِّكَّةُ الحديد؟" سألَ براندوك.

انغلقتِ الأبوابُ الحديديَّة مُحدِثةً صريراً وقعقعة.

لبضعِ لحظاتٍ سُمِعَت أصواتٌ تصرخُ ثمَّ لا شيء. حتَّى أبواب المقصورة انغلقت من تلقاء نفسها، مرتفعةً من سطح الأرض.

"ألن نتحرَّك؟" سألَ براندوك بعد بضع لحظات.

"إنَّنا بالفِعل في طريقنا إلى هناك" أجابَ هولكر، ضاحكاً.

"أنا لا أشعر بأيٍّ اهتزازٍ، ولا أسمع أيَّ ضجيجٍ صادرٍ عن المكنات".

"بيدَ أنَّ القطارَ يمضي بسرعةٍ خياليَّة. كم كيلومتراً كانت تقطع قطاراتكم في السَّاعة؟"

"مِائةً وعشرون كيلومتراً على الأكثر".

"أمَّا هذا فيسير بسرعة ثلاثمائة كيلومترٍ في السَّاعة!"

"ما طبيعة الآلة التي تدفعُه؟"

"ما مِن آلةٍ؛ إنَّها آليَّةُ شفطٍ ودَفعٍ في آنٍ واحد".

"هلاَّ شرحتَ لنا أكثر، يا حفيدي العزيز" قالَ طوبي. "فنحن عجوزان جدّاً لنفهم بالتَّلميح غوامضَ الاختراعات الحديثة".

"إنَّنا مسافرون داخلَ أنبوبٍ فولاذيٍّ قَدْرُ مُحيطِهِ خمسةُ أمتار، وعرباته، التي عادةً ما يبلغ عددُها العشرين، تلتحمُ إحداها بالأخرى التحاماً تامَّاً بجدرانٍ معدنيَّة. تمتلك هذه العربات قالباً أسطوانيَّاً محيطُه مطابقٌ تماماً للمحيطِ الدَّاخليِّ للأنبوب، ويمكنها أن تستوعبَ أربعةً وعشرين راكباً. بين المحطَّتين الرَّئيستين ثمَّة مضخَّاتٌ تُديرُها آلاتٌ قويَّةٌ، وهي تضخُّ في الأنبوب تيَّاراتٍ من الهواء؛ ففي نقطة الانطلاق تكون المضخَّات عبارةً عن مضخَّاتٍ دافعة، بينما تكون في نقطةِ الوصول عبارةً عن مضخَّاتٍ شافطة. وعلى هذا المنوال فإنَّ الأسطوانات التي تشكِّلُ هذه العربات، والتي هي أيضاً مصنوعةٌ من الفولاذ، تخضع في آنٍ واحدٍ لعمليَّتَي دفعٍ وشفط. إنَّها، باختصارٍ، قطاراتٌ مُسَيَّرةٌ بالهواء المضغوط".

"مُذهِل!" هتفَ طوبي. "ما الذي لم تخترعوه بعد، أنتم يا أبناء الألفيَّة الثَّالثة؟"

"ألاحظُ شيئاً" قالَ براندوك. "هلَّا تعطيني لهُ تفسيراً".

"قُلْ لي".

"تلك الأسطوانات، مع ذلك الاحتكاك، ألا تقدحُ ناراً؟ يبدو لي أنَّه من المفترض أن نُشوَى هنا في الدَّاخل، في حين أنَّ درجة الحرارة بقيَتْ باردةً نسبيَّاً".

"لا شيء من ذلك البتَّة: أوَّلاً لاستخدام معدنٍ بطيءِ الاحترارِ للغايةِ، هو التَّانتاليوم، والذي إنْ لم أكن مخطئاً كان الكيلوغرامُ الواحدُ منه يساوي خمسين ألف ليرة في عصركم فيما تعطيه الكيمياءُ اليومَ سعراً مساوياً لذلك الذي للفضَّة. وثانياً لأنَّ أسطوانة المقدِّمة وأسطوانة المؤخِّرة تتكوَّنان من خزَّانين كبيرين يضخَّان باستمرارٍ رشقاتٍ من الماء تمنع الاحترار".

"والهواءُ اللازمُ لتنفُّسِ المسافرين، ماذا عنه؟"

"يمُدُّون به مِن قِبَل أسطواناتٍ فولاذيَّةٍ هي عبارةٌ عن خزَّاناتِ هواءٍ مضغوط. أتواجه صعوبةً في التَّنفُّس؟"

"لا" أجابَ براندوك.

"هل يوجد أنبوبٌ واحدٌ فقط لكلِّ خطٍّ؟" سألَ طوبي.

"لا، يا خالي العزيز، يوجد منها أربعة. واحدٌ للقطارات المباشرة التي لا تتوقَّف إلَّا في المحطَّات الكبرى، كهذه المحطَّة، وواحدٌ للمحطَّات الوُسطى واثنان لقطارات البضائع. ما إنْ يصل واحدٌ حتَّى يغادر الآخر عائداً. كلَّ ساعتين لدينا قطاراتٌ تغادرُ وأخرى تصِل".

"وهكذا فوقوع اصطداماتٍ أمرٌ مستحيلٌ" قالَ براندوك.

"لا يمكن أن يحدث ذلك لأنَّه لا يكون ثمَّة سوى قطارٍ واحدٍ أو اثنين على الأكثر في النَّفق، وهذان يتبعان المسارَ نفسَه".

"عندما تفكِّر كيف كنَّا نسافرُ يوماً تجدُ في الأمر ما قد يقودك إلى الجنون! ماذا كان فرانسوا الأوَّل ملكُ فرنسا وكارلوس الخامس سيقولان لو كان بإمكانهما العودة إلى العالَم! وكانا يزعمان أنَّ لديهما أسرع مَركَباتِ نقلِ البريد على وجه الأرض!"

"ذانك الملِكان؟" قالَ هولكر. "لقد كان لديهما حلازين، على الأرجح".

"وماذا كان سيقول القبطان بولين، وبوروكيو، وشاميران، وقبل الجميع ماريفو؟"

"من يكون هؤلاء؟" سألَ براندوك.

"إنَّهم أسرعُ ناقلي بريدٍ في أوروبَّا العصورِ الوسطى، والذين في ذلك العصر أذهلوا الجميعَ بسرعتهم! بولين أمضى عشرين يوماً في السَّفر من القسطنطينيَّة إلى فونتينبلو لإيصال رسالةٍ إلى فرانسوا الأوَّل؛ وبوروكيو أمضى أربعة أيَّامٍ لينقلَ إلى ملك بولندا خبرَ وفاةِ كارلوس التَّاسع، وكذلك أمضى ماريفو أربعة أيَّامٍ ليجتاز المسافة بين باريس ومرسيليا. وكان أجدادُنا الطَّيِّبون أولاء يجزمون بأنَّ المسافات آنذاك كانت تضمحلُّ مع مَركَباتهم تلك!"

"لقد كانوا ممَّن يقنعون بالقليل أجدادُنا القدماء" قالَ هولكر.

صفيرٌ حادٌّ، آتٍ من الأعلى، جعلَ براندوك وطوبي يرفعان رأسيهما

فجأةً. كان قد انبعثَ من أنبوبٍ صغيرٍ منثنٍ نحو الأسفل على مقربةٍ من مصباح الرَّاديوم.

"أيُنبِّهنا أنَّنا وصلنا؟" سألَ براندوك.

"لا، إنَّها وسيلةُ إعلامٍ صاروخيَّةُ السُّرعة مشتركٌ بها خطُّ السِّكَّة الحديديَّة هذا لكي يبقى المسافرون على اطِّلاعٍ بأهمِّ الأخبار، حتَّى أثناء السَّفر".

"وكيف يتمُّ ذلك؟"

"عبرَ سلكٍ يلتفُّ على بكرةٍ، ويمتدُّ بطول المسافة التي يقطعها القطار. فلنصغِ".

صوتٌ معدنيٌّ طرقَ مسامعَهم في الحال:

"فادحةٌ كبيرةٌ حلَّت بولاية ميسوري ناجمةٌ عن فيضانٍ مفاجئ. "أُوْماها" دُمِّرَتْ بالكامل تقريباً وستُّون ألف شخصٍ هُمُ الآنَ في عدِاد الغرقى. أرسلَتْ حكومةُ نبراسكا مهندسِين مع طاقمٍ مكوَّنٍ من عشرين ألف رجلٍ، ومعونةٍ غذائيَّةٍ، وقوارب إنقاذ.

مِن أوروبَّا. فوضويُّو المدينة الغائصة الذين نهبوا مدينة قادس تمَّ القضاء عليهم كلِّيَّاً على أيدي إطفائيِّي مالقة. الحكومة الإسبانيَّة ستعوِّض السُّكَّان عمَّا لحق بهم من أضرار.

مِن آسيا. حكومةُ الهند تجدُ نفسَها في حرجٍ شديدٍ بسبب المجاعة. الهنودُ يموتون جوعاً بالملايين".

"أليس ذلك كلُّه بالعجب العُجاب، يا براندوك؟" سألَ طوبي.

"ما زلنا في حلمٍ مستمرٍّ" أجابَ الشّابُّ. "إنّني مقتنعٌ الآنَ بأنّني لم أستيقظ على سطح الأرض، بل في عالَمٍ آخر".

"وأنا أيضاً أكادُ أعتقدُ ذلك" ردَّ عليه طوبي.

"ومع ذلك ثمّةَ عجائب أخرى أكثر روعةً..." قالَ هولكر.

هزّةٌ خفيفةٌ وقعقعةُ أبوابٍ بدا أنّها فُتِحَتْ قاطعَاهُ الحديثَ. وفي اللحظةِ نفسِها تقريباً سُمِعَ صوتٌ يهتف:

"مونترايال!..."

"تلكِ التي في كندا!" هتفَ براندوك.

"إنّها الثّانية" قالَ هولكر، ناظراً إلى ساعته التّوقيتيّة.

"متى نصلُ إلى كِيبك؟"

"في الثّالثة وبضع دقائق".

"وإلى القطب الشّماليّ؟"

"في غضون يومين".

"وهل سنجتاز في وقتٍ قصيرٍ كهذا مسافةً هائلةً كهذه؟"

"سننزلق بسرعة مِائتي ميلٍ في السّاعة. ما يفوق بالطّبع سرعةَ اندفاعِ الأعاصير!...".

"ننزلق؟"

"إنَّها الكلمة المناسبة".

"وكيف؟"

"سوف تعرف متى بلغنا حدودَ القارَّةِ الأمريكيَّة وانطلقنا على سطحِ المحيط المتجمِّد الشَّمالي".

"براندوك!"

"طوبي!"

"أما زلتَ تحلم؟"

"دائماً".

"وأنا أيضاً أحلم".

بعد خمس دقائق، استأنفَ القطارُ رحلته الجحيميَّة وعند الثَّالثة ظهراً توقَّف في محطَّة كِيبك، عاصمةِ كندا.

ما إن غادروا المقصورة حتَّى دخلَ في الرُّواق رجلٌ يصيح: "سيِّد جاكوب هولكر!"، حاملاً حقيبتين ضخمتين.

"إنَّه أنا" أجابَ حفيدُ طوبي، مندفعاً نحوَه. "هل أنت من محطَّة خدماتِ السَّيِّد واس؟"

"نعم يا سيِّدي".

"من المفترض أن تحتوي الحقيبتان على الملابس اللازمة لرحلةٍ إلى القطب".

"أنتَ هو بالضَّبطْ مَن كنتُ أبحث عنه إذاً. لقد تلقَّينا منذ ساعتين برقيَّتك التي أرسلتَها من بوفالو".

دفعَ هولكر، دونما مُساوَمةٍ، الحسابَ ثمَّ قادَ صديقَيه إلى مطعم المحطَّة، الذي كان هو أيضاً ذاتيَّ الخدمة، وقدَّمَ لهما مشروباً.

"لدينا عشر دقائق لنأخذ القطارَ المتَّجه إلى القطب الشَّماليِّ" قال. "فلنغتنمها لندفِّئ أحشاءنا بقليلٍ من نبيذ القبَّار".

وبالفِعل، بعد عشر دقائق، كان الأصدقاء الثَّلاثة يأخذون أماكنهم داخلَ مقصورةٍ في قطارِ لابرادور، متَّجهين إلى خليج وُلْستنهولم عبرَ مضيق هدسون، ومنطلقين بسرعةِ مِائتين وسبعين كيلومتراً في السَّاعة.

"متى نصلُ إلى سواحلِ المحيط المتجمِّد الشَّمالي؟" سألَ براندوك.

"في الخامسة من صباح الغد" أجابَ هولكر.

"هل سنجدُ فندقاً هناك؟"

"وسريراً رائعاً أيضاً".

"وسطَ الجليد؟"

"خليجُ وُلْستنهولم محطَّةٌ صيفيَّة، يكثرُ غِشيانُها خلال أشهرِ حزيرانَ وتمُّوزَ وآب، تماماً كما هو الحالُ في سبيتسبرغن".

" سبيتسبرغن؟!" هتفَ طوبي.

"علامَ استغرابُكَ يا خالي؟"

"لأنَّ تلك الجزيرة الكبرى القابعة وسط المحيط المتجمِّد الشَّماليِّ لم يكن يغشاها في أيَّامنا سوى الدِّببة البيضاء وصائدي الفُقَمِ والحيتان".

"لقد أصبحَتِ اليومَ أشبه ما تكون بسويسرا" أجابَ هولكر. "فبين تلك الجبال الجليديَّة تقومُ فنادقُ ليس لدى فنادق نيويورك ما تُحسَد عليه أمامَها. ستريان أيَّ روائع هيَ!"

"هل سنذهب إلى هناك؟"

"نعم، في طريق العودة، لأنَّ النَّفق القطبيَّ ينتهي تماماً في تلك الجزيرة".

"أيُّ خرافاتٍ هذه التي تقصُّها علينا!"

"ستريان!... ستريان!... إنَّنا في الألفيَّة الثَّالثة يا صديقيَّ العزيزين وليس في أزمان القرن العشرين السَّحيقة".

"وهل ما تزال شعوبُ الإسكيمو تعيش في المناطق القطبيَّة؟" سألَ براندوك.

"بضعُ عوائلَ فحسب؛ القبائلُ الأخرى اختفت كلُّها تقريباً".

"ولأيِّ سبب؟"

"بسبب الهلاك الكامل للحيتان والفُقْمات التي كانت تشكِّلُ قُوْتَهم".

"ماتوا جوعاً؟"

"نعم، يا سيِّد براندوك".

"ولكنَّك ذكرتَ لي أنَّ ثمَّة مستعمرةً قطبيَّةً كبيرة".

"صحيح، وهي مكوَّنةٌ من فوضويِّين أُبعِدوا إلى هناك لكيلا يعكِّروا السَّلامَ في العالَم".

"وكيف يعيش هؤلاء؟"

"ما تزال الأسماك وفيرةً في ما وراءَ الدَّائرة القطبيَّة؛ ثمَّ إنَّ الحكومات الأمريكيَّة والأوروبِّيَّة تزوِّدهم بالطَّعام، شريطة ألَّا يغادروا أصقاعَ الجليد".

"أمحظَّرٌ عليهم إذاً العودةُ إلى أوروبَّا وأمريكا؟"

"وإلى آسيا أيضاً!"

"وهل عادَ الهدوءُ إلى العالَم بعد إقصائهم؟"

"إلى حدٍّ مقبول" أجابَ هولكر.

"وفي المستعمرة القطبيَّة نفسِها هل يسودُ الهدوء؟"

"كونهم مرغمين على القنصِ والصَّيد بشكلٍ متواصلٍ، لم يعد لديهم الوقت الكافي للانكباب على نظريَّاتهم الخطِرة: هكذا يسودُ هناك الهدوءُ وشيءٌ من الانسجام".

"هل أصبحوا كثيرين في المِائة عامٍ الأخيرة؟" سألَ طوبي.

"نعم، وخطيرين للغاية أيضاً. ولكنَّهم لم يعودوا مصدرَ خوفٍ الآن، بعدما نُفُوا مع أُسَرِهم إلى القطب الشَّماليِّ وإلى المدن الغائصةِ تحت البحر. أوه! لن ينغِّصوا عيشَ البشريَّةِ بعدَ اليوم!"

"ولكنَّ أنباءَ ذلك الشَّريط الإخباريِّ تفنِّدُ ما قلتَه للتَّوِّ" عقَّبَ براندوك.

"تلك كانت محضَ صُدفة. ثمَّ إنَّكما رأيتما كيف تمَّ التَّعاملُ معهم من قِبَل رجال الإطفاء الإسبان. بضع رشقاتٍ من الماء المكَهرَب بتيَّارٍ عالي الجهد فإذا الأمرُ كلُّه منتهٍ. اللعنة!... للبشريَّةِ الحقُّ في أن تعيش وتعملَ بسلامٍ من دون أن تُقَضَّ مضاجعُها. كلُّ مَن يُقلق الآخرين، يتمُّ إرسالُه إلى مملكة الظُّلمات، وأؤكِّدُ لكما أنَّ لا أحد يبكي عليهم".

"هذا ضربٌ من العدالةِ التُّركيَّة" قالَ براندوك، ضاحكاً.

"سمِّها ما شئت، فالجميعُ يستحسنُ ذلك ولسوف يستحسنُه في المستقبل".

فيما كانوا يمرِّرون الوقتَ على ذلك المنوال، كان القطارُ يجري داخلَ الأنبوبِ الفولاذيِّ بسرعةٍ رهيبةٍ، عابراً أراضي لابرادور المتجمِّدة.

ولأنَّنا كنَّا كما قلنا في وقتٍ متأخِّرٍ جدَّاً من الخريف، فلا بدَّ وأن يكون الثَّلج قد غطَّى منذ بضعة أشهرٍ تلك الأراضي بطبقةٍ مُعتَبَرةٍ، وأن يكون الصَّقيعُ في الخارج شديداً للغاية؛ بيدَ أنَّ المسافرين لم يلاحظوا شيئاً من ذلك على الإطلاق. من ناحيةٍ أخرى، كانت لمبةُ الرَّاديوم كافيةً لإشاعةِ دفءٍ لذيذٍ داخلَ المقصورات يمكن زيادته حسب الرَّغبة. في تمام الثَّامنة مساءً توقَّف القطارُ في محطَّة ميسِّيسِّيني القائمة على ضفافِ البحيرة التي تحمل الاسمَ نفسَه.

ما إن فُتِحَت الأبوابُ الفولاذيَّة ومداخلُ العربات حتَّى برزَ للمسافرين رجالٌ يحملون أكوابَ حساءٍ ينبعث منها الدُّخان، وأسماكاً مسلوقةً ومقليَّةً، وبعضَ البودِنق، وأنبذةً وشاياً.

"كنتُ أفضِّلُ تناول العشاء في مطعم المحطَّة" قالَ براندوك.

"نحن أفضلُ حالاً هنا" قالَ هولكر. "فالبردُ قارسٌ في الخارج. ما درجةُ الحرارة؟" سألَ النَّادلَ الذي جلبَ العشاء.

"خمس عشرة تحت الصِّفر، يا سيِّدي" أجابَ المستجوَب. "الشِّتاءُ أعلن عن قدومهِ بمنتهى القسوةِ هذه السَّنة، والبحيرة قد تجمَّدت بالفِعل منذ ثلاثة أسابيع".

"وماذا بشأن المحيط؟"

"المضيق بأكمله مغطًّى بجلاميدَ ضخمةٍ من الجليد".

"أما يزالُ القاربُ-التِّرامُ يقوم بوظيفته؟"

"حتَّى شاطئ بافِن".

"هل من أخبارٍ عن النَّفق؟"

"إنَّه أكثر تماسكاً اليومَ من أيِّ وقتٍ مضى. لم يحدث أيُّ تصدُّعٍ حتَّى في هذا العام. رحلةً سعيدةً، أيَّها السَّادة، القطارُ يُغادر".

وضعوا المأكولات على الأرفف الموجودة قرب الأرائك الصَّغيرة، ثمَّ نزلوا سِراعاً. بعد لحظةٍ انغلقت المداخل، والأبوابُ الفولاذيَّةُ أيضاً، واستأنف القطارُ، مضغوطاً من جانبٍ ومدفوعاً من الجانب الآخر، رحلتَه.

"سنتناولُ الآنَ عشاءنا، ثمَّ نرتدي ملابسنا القطبيَّة، ونحاول بعد ذلك أن نستغرق في النَّوم. حتَّى السَّاعة الخامسة من صباح الغد لن يزعجنا أحد".

"ثمَّ نبدِّل القطار؟" سألَ طوبي.

"نعم، لكي نستقلَّ القاربَ-التِّرامَ" أجابَ هولكر.

"وما هو هذا؟"

"ستراه صباحَ الغد، يا خالي العزيز. إنَّه ابتكارٌ جميلٌ ومُريحٌ هو الآخر. فلنتعشَّ".

القاربُ-التِّرامُ

في الخامسةِ صباحاً كان الأصدقاءُ الثَّلاثة الذين استغرقوا في النَّوم، بعد أن ارتدوا ملابس الرَّحَّالة القطبيِّين الثَّقيلة، قد استيقظوا على صيحات موظَّفي الخطوط الحديديَّة في محطَّة وُلستنهولم.

كان هولكر أوَّلَ مَن فتحَ عينيه، قائلاً لصديقيه:

"إنَّنا على ضفاف المحيط المتجمِّد الشَّمالي والقاربُ-التِّرامُ في انتظارنا لعبور مضيق هدسون. ليس لدينا وقتٌ لنضيِّعه".

حملوا أمتعتهم، غادروا المقصورةَ الدَّافئة، وخرجوا من النَّفق الفولاذيِّ ليدخلوا مبنى المحطَّة.

"فنجانٌ من الشَّاي الفاخرِ مع قدحٍ من الويسكي قبل كلِّ شيء" قالَ هولكر، وهم يدخلون رَدهةً تقومُ مقامَ مطعمٍ مُضاءٍ بشكلٍ باهرٍ بلمبةِ راديوم كبيرة. "لا بدَّ وأنَّ البردَ قارسٌ جدَّاً، في الخارج".

بعدما دفَّأوا أحشاءهم، غادروا المحطَّة، متبوعين بثمانية إلى عشرةِ مسافرين آخرين، معظمهم من الإنجليز والألمان المتَّجهين إلى القطب.

كان الليلُ ما يزالُ مخيِّماً، غير أنَّ العديد من مصابيح الرَّاديوم كانت تضيءُ طرقاتِ القريةِ الصَّغيرة التي شُيِّدَتْ على ضفاف المحيط المتجمِّد

الشَّمالي، وكان البردُ زَمهريراً. الثُّلوجُ غطَّتْ كلَّ شيء ولا بدَّ أنَّها بلغتْ سُمْكاً كبيراً.

"مَن يقطنُ بلدةَ الذِّئاب هذه؟" سألَ براندوك، ملتفَّاً بعباءةٍ فضفاضةٍ من فرو دُبٍّ أسود.

"يقطنُ هنا قرابة الأربعين أو الخمسين صيَّاداً كنديَّاً" أجابَ هولكر. "كلُّ المحاولات لاستعمار هذه الأصقاع الشَّاسعة باءت بالفشل. إنَّها لمأساةٌ حقيقيَّةٌ، فهنا لن يكون هنالك نقصٌ في المساحة لإقامةِ مدنٍ عملاقة".

"ولزراعة الملفوف وبَذْرِ القمح" قال براندوك، ضاحكاً.

"ومع ذلك ثمَّةَ هنا ما ينبتُ وينمو، بالرُّغم من البرد".

"وكيف استطعتم تحقيق هذه الإعجاز؟"

"بإسقاط دَفقةٍ مستمرَّةٍ من ضوء الرَّاديوم على النَّباتات وعلى التُّربة،" أجابَ هولكر. "البطاطسُ تنمو بشكلٍ رائعٍ هنا، وكذلك الفطر، في أقبية المنازل".

"جمعُ الفطر في الدَّائرة القطبيَّة الشَّماليَّة! إنَّه لشيءٌ عظيم! ماذا كانا سيقولان فرانكلين ورُوس لو قُيِّض لهما أن يعودا إلى الحياة؟"

في تلك اللحظة انطلق صفيرٌ حادٌّ من مسافةٍ قصيرةٍ وحُزمةُ ضوءٍ قويَّةٌ أُسقِطَتْ على الزُّمرة الصَّغيرة التي كان يقودُها موظَّفٌ في الخطوط الحديديَّة.

"ماذا هناك؟" سألَ طوبي.

"إنَّه القاربُ-التِّرامُ يستدعينا" أجابَ هولكر.

"أهو باخرةٌ أم عربةٌ ضخمةٌ تسيحُ على الأرض؟"

"كلاهما معاً، يا خالي" قالَ هولكر.

"اختراعٌ شيطانيٌّ آخر؟"

"ولكنَّه عمليٌّ للغاية".

حَثُّوا خطاهم، وبعد بضع دقائق وجدوا أنفسَهم على شاطئ المحيط المتجمِّد الشَّمالي. في نهاية جسرٍ خشبيٍّ، مُضاءٍ بالعديد من المصابيح، كان ثمَّة قاربٌ كبيرٌ يعلوه صارٍ واحدٌ كانت تتلألأ في قمَّته كرةُ راديوم ضخمةٌ وهي تنشرُ في جميع الجهات حزمَ ضوءٍ برَّاقةً وخفيفةَ الزُّرقة.

العديدُ من الرِّجال، ممَّن يرتدون ملابس مكسوَّةً بالشَّعر جعلتهم يبدون أشبه ما يكون بالدِّباب القطبيَّة، كانوا يقفون صفَّاً واحداً على طول جدران السَّفينة قابضين بأيديهم على قضبانٍ طويلةٍ رؤوسُها من الحديدِ المفولَذ.

"جنودٌ قطبيُّون؟" سألَ براندوك.

"إنَّهم بحَّارة" أجابَ هولكر.

"لماذا معهم تلك الحِراب؟"

"ليُبعِدوا بها كتلَ الجليد العائمة التي قد تقتربُ من القارب. سيكون هناك الكثير منها في عرضِ المحيط".

"وإلى أين سيُقِلُّنا هذا القارب؟"

"إلى شاطئ بافِن، في ما وراءَ بحيرة نِتِّيلِّينج".

"في أيَّامنا، يا حفيدي العزيز،" قالَ طوبي "كانت تلك البحيرة موجودةً في قلب الجزيرة".

"الأمرُ كذلك، يا خالي العزيز".

"فإذاً لن يستطيع هذا القارب المضيَّ إلى هناك، إلَّا إذا كان لديه عجلاتٌ تدورُ به".

"وماذا إذا كان الأمرُ كذلك؟ ماذا إذا كان في مقدور هذا القارب الرَّائع أن يبحرَ ويجري على اليابسة أيضاً، مثل سيَّارةٍ عاديَّةٍ، في وقتٍ واحد؟"

"ها صديقي جيمس، ما قولك في هذا الاختراع الطَّريف؟" سألَ طوبي.

"ستنتهي بي الحالُ إلى نقطةٍ لن أتفاجأ بعدَها بأيِّ شيء، حتَّى لو وجدتُ البحارَ وقد حُوِّلَتْ إلى حقولٍ خصبة" أجابَ براندوك.

حين بلغوا نهايةَ الجسر، صعدوا إلى السَّفينة، يحيِّيهم ببشاشةٍ القبطان والضَّابطان المرافقان له.

كانت سفينةً جميلةً، مستديرةَ الجوانب قليلاً لكي تتملَّص بشكلٍ أفضل بين مضائق الجليد، طولُها قرابة الثَّلاثين متراً، وفي وسطها دهليزٌ جدرانُه من الزُّجاج السَّميك لحماية المسافرين من لسعات الرِّيح القطبيَّة دون حرمانهم من رؤية مجرياتِ الأمور في الخارج، وهي مُضاءَةٌ بشكلٍ رائع.

أخذ براندوك وهولكر وطوبي مجلسَهم في مقدَّم السَّفينة، تحت سقفِ الدِّهليز، وتبعَهم على الفور بقيَّة الرُّكَّاب.

أُغلِقَ الباب، وأطلقَتِ الآلةُ صفيراً حادَّاً وراح المركبُ يجري بسرعةٍ

معتدلة، فيما تسلَّق رجالُه، الذين كانوا خارجَ الدِّهليز، جدرانَ السَّفينة غامسين في الماء حِرابهم الفولاذيَّة الرُّؤوس.

كان مضيق هدسون، الذي يفصلُ أراضي لابرادور عن جزيرة بافِن الشَّاسعة، مسدوداً كلِّيّاً بالجليد.

رأوا جبالاً عائمةً تنجرف مع التَّيَّار، تدفعُها الرِّياحُ القطبيَّة، وألواحَ جليدٍ عائمةً قرب السَّواحل أناختْ بها أعدادٌ كبيرةٌ من الطُّيور البحريَّة.

تحت حزمِ الضَّوء القويِّ المنبعثةِ من مصباح الرَّاديوم المتلألئ في قمَّة الصَّاري كانت ألواحُ الجليدِ تلك تلمعُ كألماساتٍ ضخمةٍ مُحدِثةً تأثيراً رائعاً ومُدهِشاً.

وقد أبقى المركبُ، المَقُودُ بمهارةٍ، على مسافةٍ بينه وبين تلك العوائق الطَّبيعيَّة الخطِرة.

كان يُبطئ حيناً، ثمَّ ما يلبث، عندما يُصادف فضاءً مفتوحاً أو قناةً، أن يزيد بشكلٍ كبيرٍ من سرعته. أحياناً كان يضربُ بعنفٍ ألواحَ الجليدِ بحيزومِه فيسحقها بفضلِ بعض الأذرع الفولاذيَّة المزوَّدة بأسنانٍ كأسنانِ المناشير، والتي تقومُ بعملها على جانبَي الجؤجؤ وتفتِّتُ في ثوانٍ قليلةٍ كتلَ الجليد.

"إنَّها سفينةُ جليدٍ حقيقيَّة" قالَ براندوك، وهو يتأمَّلُ المشهدَ بفضولٍ شديد. "كم من الاختراعات الخلَّابة رأينا!"

"ماذا ستقولان عندما تشاهدانها تتسلَّق الشَّاطئ وتجري على حقول الجليد في بافِن مثلَ سيَّارةٍ هائلة؟" قالَ هولكر.

"إنَّه لأمرٌ مدهشٌ ولا أحد في عصرنا اجترأ قطٌّ فأمَلَ في تحويل سفينةٍ إلى تِرامٍ" قالَ طوبي.

"كما أنَّها تخرج من الماء وتواصلُ مسيرَها دونما أدنى تغييرٍ في الظَّاهر، ودون أن تتعوَّق لحظةً واحدة؛ تصيرُ سيَّارةً بعدما كانت قارباً ثمَّ تعودُ قارباً مرَّةً أخرى بعدما صارت سيَّارةً ودائماً بخفَّةٍ وسرعةٍ منقطعتَي النَّظير" أضافَ هولكر. "أجل، إنَّها لَسَفينةٌ حقيقيَّةٌ مُذهلة".

"أودُّ أن أعرف كيف يحدث هذا التَّحوُّل" قالَ طوبي.

"بطريقةٍ بسيطةٍ للغاية" أجابَ هولكر. "ليس لهذا القارب سوى محرِّكٍ واحدٍ فقط يدورُ بالكهرباء، غير أنَّه قادرٌ على تحقيق غاياتٍ مختلفةٍ وإنتاج قوَّةٍ قابلةٍ للتَّطبيق بعدَّة طرق، للقيام بوظائف تتغيَّر باستمرار. وهكذا فعندما تدنو السَّفينة من الشَّاطئ فإنَّها تتلقَّى من المحرِّك كلَّ القوَّة التي يُصارُ إلى تجميعها على عجلتين موجودتين في الحيزوم ومخفيَّتين داخلَ تجويفين مفتوحين في الغاطس. حالما يبدأ الماء بالانحسار، تأخذ العجلتان، عبرَ آليَّةٍ خاصَّةٍ، بالهبوط وتبدأ بالدَّوران، في حين تتوقَّف الدَّواسر. في الكوثل كذلك ثمَّة عجلتان أُخرَيان تدوران بفضل جرِّهما بالقوَّة الدَّافعة لِتينك الأماميَّتين. وهكذا تتحوَّل السَّفينة، من دون حاجةٍ إلى القيام بمناوراتٍ شاقَّةٍ، إلى تِرامٍ هائلٍ يصعدُ إلى الشَّاطئ ويأخذُ في الزَّحفِ على الأرض ويستمرُّ في ذلك حتَّى يُصادف قناةً أو بحيرةً أو مضيقاً بحريَّاً. حينذاك تدخلُ العجلاتُ في تجاويفها، وتبدأ الدَّواسرُ بالعمل وهكذا يعودُ التِّرامُ قارباً. أليس الأمرُ برمَّته مُلهَماً؟"

"أهناك الكثير من هذه السُّفن؟"

"نعم، وخاصَّةً في أوروبَّا حيث توجد شواطئُ منخفضةٌ، كما في ألمانيا والدَّنمارك وأيرلندا وإيطاليا وهلمَّ جرَّاً".

"وهل تحافظ هذه القوارب على سرعتها حتَّى على اليابسة؟" سألَ براندوك.

"على السُّرعة ذاتِها،" أجابَ هولكر "وقوَّةُ قَطْرِها تعادل مِائةً وستِّين متراً في الدَّقيقة".

"في كلِّ مرَّةٍ اختراعٌ طريفٌ وكلُّ اختراعٍ هو أكثر روعةً وإذهالاً من الآخر. آه! طوبي!"

"ماذا لديك يا جيمس؟"

"أتعلم أنَّني، وسط هذا الجليد، لم أعدْ أشعرُ بتلك الانفعالات التي كانت تجعل عضلاتي تنتفض؟"

"ولا أنا" أجابَ الطَّبيب. "ومردُّ ذلك إلى كوننا بعيدين عن المدن الكبرى. هنا لا يمكن أن تشعر بالكهرباء كما كنت تشعر بها هناك أو عندَ شلَّالات نياجارا".

"إذا نحن لم نتمكَّن من تحمُّل التَّيَّارات الكهربائيَّة التي سنشعر بها بقوَّةٍ في المدن الأوروبِّيَّة الكبرى أيضاً، فسوف نلجأ إلى القطب".

"ونصير نحن أيضاً فوضويِّين" قالَ الطَّبيب، ضاحكاً.

أثناء ذلك كان القاربُ-التِّرامُ يواصلُ صراعَه المحمومَ ضدَّ الجليد في سبيل بلوغِ الشَّواطئ الجنوبيَّة لأرضِ بافِن، والتي بدأت تلوحُ بصورةٍ غامضةٍ بين غماماتِ الأفق.

جبالٌ جليديَّةٌ ضخمةٌ، يُقالُ لها جَباليد، كانت تظهر بين الفينةِ والأخرى، ماخرةً المحيطَ ومتمايلةً بخطورةٍ بين الأمواجِ، مُنذِرةً بالانهيار على السَّفينة الصَّغيرة. وكانت هذه الأخيرة بمناورةٍ سريعةٍ تتفاداها، مرتميةً وسط الصَّفائح الجليديَّة إذْ تعتليها باندفاعاتٍ هوجاء محطِّمةً إيَّاها تحت وزنها.

ما من سفينةٍ كانت تُرَى في عرض ذلك البحر. ولَمَّا كانت الحيتان قد اختفتْ وكذلك الفُقَم، فإنَّ تلك المياه كانت قد تحوَّلت إلى محضِ صحارى مائيَّة.

غير أنَّ الطُّيور البحريَّة وافرةً على الدَّوام كانت، بل إنَّها بدتْ أليفةً لدرجةِ أنَّها كانت تحطُّ بأعدادٍ كبيرةٍ على دهليز السَّفينة بلا جزَعٍ من حضور البحَّارة.

حوالي السَّاعة العاشرة صباحاً، بعد وجبة إفطارٍ سابغةٍ قدَّمها القبطان للرُّكَّاب، والتي كانت مُتضمَّنةً بالفِعل في ثمن التَّذكرة، وصلَ النَّرڤالُ(*)، ذلك كان اسمَ القارب، إلى الشَّواطئ الجنوبيَّة لأرضِ بافِن، وتحديداً إلى مدخلِ قناةٍ تشكَّلَتْ بين جُرفين شاهقين، تلُوحُ في نهايتها اليابسة وهي تتحدَّرُ بعذوبة.

ببضعِ ضرباتٍ من مَداكِّ السَّفينة شقَّتْ هذه طريقَها بين كتلِ الجليد التي كانت تسدُّ مدخلَ المَنْفَذ، ثمَّ راحت تتقدَّم بهوادةٍ إلى أن بدأ الماء ينحسر.

غادرَتِ العجلاتُ الأربع تجاويفَها، وانخفضتْ متأهِّبةً للبدء بالدَّوران.

---

*) حيوانٌ ثدييٌّ من رتبة الحيتانيَّات، من أسمائه العربيَّة التَّامور، وحريش البحر، وكركدن البحر، والحوت الوحيد القرن؛ (م).

"هي ذي تتحوَّلُ إلى تِرامٍ،" قالَ هولكر. "السَّفينة تغادرُ البحرَ لتدخلَ الأرضَ".

فجأةً مالَتِ النَّرقالُ، وأخذَتِ العجلتان الأماميَّتان في الدَّوران.

وفيما كان الكوثل ما يزالُ في الماء، كان الجؤجؤ يصعدُ الشَّاطئَ دونما اهتزازٍ ودونما عناء.

سُرعان ما أصبحت السَّفينة برمَّتها على اليابسة وانطلقتْ بسرعة خمسةٍ وثلاثين أو أربعين كيلومتراً في السَّاعة، كما لو كانت تِراماً كهربائيَّاً حقيقيَّاً، عابرةً مساراً حُدِّدَ جانباه بأوتادٍ سامِقات.

سهلٌ شاسعٌ، يكادُ يكون أجلحَ، مغطَّىً بطبقةٍ عاليةٍ من الجليد ومن الثَّلجِ الصَّائرِ جليداً، كان يمتدُّ على مدِّ البصر أمامَ الرَّحَّالة القطبيِّين.

تلك الأرض، وبالرَّغم من الرِّياح والأعاصير القطبيَّة التي تجتاحُها، لم تكن مُقفرةً كلِّيَّاً.

من وقتٍ إلى آخر، بفواصلَ زمنيَّةٍ طويلةٍ، كانت النَّرقالُ تمرُّ أمام تجمُّعاتٍ صغيرةٍ من البيوت الجليديَّة نصفِ البيضويَّة حيث تقطن آخرُ عوائل الإسكيمو التي نجَتْ بأعجوبةٍ من الموت جوعاً، بعد هلاكِ آخر الحيتان وآخر الفُقَم على أيدي الصَّيَّادين الأمريكيِّين الجشعين.

ما إن رأوا القاربَ يقترب حتَّى هرعوا خارجين من أكواخهم التماساً لبعض الكعك أو اللحم المعلَّب أو الحساء المركَّز.

كانوا على مِثالِ ما كانوه قبل مِائة عام. جذعٌ قصيرٌ وثخينٌ فوق ساقين قصيرتين وثخينتين، رأسٌ غليظةٌ بارزةُ العظمِ الوجنيِّ، وجهٌ عريضٌ، شعرٌ

أسود، وأنفٌ مسحوق؛ شَبَهٌ أكيدٌ إذاً بصديقاتهم الطَّيِّبات اللائي لم يعد لهنَّ وجودٌ آنذاك: الفُقْمات.

لسوء حظِّهم، لم يعودوا يقتاتون بلحوم فُقماتِهم كما كان الحال قبل قرنٍ من الزَّمن، لم يعودوا يتسربلون بفِرائها الدَّافئ، ولم يعودوا ينيرون أكواخهم بشحومها.

كان لديهم هم أيضاً فِلذاتُ راديوم، وبدلاً من رماح الصَّيد ذات الرُّؤوس العظميَّة كانوا يحملون في نِجادِهم بنادق كهربائيَّةً مُتقَنةَ الصُّنع يحصلون بها على قوتهم اليوميِّ مُوْقِعين المذابحَ بالطُّيور البحريَّة، هذه التي بقيت على الدَّوام كثيرةَ العدد بفضلِ الطَّبيعةِ السَّيِّئةِ للحومها، المدهنةِ للغاية بالنِّسبة إلى أحناك الأمريكيِّين والأوروبِّيِّين.

ولكنَّهم مهزولين كانوا وشاحبين، أولئك الشَّياطين البؤساء، بالرُّغم من أنَّ الجميع كان يعرف، آنذاك وقبلَ مِائة عامٍ، أيَّ شهيَّةٍ وهبها الله لهم، هُمُ سُكَّان الجليد الأبديِّ.

في الواقع، لم يكونوا يكشِّرون اشمئزازاً أمام سمكةٍ فاسدة، أو أمامَ طيورٍ متفسِّخةٍ تماماً، أو أمامَ أمعاءِ دبٍّ أبيض، أو حتَّى أمامَ الرَّوث أو البقايا غير المهضومة التي كانوا ينتزعونها من بطون أيائل الرَّنَّة المقتولة.

لقد فقدوا كذلك بشاشتهم التي كانت مضربَ المثل بعدما ولَّتْ إلى غير رجعةٍ ولائمُ لحم الحيتان المقدَّد!

من الواضح أنَّ هلاك تلك الثديِيَّات العملاقة كان هو بالضَّبط ما أدَّى إلى تغيُّرٍ عميقٍ في مزاجهم الذي كان في غاية الانشراح فيما مضى.

"هاك سلالةٌ أخرى تتّجه إلى الاختفاء أسوةً بالهنود الحُمر" قالَ براندوك الذي كان قد خرجَ عدَّة مرَّاتٍ من دهليز السَّفينة ليرمي إلى أولئك المنكودين بالعديد من سِلالِ الكعك التي ابتاعها من موزِّع النَّرقال. "كم سنةً ستستمرُّ بعدُ يا تُرى؟"

"بضع خمسيَّاتٍ بالتَّأكيد" أجابَ هولكر. "ليسوا أناساً قادرين على أخذ دورهم في الصِّراع الكبير من أجل الوجود. بعد اختفاء الفُقَم والحيتان بماذا سيقتاتون؟ لولا العون الذي يقدِّمه لهم المسافرون إلى القطب، لكانوا الآن كلُّهم في عِداد البائدين".

"ولكنْ ثمَّة مستعمرةٌ قطبيَّةٌ هناك، كما قلتَ لي".

"أولئك قومٌ ينتمون إلى عِرْقنا" أجابَ هولكر.

"هي ذي أنانيَّة العِرق الأبيض!..."

"بصراحةٍ لا أستطيع لومَك".

"نحن، دائماً نحن، نحن هو العِرق الوحيد الذي يريدُ الهيمنة على العالَم".

"إنَّه الصِّراع من أجل الحياة، يا سيِّد براندوك".

"بل هو بالأحرى صِراعُ الأعراق".

"كما يحلو لك" أجابَ هولكر. "لقد بدأ يحلُّ الظَّلام. كم هي قصيرةٌ النَّهاراتُ في هذا الفصل على الأراضي القطبيَّة! ها هي الشَّمس تغيب وما تزال السَّاعةُ تشير إلى الثَّالثة ظهراً!"

"متى سنستقلُّ القطارَ القطبيَّ؟" سألَ طوبي، بنفادِ صبرٍ بَيِّنٍ.

"مساءَ غدٍ".

"يمكننا الآن أن نتعشّى ونستلقي. لا بدَّ وأنَّ هناك مقصوراتٍ في هذا القارب".

"وهي مدفَّأةٌ جيِّداً، ومع سريرٍ وثير. شركة الخطوط الحديديَّة القطبيَّة لا تقتِّرُ على المسافرين في وسائل الرَّاحة. هلمَّا، يا صديقيَّ، فلنذهب الآن إلى قاعة الطَّعام".

غادروا الدِّهليز ونزلوا إلى قاعةٍ خلَّابةٍ مُضاءَةٍ بأربعة مصابيح راديوم كبيرة كانت تُشيعُ هناك دفئاً مُستعذَباً.

جلسوا إلى طاولةٍ نُضِّدَتْ عليها، إلى جانب الفضِّيَّات، كؤوسٌ من الكريستال مليئةٌ بزهورٍ محفوظةٍ بشكلٍ رائعٍ، مُجتناةٍ على الأرجح من بيوت كِيبك الزُّجاجيَّة.

كانت طبيعةُ العشاء قطبيَّةً بحقٍّ. سمكُ سَلمونٍ، فيليه حريش البحر، كبدُ الوعلِ الأحمرِ، فَخِذُ الرَّنَّة مع الرَّشاد المزروع، فطيرةُ كبد الفظِّ، مثلَّجاتٌ، ومشروباتٌ روحيَّةٌ حسب الرَّغبة، مع شايٍ وقهوةٍ اختياريَّين.

"على الأقلِّ لدينا حيواناتٌ مَصِيدةٌ هنا" قالَ براندوك. "إنَّه طبقٌ تَرِفٌ للغاية بمقاييس اليوم، أليس كذلك يا سيِّد هولكر؟"

"بل قلْ إنَّه نادرٌ للغاية، حتَّى في المدن الكبرى! ما تزال تعيش هنا بعض قطعان الرَّنَّة وكذلك بعض الوعول وحيوانات الفظِّ. في غضون سنواتٍ معدودةٍ ستريان أنَّ تلك الحيوانات البرِّيَّة والبرمائيَّة قد انقرضتْ كلِّيَّاً".

بشهيَّةٍ كبيرةٍ تناولوا عشاءَهم وعندَ السَّاعة الخامسة، فيما كان ضبابٌ كثيفٌ يهبط في الخارج على سهول الجليد، جرجروا خُطاهم إلى مقصوراتهم حيث وجدوا في انتظارهم أسِرَّةً وثيرةً لم تكن أدنى شأناً من تلك التي في منزل السَّيِّد هولكر.

النَّفقُ القطبيُّ

كانوا هُجُوعاً منذ عدَّة ساعاتٍ، عندما استفاقوا فجأةً على وقعِ اصطدامٍ عنيفٍ إلى حدٍّ ما، ارتدَّ مِن إثره هيكلُ القاربِ-التِّرامِ بأكملِه، وعلى صيحاتِ الطَّاقِم.

وحيث إنَّ مصابيح الرَّاديوم كانت قد بقيت مُضاءَةً، وجدَ براندوك وهولكر وطوبي أنفسَهم مجتمعِين، في نفس الوقتِ تقريباً، داخلَ القاعة حيث تناولوا قبل ساعاتِ عشاءَهم وحيث احتشدَ بقيَّة المسافرين.

"أخبرْنا يا سيِّد هولكر،" قالَ براندوك بعدما رآه يتبادلُ بعض العِبارات مع الضَّابط الذي نزلَ إلى القاعة "ما الذي حدث؟"

"ليس بالخطب الجلل، اطمئنَّا" أجابَ النيويوركيُّ بصوتٍ هادئٍ. "لقد اصطدم القاربُ بكتلة جليدٍ ضخمةٍ حالَ الضَّبابُ دون رؤيتها وكانت تسدُّ الطَّريق".

"لن يستطيع المضيَّ أبعدَ مِن هنا إذاً؟"

"نعم، إلى أن يُزالَ العائق. لن تكون سوى مسألةِ تأخيرٍ لبضع ساعات. فلنصعد إلى سطح الدِّهليز وننظر ماذا يجري".

كتلةٌ ضخمةٌ لا بدَّ وأنَّها انفصلت عن جبلٍ جليديٍّ كانت قد تدحرجت،

ما إنْ بلَغَتِ النَّرقالُ مجموعةً من الهُضَيبات الشَّديدة الانحدار، وصولاً إلى المسار المحدَّدِ بالأوتاد حيث توقَّفت عن التَّدحرج فجأةً.

الطَّاقمُ بأكمله، مزوَّداً بمصابيحَ وبفؤوس، كان قد بدأ العملَ على تفتيتها بمساعدة نحوِ عشرين رجلاً من الإسكيمو هرعوا على الفورِ من قريةٍ مجاورة.

"لو أنَّ هذه الكتلة هوَتْ لحظةَ مرور القارب، لكنَّا الآنَ طبقاً مقليّاً" قالَ براندوك. "لكانت سحقَتْهُ مثلَ بُندُقة".

"إنَّها حالاتٌ نادرةٌ نوعاً ما، إذْ لا يوجد سوى القليل من التِّلال في هذه الجزيرة" أجابَ هولكر. "لم أسمع قطُّ أنَّ أحد هذه القوارب قد سُحِق".

"أين نحن الآن؟"

"إنَّنا على بُعدِ مِائتي ميلٍ عن محطَّةِ البحيرة".

"أيُّها السَّادة" قالَ في تلك اللحظة القبطان وقد صعدَ إلى متن السَّفينة. "سننهمك لثلاث ساعاتٍ في هذا الأمر. إذا أردتم انتهاز الفرصةِ لزيارة قريةِ قبيلةِ ناز-تُو، إحدى قبائل الإسكيمو، الموجودة على مقربةٍ من هنا، فسيكون لديكم ما يكفي من الوقت للقيام بذلك. لطالما كانت زيارةُ سكَّانِ القطب أمراً شائقاً للسَّائح. سأضع تحت تصرُّفكم أحدَ البحَّارة مع مصباحَين".

"فلننتهز الفرصةَ إذاً" قالَ براندوك. "فأنا لم أزر المناطق القطبيَّة مِن قبلُ أبداً".

وقد لاقى الاقتراحُ على الفورِ استحسانَ بقيَّةِ المسافرين، ففي غضون بضع دقائق غادرَتِ الزُّمرةُ السَّفينةَ يتقدَّمُها بحَّارٌ ينيرُ الطَّريق بمصباحَي راديوم.

كان البردُ قارساً للغايةِ في الخارج، وضبابةٌ ثقيلةٌ، كثيفةٌ لدرجةِ أنَّ ضوء المصباحين بالكادِ كان قادراً على تخفيفها، كانت تخيِّمُ على سهول الجليد، وكانت ريحٌ عاتيةٌ تهبُّ من القطب.

"هل زرتَ هذا المكان مِن قبلُ، يا سيِّد هولكر؟" سألَ براندوك.

"لقد سبقَ أن أتيتُ القطبَ مرَّتين".

"لكَ معرفةٌ بالإسكيمو إذاً؟"

"إلى حدٍّ بعيد".

"ما الخطوات المتقدِّمة التي خطَوها خلال المِائةِ سنةٍ هذه؟"

"لا شيء: لقد بقوا على ما وجدَهم مُستكشفو القرن الماضي عليه. إنَّهم قومٌ عاجزون عن التَّمدُّن، ولذلك سينتهون همُ أيضاً إلى الاندثار. لقد أخبرتكما من قبلُ أنَّ تعدادَهم شهدَ انحداراً كبيراً بعدَ هلاك الحيتان والفُقَمِ والفِظاظ".

"هل ما زالوا يعيشون في أكواخ الجليد؟" سألَ طوبي.

"نعم، يا خالي، والتَّحسُّن الوحيد الذي أدخلوه هو أن استبدلوا بمصباح الزَّيت القديم والدَّاخن مصباحَ الرَّاديوم الذي يمنحهم الضَّوء والدِّفء على نحوٍ أفضل. ها قد وصلنا؛ أتريدان أن نزور أحد تلك الأكواخ؟ سُدَّا أنفيكما وتحلَّيا بالشَّجاعة".

كانوا قد وصلوا إلى مدخل القرية، تلك التي كانت مكوَّنةً من نصفِ دزِّينةٍ من المساكن نصف الكرويَّةِ المشكَّلةِ من جلاميدَ جليديَّةٍ

منضّدةِ فوق بعضها بترتيبِ معيّنٍ، مع وجودِ نفقٍ صغيرٍ يُفضي إلى باب المدخل.

أمّا من الدّاخل، فقد كانت كلُّ تلك المساكن مُضاءَةً، ما جعلَها تتلألأ في الضّباب كما لو كانت قطعَ ألماسٍ ضخمة، بما أنّهم كانوا يحافظون دوماً على الجليد مجلوّاً من الثُّلوج التي تتراكم عليه.

كان هولكر على وشك الدُّخول في واحدٍ من تلك الأنفاق الخفيضة والضّيّقة التي لم يكن من الممكن التّقدُّم فيها إلّا زحفاً، عندما أوقفه رجلٌ من الإسكيمو كان يتبعُهم، هاتفاً:

"*آجا-آجا-مانتوك*".

"ماذا يعني هذا؟" سألَ براندوك.

"لقد فهمت" قالَ هولكر. "إنّه ضريحٌ، حيث يموت الآن بهدوءٍ أحدُ أفراد القبيلة. دعونا لا ننغّص عليه احتضارَه".

"ماذا؟! هناك في الدّاخل ثمّة رجلٌ يُحتَضَر؟" هتفَ براندوك.

"نعم، ووحيداً. لا بدّ وأن يكون المدخلُ قد رُدِمَ بالفِعل".

"أهو مدفونٌ حيّاً إذاً؟"

"لن يدومَ الأمرُ طويلاً" أجابَ هولكر. "فإذا لم يُرديه المرضُ قريباً، تكفّل الجوعُ بإرساله إلى فردوس الإسكيمو".

"هلّا تشرحُ أكثر، يا حفيدي العزيز" قالَ طوبي. "لماذا دفنوه حيّاً؟"

"لأنَّه حُكِمَ عليه بأنَّه لا أمل في شفائه. فهنا، عندما يُصابُ رجلٌ أو امرأةٌ بمرضٍ ما، فإنَّهم يحاولون علاجهما بالسِّحر أوَّلاً، مُوَلوِلين ومهرولين حول الكوخ، وقد وضعوا بجوار العليل حجراً بوزن كيلوغرامَين أو ثلاثة، وفقاً لشدَّة المرض، حيث تزنه كلَّ صباحٍ المرأة الأكبر سنَّاً في القبيلة أو *الأنجكوك*، وهو ضربٌ من المشعوذين. فإذا لم ينقص وزنُ الحجر، دلَّ ذلك على أنَّ المريض فاقدٌ كلَّ أملٍ في الخلاص. حينذاك، يبنون له كوخاً جليديَّاً جديداً في بقعةٍ لا تبعدُ كثيراً، يمدُّون فيه الجلود، ويضعون إبريق ماءٍ ومصباحاً. يُحمَل مِن ثَمَّ المريضُ إلى مدفنِه ويُمَدَّدُ على السَّرير. الأخوةُ، والأخواتُ، والزَّوجةُ، والأبناءُ، والأقرباء يأتون ليقدِّموا له تحيَّتهم الأخيرة، ولا يطيلون المكث أكثر من اللازم، لأنَّه إذا ما باغتَ الموتُ المريضَ، كان لِزاماً على الزَّائرين عندئذٍ أن يخلعوا ملابسَهم ويرموها بعيداً، وهي خسارةٌ لا يمكن الاستخفاف بها في مثل هذه المناخات. بعد ذلك، يغلقون نفقَ المدخلِ بجلاميد الجليد ويتركون المريض ينطفئ وحيداً".

"وهكذا يستسلم أولئك للحبس دونما اعتراض؟"

"بل إنَّهم هم مَن يستجدي الأهلَ أن يحملوهم إلى الكوخ الذي لن يغادروه بعد دخولِه أبداً. أكثر من مرَّةٍ شقَّ المسافرون إلى المستعمرات القطبيَّة، وقد أخذ منهم الرُّعبُ ممَّا يجري في تلك الأكواخ الجنائزيَّة كلَّ مأخذ، طريقَهم عنوةً إلى الدَّاخل ليُخرِجوا المحتضرَ وكانوا في كلِّ مرَّةٍ يتلقَّون هذا التَّوبيخ: "مَن هذا الذي جاء لينغِّص عليَّ احتضاري؟ ألا يمكن للمرء هنا أن يموت في سلام؟"".

"وهل ما زالوا يفعلون ذلك؟" قالَ طوبي.

"سوف تريان".

"أتُراه أسلمَ الرُّوحَ الرَّجلُ الموجودُ في ذلك الكوخ؟"

"ربمَّا كان ما يزال على قيد الحياة؛ فلنحترم إرادتَه ونتركه في سلام، لئلاَّ نجلب على أنفسنا غضبَ أقربائه".

مَرُّوا بكوخٍ آخرَ أكثر رحابةً وأفضلَ إضاءةً، وبعد أن دخلوا في الممرِّ الضَّيِّق وجدوا أنفسَهم في فضاءِ المسكن الدَّاخليِّ.

كان هناك امرأتان متلفِّعتان بفراءٍ قديمٍ بالٍ ونصفُ دزِّينةٍ من أطفالٍ شبهِ عُراة، إذْ كان الدِّفء في الدَّاخل خانقاً. إحدى المرأتين كانت تمضغ زوجاً من الأحذية الطَّويلة المصنوعة من جلدِ الفظِّ كان قد تصلَّبَ من الصَّقيع وكانت هي تحاول تليينَه بأضراسها القويَّة، فيما كانت الأخرى مشغولةً بإعداد الوجبة.

رائحةٌ مثيرةٌ للغثيان سادَتْ في ذلك المسكن الصَّغير، حيث تُرِكَتْ بعض الثَّعالب والأسماك تتفسَّخ كيما تصيرَ لحومُها أكثر استساغةً لأحناك الإسكيمو.

"لقد نلتُ كفايتي" قالَ براندوك وقد شعرَ بالاختناق. "سكَّان القطب الطِّيِّبون هؤلاء لم يخطوا خطوةً واحدةً إلى الأمام منذ قرنٍ وحتَّى اليوم".

ألقوا إلى الفِتيةِ ببضع حفناتٍ من البسكويت وأقفلوا عائدين سِراعاً إلى الهواء الطَّلق، حيث كان بحَّارُ النَّرقال في انتظارهم مع بقيَّة المسافرين الذين أظهرَتْ ملامحُهم أنَّهم نالوا الكثيرَ أيضاً ممَّا رأوه في تلك الزِّيارة. بعد ربع ساعةٍ من ذلك كانوا يدخلون من جديدٍ في دهليز السَّفينة، سعداءَ بأنَّهم باتوا في منجىً من البرد والضَّباب.

لم تكن كتلة الجليد الضَّخمة قد فُتِّتَتْ كلِّيَّاً بعدُ، ولكن لم يكن قد بقيَ منها إلَّا القليل.

خرطوشةٌ ملأى بمادَّةٍ متفجِّرةٍ قويَّةٍ تكفَّلتْ بدكِّ ما تبقَّى، فاستأنفتِ النَّرْقالُ مسيرَها قرابةَ السَّاعة الثَّامنة، بسرعةٍ لافتةٍ للنَّظر بما أنَّ السَّهل كان مستوياً بالكامل تقريباً.

خلال النَّهار، استمرَّتْ في مُضِيِّها من دون حوادث تستحقُّ الذِّكر، وبحلول السَّاعة الخامسة كان براندوك يشيرُ إلى حزمةِ ضوءٍ كبيرةٍ اخترقَتِ الضَّباب.

"إنَّها محطَّة نِتِّيلِّينج" قالَ هولكر. "في غضون دقائق معدودةٍ سنصعدُ التِّرامَ الكهربائيَّ الذي سيحملنا إلى القطب الشَّماليِّ".

لم يمضِ ربعُ السَّاعةِ حتَّى كانت النَّرقال تدخلُ عنبراً هائلاً مسقوفاً ومضاءً بعددٍ كبيرٍ من المصابيح حيث كان يتحرَّك جيئةً وذهاباً العديدُ من الأشخاص الذين كان من السَّهل أن يحسبهم المرءُ حيواناتٍ قطبيَّة.

على مقربةٍ من هناك ارتفعَ عالياً بناءٌ خشبيٌّ كانت تصدرُ منه صَرَّاتٌ كئيبةٌ كما لو كانت لآلاتٍ ثقيلةٍ تعمل.

أمَّا في البعيد فكان يُلمَحُ صفٌّ طويلٌ من مصابيحَ كانت تُلقي ضوءاً مختلفاً نوعاً ما عن ذلك الذي لمصابيح الرَّاديوم. كان وهجاً غريباً كما لو أنَّ صفائح الجليد كانت تلمع.

"ماذا يوجد هناك؟" سألَ براندوك وطوبي.

"إنَّه النَّفق العظيم الذي يقودُ إلى القطب" أجابَ هولكر. "أعجوبةٌ من أعظم أعاجيب قرننا".

"أنشأتم نفقاً يقودُ إلى القطب!" هتفَ الطَّبيب.

"كيف كنتَ تريدُ أن نصلَ إلى هناك؟ بواسطة السُّفن؟ أنتَ تعلم أنَّه حتَّى في عصركم باءت كلُّ تلك المحاولات بالفشل. الفكرة العظيمة المتمثِّلة في بلوغ القطب عبرَ نفقٍ إنَّما ندين بها إلى مهندسٍ من مواطنينا. يبدأ النَّفق من الشَّاطئ الشَّماليِّ لهذه البحيرة، ويمرُّ عبر أرضِ بافِن، مُجتازاً مضيقَ لانكستر الذي، كما تعلم، لا يذوب جليدُه أبداً، ولا حتَّى في الصَّيف، ثمَّ جزيرةَ ديفون، فجزيرةِ لينكولن، فجزيرةِ إليسمير، انتهاءً بجزيرةِ غرانت حيث يبلغُ القطبَ تحت خطِّ الطُّول الذي درجتُه ٨٨°".

"ممَّ تمَّ إنشاء ذلك النَّفق؟" سألَ براندوك الذي لم يعُدْ لدهشته حدود.

"من مادَّةٍ موجودةٍ في المكانِ نفسِهِ ولم تكلِّفهم ولا حتَّى دولاراً واحداً". أجابَ هولكر.

"من الجليد؟" قالَ طوبي.

"بالضَّبط، إنَّها مادَّةٌ رخيصة، مدعَّمةٌ بخليطٍ ملحيٍّ لإعطاء اللَّبِناتِ أقصى ما يمكن من التَّماسُك. عرضُ النَّفق إحدى عشرة قدماً، وارتفاعه ثمانٍ، مع جدرانٍ بثخانةِ مترين، مبنيَّةٍ من لَبِناتٍ جليديَّةٍ طولُ كلٍّ منها قدمان وعرضها نصف قدم. أمَّا في الشَّكل فإنَّه يشبه قوساً تامَّةً وهو مُضاءٌ بالإنارة الكهربائيَّة لكيلا تذوب الجدران كما كان من الممكن أن يحصل لو إنَّ الإنارةَ كانت بالرَّاديوم".

"ما المدَّة التي استغرقها إنشاؤه؟" سألَ طوبي.

"ليس أكثر من سبعة أشهر، بجهود أربعمائة عاملٍ فقط. لا أعتقد أنَّ كلفته تجاوزتْ مائتي ألف دولار".

"ألا يذوب؟"

"من المستحيل، فهو يعبرُ منطقةً حيث لا يسجِّلُ المقياسُ الحراريُّ أبداً، حتَّى في حزيران وتمُّوز، أكثر من ثلاث أو أربع درجاتٍ تحت الصِّفر. في واقع الحال، لمدَّة أربعة عشر عاماً، ومنذ بدأ يؤدِّي مهمَّته، لم تنهَرْ أيُّ قنطرةٍ منه على الإطلاق".

"ومَن سيقودُنا إلى القطب؟"

"عربةٌ كهربائيَّةٌ ذاتُ أبعادٍ استثنائيَّةٍ تنزلق على قضبان. هنا في هذه المحطَّة ثمَّة مَكَناتٌ قويَّةٌ ومولِّدٌ جبَّارٌ، وفي القطب أيضاً ثمَّة مثلُها وبنفس القوَّة".

"وهل ينتهي النَّفق في القطب؟" سألَ براندوك.

"لا يا سيِّدي. فالرُّوس والبريطانيُّون شيَّدوا نفقاً آخر يبدأ من المستعمرة القطبيَّة وينتهي شمالي سبيتسبرغن. ولكنْ يحدث من وقتٍ إلى آخر أنْ ينهارَ عندَ المخرَج لأنَّ البردَ لا يكون على الدَّوام شديداً في تلك الجُزُر. بيدَ أنَّ أعمال التَّرميم ليست بتلك الصُّعوبة".

"ها براندوك،" قالَ طوبي "ما قولك في ذلك؟"

"إنَّني ما أزالُ أحلم" أجابَ الشَّاب.

"فلننزل ولنأخذ أماكننا على متن التِّرام الكهربائي" قالَ هولكر. "سنتناول وجبة إفطارنا هناك في الدَّاخل".

في نهاية العنبر المسقوف توقَّفتْ عربةٌ ضخمةٌ، طولُها يزيد على العشرين متراً، وعرضُها على المترين والنِّصف، مُحاطةٌ بالكامل بألواحٍ زجاجيَّةٍ ذاتِ ثخانةٍ لافتةٍ للنَّظر، ومحصَّنةٌ من الأعلى بما يشبه قفصاً فولاذيَّاً مُعَدَّاً بلا شكٍّ لحمايتها من سقوط بعض الجلاميد التي قد تنفصلُ عن قبَّةِ النَّفق.

ثلاثة مصابيح راديوم عالية القدرة كانت تضيئه، أو بتعبيرٍ آخرَ كانت تغمره بالضَّوء.

كان الفضاءُ الدَّاخليُّ مقسَّماً إلى خمس مقصوراتٍ: غرفةُ طعامٍ، حمَّامٌ جوَّانيٌّ، غرفةُ نومٍ، غرفةُ ألعابٍ ومُطالعة، ومطبخٌ صغير.

سجاجيدُ كبيرةٌ من اللُّبود فُرِشَتْ على الأرضيَّة وزرابيٌّ فروٍ غطَّتِ الأرائكَ القابلةَ للطَّيِّ التي تُستخدَم أيضاً كأسِرَّة.

"ما أطيبَ المقامَ هنا!" هتفَ براندوك متخلِّصاً من معطف الفرو وداخلاً غرفةَ الطَّعام حيثٍ كان المسافرون الألمان والإنجليز الذين رافقوهم على متن النَّرقّال قد اتَّخذوا بالفِعل مجلسَهم. "ما أعذب هذا الدِّفء! لا يمكن القول إنَّ المقياسَ الحراريَّ في الخارج يشيرُ إلى ٢٢° تحت الصِّفر".

"وكم هي أنيقةٌ هذه المقاصير!" قالَ طوبي الذي كان قد جالَ عليها كلِّها.

"متى نصلُ إلى القطب، يا سيِّد هولكر؟" سألَ براندوك.

"ليس قبل التَّاسعة من صباح الغد".

"مع شروق الشَّمس؟"

"تحدِّثني عن الشَّمس في هذا الفصل؟! إنَّها غائبةٌ منذ أحد عشر يوماً، وليلٌ تامٌّ يخيِّم على القطب الآن، حتَّى في منتصف النَّهار".

"هذا صحيح: لقد نسيتُ أنَّنا في أواخر الخريف".

"هيَّا إلى المائدة، يا صاحبيَّ، ولنخذْ حذوَ رفقائنا في السَّفر".

جلسوا إلى إحدى الموائد السِّتِّ الصَّغيرة التي احتلَّت الغرفة وقدَّموا لأنفسهم وجبةً وفيرةً وشهيَّةً أعدَّها طاهي التِّرامِ القطبيِّ، وجبةً كانت تتكوَّن في معظمها من أطباق سمكٍ فاخرة، مطبوخةٍ بطرقٍ مختلفة، راحوا يشربون معها نبيذاً أبيضَ مُزّاً من أفخر أنبذةِ كاليفورنيا وألذِّها مذاقاً.

كانت العربة في تلك الأثناء قد غادرَتْ بالفِعل بسرعةِ مِائةٍ وخمسين كيلومتراً في السَّاعة، مندفعةً داخل النَّفق القطبيِّ.

ذلك النَّفق المشيَّد كلِّيَّاً بلِبناتٍ من الجليدِ المدعَّمِ بخليطٍ ملحيٍّ، كان رائعاً بحق.

كلَّ خمسمائة خطوةٍ كان يضيئه مصباحٌ كهربائيٌّ باستطاعة ثلاثمائة أو أربعمائة شمعة، جاعلاً الجدران تتلألأ في مشهدٍ بديع، وكلَّ عشرين كيلومتراً كان ثمَّة منفذٌ جانبيٌّ تُلمَحُ من خلاله بيوتٌ خشبيَّةٌ يُقيم فيها خُفراءُ الخطِّ.

"رائعٌ! رائع!" طفق براندوك يردِّد، وقد جلسَ بجوار الذِّراع الموجِّه يدخِّن سيجاراً فاخراً من ماركة هافانا. "إنَّها أعظم فكرةٍ أتى بها رجالُ الألفيَّة الثَّالثة".

"هذا ما أظنُّه أنا أيضاً، يا سيِّد براندوك" عقَّب هولكر الذي انضمَّ إليه، فيما بقي طوبي يلعبُ الوِسْت مع اثنين من الإنجليز.

"أليس هناك خطرٌ من أن تقع كارثةٌ ما ذاتَ مرَّة؟ لنفترض أنَّ الجليدَ هارَ في موضعٍ ما أو تفتَّتَ بسبب الضَّغط، أو أنَّ جزءاً من النَّفق تصدَّع. كيف يمكن لهذه العربة المندفعة في مثل هذه السُّرعة أن تتجنَّبَ الكارثة؟"

"ببساطةٍ: بأن تتوقَّف" قالَ هولكر ضاحكاً.

"لا أظنُّ ذلك ممكناً عندما يقع الأمرُ فجأةً؛ لن يكون هناك وقتٌ لذلك".

"ولكن بإمكان الذِّراع الموجِّه أن يوقفها قبل ذلك بكثيرٍ إذا ما تعرَّض الخطُّ لانصداعٍ من شأنه أن يؤدِّي إلى كارثة".

"وكيف يتمُّ ذلك؟"

"لدينا أمامَنا آلة توجيهِ تسبقنا بخمسة كيلومتراتٍ وتسير بنفس السُّرعة التي تسير بها عربتنا".

نظر إليه براندوك كما لو أنَّه لم يفهم.

"يا سيِّدي العزيز،" تابعَ هولكر قائلاً "لقد قدَّرَ بناةُ هذا الخطِّ المخاطرَ الكبيرة التي يمكن أن تهدِّد المسافرين بسبب الضَّغط والجليد على وجه التَّحديد، والتي تطفو في كثيرٍ من المواضع على سطح المحيط، ولذلك عملوا دونما إبطاءٍ على اجتنابها".

"إنَّه لشيءٌ في غاية الصُّعوبة كما يبدو لي".

"ربَّما هو كذلك بالنِّسبة إلى رجال القرن العشرين، أمَّا بالنِّسبة إلى رجال الألفيَّة الثَّالثة فالأمرُ ليس كذلك". قالَ هولكر.

"وما الذي فكَّروا في القيام به؟"

"أن يجعلوا أمامَ العربةِ بمسافةٍ مركبةً تقومُ بدورِ الموجِّه".

"مركبةً فارغةً؟"

"نعم، يا سيِّد براندوك، فارغةً وموصولةً إلى العربة بواسطةِ سلكٍ كهربائيٍّ. لنفترضْ الآن أنَّ تلك المركبة التي تشبه، بعتادِها من الأسلاك الكهربائيَّة، المجسَّاتِ التي تساعدُ الأسماك العمياء على تلمُّس طريقها في الأعماق السَّحيقة أو في الكهوف البحريَّة، توشك أن تصطدم بعائقٍ ما أو أن تهوي في صدعٍ انفتحَ في كتلِ الجليد الدَّاعمةِ للنَّفق؛ في الحالِ يُنقَلُ أثرُ الصَّدمةِ إلى ذراع عربتنا الموجِّه الذي، ما إن يتنبَّه بآليَّةِ القدْح، حتَّى يُسارع إلى التَّوقُّف. وعلى غرارِ هذا يتمُّ اجتنابُ أيِّ خطرٍ من الأخطار. وعلى الأثرِ يتمُّ إخطارُ الرِّجالِ المكلَّفين بإصلاح النَّفق، فيُصارُ إلى نقلهم إلى الموقع الذي وقع فيه الانهيارُ أو الانزلاق ويقومون بإزالةِ الأضرار وإعادة النَّفق إلى حالته الأولى. تستطيع إذاً، يا سيِّد براندوك، أن تسافرَ مرتاحَ البالِ دونما خوفٍ من أيَّة كارثة".

"إنَّها لَوسيلةٌ مبتكَرةٌ بِحَقٍّ" قالَ الشَّاب.

"وآمنةٌ، قبل كلِّ شيء" عقَّبَ هولكر. "فلنمضِ الآن إلى الفراش، يا سيِّد براندوك. هكذا سيمرُّ الوقتُ سريعاً وعندما نفتح أعيننا نكون قد صرنا بين فوضويِّي المستعمرة القطبيَّة".

المُستعمَرة القطبيَّة

رجَّةٌ عنيفةٌ إلى حدٍّ ما، متبوعةٌ برنين أجراسٍ كهربائيَّةٍ وبصوتٍ حادٍّ نوعاً ما، أيقظت الرُّكَّاب في صبيحة اليوم التَّالي، جاعلةً إيَّاهم يغادرون سِراعاً أسرَّتهم المريحة.

كانت العربة، بعد رحلةٍ سريعةٍ جدَّاً استمرَّت طيلة الليل، قد وصلت إلى محطَّةِ قطارات القطب الشَّمالي، وتوقَّفت تحت سقف عنبرٍ خشبيٍّ طويلٍ للغاية، موصَدٍ في نهاياته ببوَّاباتٍ زجاجيَّةٍ ضخمةٍ ومُضاءٍ بعددٍ كبيرٍ من المصابيح الكهربائيَّة.

وكان العديد من الرِّجال الطَّويلي اللحى، والمتلفِّعين بجلود الدِّببة البيضاء، قد تجمَّعوا حول التِّرام متحدِّثين بعدَّةِ لغات: الإسبانيَّة، والرُّوسيَّة، والإنجليزيَّة، والألمانيَّة، وحتَّى الإيطاليَّة.

كان الجميع تقريباً يدخِّن غلايينَ كبيرةً من الخزف، نافثاً في الهواء غيومَ دخانٍ حقيقيَّةً.

"لقد وصلنا إلى القطب، يا صاحبيَّ" قالَ هولكر هامَّاً بحمل الأمتعة.

"ومَن هؤلاء الرِّجال الذين ينظرون إلينا شزراً؟" سألَ طوبي.

"إنَّهم فوضويُّون خطِرون جيء بهم من جميع أنحاء العالم وحُكِمَ عليهم بأن يُكمِلوا حياتهم هنا".

"أيُّ حياةٍ حزينةٍ هذه التي عليهم النُّهوضُ بها وسط هذه الثُّلوج!"

"إنَّها أقلُّ حزناً ممَّا تظنُّ، يا خالي" أجابَ هولكر. "كلُّ ربِّ أسرةٍ يمتلك كوخاً خشبيَّاً مقدَّماً من حكومتِه ومُدفَّأً جيِّداً بمصباحِ راديوم. إنَّهم يقضون حياتهم في صيد حيوانات البرِّ والبحر ولا يقومون بتهريب الفراء. ثمَّ إنَّهم يحصلون من وقتٍ إلى آخر على المؤن والتَّبغ. ليس محظوراً عليهم إلَّا الخمور".

"ولا يتمرَّدون أبداً؟"

"تُبقي الحكوماتُ هنا على دزِّينتين من رجال الإطفاء لردعِ جماحِهم، والماء دائماً ما يكون متأهِّباً داخلَ المضخَّات. لقد سبق أن أخبرتكما كيف تَصعقُ تلك المياه، وأيَّ رعبٍ تبثُّه في نفوس الجميع".

"وهل هم كثيرون هنا هؤلاء الفوضويُّون؟"

"حوالي الألف، وكلُّ واحدٍ تقريباً لديه امرأةٌ بصحبتِه".

"وماذا عن الأبناء الذين يولَدون هنا؟"

"يتمُّ إرسالُهم إلى أوروبَّا وأمريكا ليتعلَّموا ويتثقَّفوا وليجعلوا منهم مِن ثمَّ مواطنين مُنتِجين. هلمَّا بنا الآن إلى فندق "الرَّونق القطبيِّ". إنَّه الوحيد الموجود هنا وليست الإقامة فيه بسيِّئة".

خرجوا من العنبر المسقوف ووجدوا أنفسَهم أمامَ العديد من الزَّحَّافات التي تجرُّها كلابُ الإسكيمو، ويقودُها رجالٌ بدَوا وكأنَّهم دِبابٌ بحريَّة.

ركبوا إحدى الزَّحَّافات وانطلقوا بسرعةٍ عبرَ شوارع القرية القطبيَّة التي كانت مغطَّاةً بطبقةٍ هائلةٍ من الثَّلج.

تلك الشَّوارعُ فسيحةً كانت، تضيئها مصابيحُ كهربائيَّة، نظراً إلى أنَّ الليلَ القطبيَّ الطَّويلَ كان قد بدأ منذ عدَّة أيَّام، وتحفُّها على الجانبين بيوتٌ خشبيَّةٌ من طابقٍ واحدٍ، نصفُ مغطَّاةٍ بالثَّلج. جبالٌ جليديَّةٌ ضخمةٌ نهضَتْ حولَ البلدة وكانت تكسِّرُ أضواءَ المصابيح مُحْدِثةً تأثيراتٍ رائعة. بدا وكأنَّ تلك البيوت كانت معشَّقةً بقطع ألماسٍ عملاقة. وعلى الرَّغم من أنَّ البردَ كان شديداً جدَّاً لدرجةٍ كانت معها عمليَّةُ التَّنفُّس نفسُها أمراً مؤلماً، كان العديد من السُّكَّان يسيرون في الشَّوارع وهم يدردشون بحماسٍ، كما لو كانوا يسيرون في إحدى جادَّات باريس أو في إحدى طرقات برلين أو ڤيينَّا المستديرة.

الزَّحَّافة التي كان يجرُّها اثنا عشر كلباً من الكلاب الطَّويلة الشَّعر التي تشبه الثَّعالب والذِّئاب في وقتٍ واحدٍ، واصلَت انطلاقَها مجتازةً عدَّة طرقٍ ورافعةً حول الرُّكَّاب سُحُباً كثيفةً سرعان ما كانت تتجمَّد لتسقط على الأرض من جديدٍ في شكل إبرٍ رقيقةٍ من الجليد، وفي النِّهاية توقَّفَتْ أمامَ بيتٍ أكبر من البيوت الأخرى ولكنَّه مثلها مكوَّنٌ من طابقٍ واحدٍ، كما أنَّه محميٌّ من الأمام برواقٍ زجاجيٍّ مقنطرٍ متعدِّد الأبواب للحيلولةِ دون تبدُّد الحرارة.

"هو ذا فندق "الرَّونق القطبي"" قالَ هولكر.

"وهذا أيضاً يملكه فوضويٌّ؟" سألَ طوبي.

"فوضويٌّ روسيٌّ من أفظع الفوضويِّين، فوضويٌّ رمى قبل ثلاثين عاماً ثلاث قنابل ضدَّ ألكسندر الثَّالث، إمبراطور روسيا".

"ألا يُخشى أن ينثرَنا أشلاءً في الهواء فقط لأنَّه يريدُ تجريب قنبلةٍ جديدة؟" سألَ براندوك.

"لقد أصبحَ روجودوف حَمَلاً حقيقيّاً، وأعتقد أنَّه لم يعد يُكِنُّ كراهيةً حتَّى للإمبراطور نفسِه، لا سيَّما وأنَّ ذلك المتسلِّط تخلَّى عن حكمه الفرديِّ المطلَق".

"هل تغيَّرَتْ روسيا؟"

"لقد أصبح لديها هيئةٌ تشريعيَّةٌ ومجلسُ شيوخ، كما هو شأن الدُّول الأخرى".

"لا مزيد من المرحَّلين إلى سيبيريا إذاً؟" قالَ طوبي.

"سيبيريا أصبحت بلداً متحضِّراً مثلَ الولايات المتَّحدة، وفرنسا، وإنجلترا، ولم تعُد منفىً للمرحَّلين".

دخلوا الفندقَ الذي كان مُدَفَّأً جيِّداً بمصابيح الرَّاديوم ومؤثَّثاً بأسلوبٍ لا يخلو من الأناقة، بكراسيه المبطَّنة، وطاولاته المغطَّاة بمفارشَ من ورقِ الحرير وبأوانٍ فاخرة. كان جالساً هناك بضعة أشخاصٍ من قاطني المستعمرة وكذلك من الإسكيمو منكبِّين على احتساء أكواب الجعةِ التي ذوَّبوا عنها الجليدَ أوَّلاً بجهدٍ لا يُستهان به.

كانوا حقّاً نماذجَ لا تبعث كثيراً على الاطمئنان، بلُحاهم المهمَلة التي كانت تُضفي عليهم هيئة قُطَّاع الطُّرق. ومع ذلك رحَّبوا بالوافدين الجدُد بدماثةٍ وبلغاتٍ مختلفة. جلس الأصدقاء الثَّلاثة إلى إحدى الطَّاولات وطلبوا حساء اللحم المقدَّد، وكبدَ الفظِّ، وفيليه حريش البحر المحمَّر وفاكهةً مجمَّدةً بلغَتْ من الصَّلابة حدَّاً بالكاد استطاعوا معه قضمها.

"حتَّى في القطب ليست الإقامة سيِّئة" قالَ براندوك، مرتشفاً قهوتَه

السَّاخنة. "مَن كان لِيقول لنا إنَّه بعد مِائة عامٍ سيكون من الممكن للمرء أن يتناول إفطارَه عندَ خطِّ العرض ٩٠°؟ أخبِرْني قليلاً، يا سيِّد هولكر، وأنتَ الذي زرتَ هذا المكان غيرَ مرَّةٍ، ماذا وجدوا من غرائبَ في القطب؟".

"لا شيء سوى الجليد وجبلٍ شاهقٍ يبدو أنَّه بركانٌ خامد".

"وعليه تتقاطعُ كلُّ خطوطِ طولِ كرتِنا الأرضيَّة؟"

"ويختبئ كذلك أحدُ قطبَي الأرض" أجابَ هولكر مازحاً.

"وهل شقُّوا نفقاً آخر إلى القطب الجنوبي؟" سألَ طوبي بفضول.

"ليس بعد؛ ولكنَّ علماءَنا دائبون على دراسةِ أفضل ما يمكن القيام به عند حافَّة العالم الأخرى. ثمَّة قضيَّةٌ أخرى أكثر أهمِّيَّةً من نفقٍ قطبيٍّ آخر وهي ما يشغلُ فكرَهم كثيراً".

"وما هي؟" سألَ طوبي وبراندوك اللذان بدوا أكثرَ وأكثرَ فضولاً.

"إنَّهم يبحثون عن طريقةٍ لتحقيق توازنِ كوكبنا بغيةَ إنقاذ ذرِّيَّتنا من كارثةٍ مرعبة، من طوفانٍ عالميٍّ آخرَ أعني" قالَ هولكر. "لن تُحَلَّ بطبيعةِ الحال تلك المشكلة العوصاءُ في هذا القرن، ولكنَّ شيئاً ما سيُبصر النُّور في القرن القادم. ستريان كيف أنَّ الأمر يتعلَّق بإنقاذ خمس قارَّاتٍ ومئاتِ الملايين من الأرواح البشريَّة".

"هلَّا تشرح لنا بشكلٍ أفضل" قالَ طوبي. "أنا لا أفهمك؛ ما الذي يريدُ علماءُ الألفيَّة الثَّالثة القيامَ به؟"

"يريدون إنقاذَ العالَم، لقد قلتُ لك".

"وما الذي يهدِّدُه؟"

"جليدُ القطب الجنوبي".

"وكيف ذلك؟"

"إنَّه يخلُّ بتوازن الأرض. لقد تبيَّن أن الجليدَ في القطب الجنوبيِّ، منذ قرنٍ من الزَّمن إلى يومنا هذا، قد حقَّق نموَّاً مُخيفاً، بالغاً ارتفاعاً لا يُصَدَّق قدْرُه سبعةٌ وثلاثون كيلومتراً. وبما أنَّها لا تمطرُ هناك أبداً ولا يحدث ذوبانٌ يُعتَدُّ به، فإنَّ الثَّلجَ الذي يسقطُ يتحوَّلُ إلى جليدٍ مُتراصٍّ يُحدِثُ ضغطاً هائلاً على الرَّغم من الخسائر التي تتعرَّض لها الصَّفيحة الجليديَّة بسبب انزياح الجلاميد الهائلة التي تنفصل عن حوافِّ الصَّفيحة لتمضي إلى المحيطين الأطلسيِّ والهادئ وتتبدَّدَ فيهما. أضِفْ إلى ذلك أنَّ مياه البحار المحيطة، ببقائها تحت نقطة التَّجمُّد كما ثبتَ لملاَّحينا المتأخِّرين، تسهمُ في زيادة حجم الكتلةِ الجليديَّة الضَّخمة النَّاتجة عن تساقط الثُّلوج المتواصل".

"فهمت" قالَ طوبي.

"لآلاف وآلاف السِّنين، لم يطرأ على الصَّفيحة الجليديَّة للقطب الجنوبيِّ، والتي هي مجرَّدُ جبلٍ جليديٍّ هائلٍ، أيُّ شيءٍ سوى المزيدِ من التَّضاعف، لتحتلَّ اليومَ مساحةً قدْرُها ثمانية ملايين ميلٍ مربَّع، أي ما يعادل كلَّ مساحة أمريكا الشَّماليَّة. هذا الوزن الهائل إلامَ سيُفضي؟ إلى انزياحٍ في كوكبنا مماثلٍ لذلك الذي حدث قبل خمسةٍ وعشرين ألف سنةٍ نتيجةً لكتلة الصَّفيحة الجليديَّة للقطب الشَّمالي التي صبَّتْ على كوكبنا ذلك الطُّوفانَ الهائل الذي تحدَّث عنه القدماء ونمتلك عليه اليومَ أدلَّةً

واضحة. بوقوع الكارثة الجنوبيَّة فإنَّ الأراضي الشَّماليَّة سوف تُغمَر بالتَّأكيد لكي تبرز في المقابل تلك الجنوبيَّة التي تقبع الآن تحت الماء".

"وهل يعتقد علماؤكم أنَّ تلك الكارثة آتيةٌ لا محالة؟" سألَ طوبي.

"لم يعد هناك مَن يشكُّ في ذلك،" أجابَ هولكر. "فحركة المياه في القطب الجنوبيِّ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالزِّيادة التَّدريجيَّة في كتلةِ الصَّفيحة الجليديَّة الجنوبيَّة، وستكون عاقبةُ ذلك أنَّ ثلاثة أخماس مياه الكوكب سوف تنزاح عن مركز ثقلها الأصليِّ متأهِّبةً للانسياح صوبَ الشَّمال. ولذلك فمن السَّهل أن نفهم كم هو هشٌّ وضعُ ساكني نصف الكرة الشَّمالي، بل كم هو محفوفٌ بالمخاطر. إنَّ خلاصنا يكمن كلِّيّاً في تماسك ثمانين مليون كيلومترٍ مُكعَّب من الجليدِ الضَّاغطِ بثقلِهِ على القطب الجنوبيِّ. سيكون لانهيار تلك الكتلة الجليديَّة الضَّخمة تأثيرٌ يتجلَّى في انزياح قوَّة الجاذبيَّة عن مركزها، وسيؤدِّي ذلك إلى انتقال الجليد فوراً إلى الجزء الشَّماليِّ من كوكبنا وسوف ينساحُ حُطامُ الصَّفيحة الجنوبيَّة مع كلِّ المياهِ المحتجَزةِ اليومَ مِن حولِها بقوَّةِ دفقٍ لا يمكن دفعُها نحوَ القطب الشَّماليِّ عبر المحيط الأطلسيِّ والمحيط الهادئ".

"أيُّ لحظةٍ ستكون تلك!" قالَ براندوك. "مِن يُمن الطَّالع أنَّنا لن نكون على قيد الحياة آنذاك، ما لَم يجد صديقنا طوبي الوسيلةَ لتنويمنا قروناً من جديد".

"إنَّ المحاولة الثَّانية ستكون قاتلة" أجابَ الطَّبيب.

"هل قدَّرَ العلماءُ الحديثون على وجه التَّقريب متى يمكن لتلك الكارثة الرَّهيبة أن تقع، يا سيِّدَ هولكر؟" سألَ براندوك.

"ليس على نحوٍ مُثبَتٍ؛ ولكن من المؤكَّد ولأسبابٍ منطقيَّةٍ أنَّ كتلة الصَّفيحة الجليديَّة لا يمكن أن تستمرَّ في التَّمدُّد بعد نقطةٍ معيَّنة. ذلك يمكن أن يحدث في غضون ألف سنة مثلما من الممكن أن يحدث في غضون عشر سنوات".

"إذا ما وقع الأمر، فإنَّه سيكون كارثةً فظيعة" قالَ طوبي.

"تخيَّل، يا خالي، الهوَّة الهائلة التي ستُترَك مفتوحةً بسبب انتقال كتلةٍ يزيد حجمُها على مِائة مليون مترٍ مكعَّب! بانزلاقه من القطب الجنوبيِّ فإنَّ الهيارَ الجليديَّ العارمَ سيحفرُ أخدوداً هائلاً في المحيطات التي ستُطلِق أمواهَها بزخمٍ لا يُقاوَم على شواطئ أمريكا الجنوبيَّة وإفريقيا وأستراليا. وبعد أن يطمرَ ذلك الطُّوفانُ تلك القارَّات تحت كتلٍ جليديَّةٍ ضخمة، فإنَّه سيعبرُ خطَّ الاستواء، مندفعاً نحو أمريكا الشَّماليَّة وأوروبَّا وآسيا مدمِّراً الحياة وأعمالَ الإنسان في كلِّ مكان. وحيث سمقتْ ذات يومٍ أبنيةٌ ومدائنُ مهيبةٌ وامتدَّت حقولٌ، سيكون الخرابُ الأكثرُ إيحاشاً والصَّحراءُ الأشدُّ هولاً".

"وهل يفكِّر علماؤكم في سُبُل اتِّقاء مثل هذه الكارثة؟" سألَ براندوك.

"لقد انكبُّوا لسنواتٍ عديدةٍ على دراسة هذا المشروع" أجابَ هولكر. "سيكون أكبرَ نجاحٍ يحرزُه العلمُ في الألفيَّة الثَّالثة".

"لعلَّهم يدرسون سُبُلَ إزالةِ الوزن الزَّائد عن القطب الجنوبيِّ" قالَ طوبي.

"وأكثر من ذلك، سُبُلَ نقلِ ذلك الوزن إلى القطب الشَّمالي" عقَّبَ هولكر.

"يا لِلهول!" قالَ براندوك. "إنَّه مسعىً عويصٌ كما يبدو لي".

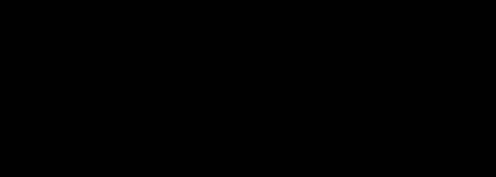
"يقترحُ آخرون، وهو ما يبدو لي أكثر سهولةً، جرَّ جزءٍ من الصَّفيحة الجليديَّة الهائلة إلى المنطقة الواقعة تحت خطِّ الاستواء وتركَهَا تذوبُ هناك".

"أيُّ نوعٍ من الآلات يلزمُ لذلك!"

"ومع ذلك سترى، إذا ما عشنا طويلاً، أنَّ علماءنا سيتمكَّنون من الحفاظ على توازن كوكبنا ومن إنقاذ البشريَّة".

"بعد كلِّ ما رأيتُه حتَّى اللحظة، ليس لديَّ أدنى شكٍّ في ذلك" قالَ طوبي. "يا لِلتَّقدم الذي أحرزه العلمُ في المِائة عامٍ الأخيرة! ثمَّة ما يعجز العقلُ عن فهمه".

نحوَ أوروبَّا



لثلاثةِ أيَّامٍ مكثَ هولكر وصديقاه في المستعمرة القطبيَّة متجوِّلين في الأنحاء، على زلَّاجة الفندق، وقاصدين العديدَ من بيوت الفوضويِّين وبعضَ أكواخ الإسكيمو، بالرَّغم من البردِ الفادحِ الذي كان سائداً في الخارج والظَّلامِ الدَّامسِ المتكتِّلِ فوق الصَّفائح الجليديَّة الشَّاسعة للمنطقة القطبيَّة.

كان عليهم أن يتحقَّقوا، وكانوا سعداء جدَّاً بذلك، من أنَّ أولئك الرِّجال الذين كانوا ذات يومٍ في منتهى الخطورة قد أصبحوا مسالمين تماماً ووُدَعاءَ كالحملان.

أهوَ أثرُ البردِ أم هي العزلةُ ما صنعَ تلك المعجزة بهاتيك الرُّؤوس الملتهبة؟ أغلب الظَّنِّ كلاهما معاً.

ولكن ما لا شكَّ فيه هو أنَّهم فقدوا كلَّ رغبةٍ في الحديث عن القنابل والحرائق والمذابح، مع برودةٍ تلامسُ الخمس والأربعين درجةً تحت الصِّفر! كانوا يفضِّلون على ذلك تدخينَ غليونٍ قربَ مصباحِ راديوم، مستمتعين بالحرارةِ التي يبثُّها.

وكما هو واضحٌ، كانت باهرةً حقَّاً فِكرةُ الحكومات الأوروبِّيَّة والأمريكيَّة المتمثِّلةُ في إرسالهم إلى ذلك المناخ، لكي... تبرِّدَهم.

في صبيحة اليوم الرَّابع، فيما كان هولكر وبراندوك وطوبي يتناولون كوباً

مغليّاً من الشّاي، تمَّ إبلاغهم بأنَّ التِّرامَ الكهربائيَّ كان قد وصل في الليل من سبيتسبرغن وبأنَّه يستعدُّ للعودة إلى أوروبّا.

"فلنغادر، يا صديقيَّ" قال هولكر. "القطبُ في الشِّتاء ليس ممتعاً كثيراً، وأظنُّ أنَّكما نلتما ما يكفي من إقامتنا وسط الجليد الأبديِّ".

"لأودُّ أن أكون في جوٍّ أقلَّ قسوةً" عقَّبَ براندوك. "فأنا لا أملك في عروقي دماءَ الفوضويِّين الملتهبة".

"ولا أنا" قالَ طوبي.

"متى نصلُ إلى سبيتسبرغن؟" سألَ براندوك.

"في غضون ستِّين ساعة، ذلك أنَّ النَّفق الأوروبيَّ أطولُ من نظيره الأمريكيِّ".

"ثمَّ أين سنذهب؟"

"سنركب السَّفينة الطَّائرة التي تقدِّم خدماتها بين الجُزُر وإنجلترا. أريد أن أريكما أعجوبةً أخرى".

"أيُّ أعجوبة؟"

"طواحين تيَّارِ الخليج العظيمة".

"وماذا تكون هذه؟"

"طواحين، لقد قلت لكما".

"لطحن الحبوب؟"

"أوه لا!... بعد ذلك سنذهب لزيارة إحدى المدن البريطانيَّة الغائصة تحت البحر التي يُنفَى إليها أخطرُ مجرمي المملكة المتَّحدة. هي ذي الزَّلَّاجة: فلننطلق، يا صديقيَّ".

سدَّدوا الحسابَ، ثمَّ حملوا أمتعتهم وركبوا زلَّاجة الفندق التي كانت تجرُّها ستَّة كلابٍ نيوفنلنديَّةٍ قويَّة، أصلب عوداً وأكثر انصياعاً من كلاب سلالةِ الإسكيمو.

بعد ربع ساعةٍ توقَّفوا تحت سقيفةِ المحطَّةِ الأوروبِّيَّة التي كانت على الجانب الآخر من المدينة.

عربةٌ ضخمةٌ مماثلةٌ لتلك التَّابعة للخطوط الأمريكيَّة كانت في انتظار المسافرين. هي الأخرى كانت مقسَّمةً إلى مقصوراتٍ ومنمَّقةً بمعالم التَّرف والأناقة.

صعدوا، وفي غضون بضع دقائق، مسبوقاً بآلةِ التَّوجيه التي كانت قد غادرَتْ بالفِعل قبل خمس دقائق، انضوى التِّرامُ تحت قبَّةِ النَّفق الأوروبيِّ الذي تمَّ إنشاؤه على نفقة دول شمال القارَّة: روسيا، والسُّويد، والنَّرويج، وإنجلترا.

في الحجم والشَّكل لم يكن مختلفاً عن نظيره الأمريكيِّ. كلُّ ما في الأمر أنَّه كان أقلَّ إضاءةً، لعدم امتلاك دول شمال أوروبَّا طاقةً كهربائيَّةً تضاهي تلك التي تمتلكها أمريكا الشَّماليَّة، بما أنَّه لم يكن لديها شلَّالاتٌ بعظمةِ شلَّالاتِ نياجارا.

بعد خمسين ساعةً وُفِّقَ المسافرون الثَّلاثة، الذين رأوا الظَّلام ينقشع

شيئاً فشيئاً وميلاً إثرَ مِيلٍ وهم يبتعدون عن القطب، في الوصول إلى الشَّواطئ الشَّماليَّة لأكبر جزيرةٍ في أرخبيل سبيتسبرغن.

كانوا قد تقدَّموا ساعاتٍ طِوالاً على طول السَّاحل الشَّماليِّ لجرينلاند، قبل أن يعبروا جزءاً من المحيط المغطَّى بصفائحَ هائلةٍ من الجليد، وصولاً إلى المحطَّة الرُّوسيَّة.

كان النَّفق ينتهي هناك؛ ولكنَّ الخطَّ كان يستمرُّ حتَّى ميناء البحوث.

كانت دهشة طوبي وبراندوك كبيرةً أنْ رأيا على شواطئ ذلك الخليج المغطَّاة بالثُّلوج، والتي قبل مِائة عامٍ بالكاد كان يرتادُها بضعة صيَّادي حيتانٍ وقانصي فقماتٍ، قصوراً فخمةً لم تكن سوى فنادقَ لاستضافةِ الأثرياء الأوروبِّيِّين في موسم الصَّيف.

غير أنَّ البرد آنذاك كان قد دحرَ المضيفين والضُّيوف. وبدلاً من ذلك كان هناك مجموعتان أو ثلاث من صيَّادي سمك القُدِّ وبعض الخفراء المكلَّفين بحراسة الفنادق.

استعلم هولكر عمَّا إذا كانت السَّفينة الطَّائرة الإنجليزيَّة قد وصلت وحصل على إجابةٍ سلبيَّة.

قبل أربعٍ وعشرين ساعةً من ذلك كان إعصارٌ عنيفٌ قد هبَّ على شمال الأطلسيِّ ومن المحتمل أنَّه أجبر السَّفينة الطَّائرة على اللجوء إلى أحد موانئ النَّرويج. بل أغلب الظَّنِّ أنَّها لن تتمكَّن من الوصول حتَّى في اليوم التَّالي، لأنَّ السَّماء كانت ملبَّدةً بالغيوم والرِّياح عاتية.

"لسنا، على كلِّ حالٍ، في عجلةٍ من أمرنا" قال براندوك. "الطَّقس هنا أقلُّ برودةً ممَّا هو في القطب".

"ولكن لا فندق يفتح أبوابه في هذا الموسم" عقَّبَ هولكر. "سنكون مُرغَمين على البقاء في قاعات المحطَّة أو على طلب اللجوء من بعض أُسَرِ الصَّيَّادين".

"بالنِّسبة إلينا فالأمر لا يهمُّنا كثيراً" قالَ طوبي.

لم يكن من الصَّعب الوصولُ إلى اتِّفاقٍ مع إحدى الأُسَر لِقاءَ أجرٍ متواضع. كان الكوخ في غاية النَّظافة، لِكونِ أصحابه نرويجيِّين، وكان جيِّدَ التَّدفئة ومجهَّزاً جيِّداً بالمؤن الغذائيَّة.

"سنكون على ما يُرامٍ هنا أيضاً" قالَ براندوك.

"وسيكون لدينا لحومٌ في جميع الوجبات،" قالَ هولكر "الأمر الذي لا يمكن في أيَّامنا هذه العثور عليه في أيِّ مكانٍ عبر القارَّات".

"لحمُ دُبٍّ؟" سألَ طوبي.

"لقد انقضى أكثر من خمسين عاماً منذ اختفت آخرُ الدِّببة" أجابَ هولكر. "حتَّى في المناطق القطبيَّة، في الوقت الحاضر، فإنَّ الطَّرائد أصبحت نادرةً جدَّاً. أمَّا هنا فما تزال تُربَّى أعدادٌ كبيرةٌ من أيائل الرَّنَّة ليتمَّ بعد ذلك تصديرُها إلى روسيا وأيضاً إلى النَّرويج. فعلى الرَّغم من الشِّتاءات الطَّويلة والإثلاجات الغزيرة، ما تزال تلك الحيوانات قادرةً على إيجاد ما تغتذي به، باحثةً عن الأُشْن المدفونة تحت الجليد".

"وفي الصَّيف تصبح مأهولةً هذه الجزيرة العظيمة؟" سألَ طوبي.

"إنَّها محطَّةٌ رئيسةٌ، يا سيِّدي العزيز. لا يأتيها أبداً ما يقلُّ عن خمسةِ أو ستَّةِ آلافِ زائر".

"في أيّامنا كانت الجبالُ تكفينا".

"هذه تصلحُ للبرجوازيِّين المتوسِّطي الحال".

"هل سيكون الخطُّ القطبيُّ استثماراً مربحاً في ذلك الفصل؟"

"المسافرون يؤمُّون القطبَ بالآلاف".

"وماذا يفعل هؤلاء الصَّيَّادون هنا؟"

"إنَّهم ينتظرون مرورَ أسراب القُدِّ الكبيرة. أتعلم أنَّ تلك الأسماك الفاخرة لم تعد ترتاد سواحلَ نيوفنلند؟"

"هل شعرت هي أيضاً بالحاجة إلى بعض التَّجديد؟"

"يبدو ذلك" أجابَ هولكر. "منذ ستِّين عاماً وأكثر لم تعد تظهر على السَّواحل الكنديَّة. إنَّها ترتادُ الآن هذه الأنحاء، حيث يمكن اصطيادها بأعدادٍ لا تُحصَى".

"هل ما يزالون يصطادونها بالشِّصِّ؟"

"تلك أداةٌ بالية. اليومَ تأتي سفنٌ عملاقةٌ مجهَّزةٌ بمحرِّكاتٍ ذات قوَّةٍ استثنائيَّة وترمي شِباكاً بطول خمسةِ أو ستَّةِ أميالٍ، ثمَّ تسحبُها بسرعةٍ إلى اليابسة. تكفي بضعة أيَّامٍ لإنهاء موسم الصَّيد، في حين كان الأمرُ يستغرق أربعة أشهرٍ في أيَّامكم".

"كلُّ شيءٍ على الكهرباء!" هتفَ براندوك. "كم من التَّغييرات حصلت في المِائة عامٍ الأخيرة! كلُّ الأشياء تضاعفت!"

"كيف كان للبشريَّة أن تقتات لو أنَّنا لم نفعل ذلك؟ لقد تضاعف الصَّيدُ البحريُّ أربعةَ أضعافِ ما كان عليه، والشُّكر للعناية الإلهيَّة التي أعمرتْ المحيطات بتلك الوفرة من الأسماك!"

كانوا جلوساً أمام مائدةٍ معدَّةٍ جيِّداً بأيدي زوجةِ وبناتِ الصَّيَّاد. كان البخارُ يتصاعدُ من قطعةٍ كبيرةٍ مُحَمَّرَةٍ من لحم الرَّنَّة لم يستطيعوا مواراةَ التذاذِهم بها.

بعد ذلك ارتشفوا حساءً غنيَّاً بالقُدِّ، وأفرغوا في جوفهم بضعة أكْوُبٍ من حليب الرَّنَّة، وبما أنَّ الرِّياح كانت قد هدأت قليلاً، فقد خرجوا يتنزَّهون في أنحاء الخليج يحدوهم أملٌ برؤية السَّفينة الطَّائرة وقد وصلت لتقلَّهم إلى أوروبَّا.

لم يتمَّ إخطارُهم من قِبَل مضيفهم بأنَّ سفينتهم الطَّائرة قد ظهرَتْ في الأفق حتَّى السَّاعات الأولى من صبيحة اليوم التَّالي.

جرعوا كوباً من الشَّاي، وبعدما تلفَّعوا بمعاطف سميكةٍ من جلد الدُّبِّ، هرعوا صوبَ الخليج ليستمتعوا بمشهد الوصول.

كانت السَّفينة الطَّائرة منظورةً لهم آنذاك وهي تمخرُ في الفضاء بكلِّ عظَمةٍ ومهابةٍ، على ارتفاع مِائةٍ وخمسين متراً من الجليد الطَّافي على سطح المحيط.

شبيهةً كانت بالحافلات الطَّائرة التي رآها براندوك وطوبي سابقاً في نيويورك، سوى أنَّها كانت أكبر حجماً، بقاعدةٍ أكثر اتِّساعاً، وعشرة أجنحة، وأربع مراوح هائلة، ومقاودَ مزدوجة. في الأعلى كان يمتدُّ رواقٌ زجاجيٌّ،

مخصَّصٌ للمسافرين، يعلوه صارٍ مع هوائيٍّ، أغلبُ الظَّنِّ أنَّه جهازٌ كهربائيٌّ لنقل البرقيَّات اللاسلكيَّة.

ما لبثت السَّفينة التي كانت تتقدَّمُ بسرعةٍ كبيرةٍ أن أصبحت فوق الخليج. قامتْ، على الرَّغم من عتوِّ الرِّياح، بانعطافةٍ طويلةٍ للغاية، وهبطتْ بعذوبةٍ لتحطَّ داخلَ سياجٍ مُقامٍ فوق أكمةٍ كانت ترتفع قرابة المِائة مترٍ عن المحطَّة الصَّيفيَّة.

"هلمَّا نلحق بها فوراً" قالَ براندوك الذي كان وراءَهما صحبةَ الصَّيَّاد الذي أخذ على عاتقه حملَ الأمتعة. "*القنطورُ*(*) لن يتوقَّف أكثر من ربع ساعةٍ، المهلة التي بالكاد تكفي لتسليم البريد وإنزال المؤنِ والتَّبغ للصَّيَّادين والخفراء".

صعدوا الأكمةَ، ثمَّ دخلوا الكنيفَ وركبوا السَّفينة، بعد شراء التَّذاكر.

لم يكن ثمَّة على متن السَّفينة الطَّائرة سوى سبعةِ رجالٍ فقط: القبطان، ومهندسَين، ومديرَي دفَّتي القيادة، ومُضيفٍ، وطبيب.

كان الفضاءُ الدَّاخليُّ للرُّواق مقسَّماً إلى أربع مقصوراتٍ. إحداهنَّ خاصَّةٌ بالمكناتِ والطَّاقم؛ وأخرى جُعِلَتْ للنَّوم مقسَّمةٌ بدورِها إلى قمراتٍ صغيرةٍ برقائق من ورق الألمنيوم أو من معدنٍ آخر مماثل؛ وثالثةٌ جُعِلَتْ حجرةً لتناول الطَّعام؛ وأمَّا الرَّابعة فكانت مكتبةً وحجرةً للدَّردشة، مع آلةٍ موسيقيَّةٍ كهربائيَّةٍ للتَّرفيه عن المسافرين.

"رائع!" هتفَ براندوك، مُحملِقاً في الأثاث النَّفيس الذي فرشوا به الحجرات. "مُذهل!"

---

*) اسمُ تلك السَّفينة، والقنطورُ حيوانٌ خرافيٌّ له رأسُ فرسٍ وجسمُ إنسان؛ (م).

"الأهمُّ من ذلك، أنَّها أكثر أماناً من السُّفن التي تشقُّ المحيطات" قالَ هولكر.

"متى نصلُ إلى لندن؟" سألَ طوبي.

"في غضون ستٍّ وأربعين ساعة" قال قائدُ السَّفينة. "علينا أن نتوجَّه أوَّلاً إلى سواحل أيرلندا لكي نضعَ في المدينة الغائصة مُداناً خطيراً سلَّمَتْه لنا السُّلطات النُّرويجيَّة في بيرغن وهو من رعايا المملكة المتَّحدة".

"إنَّها فرصةٌ ذهبيَّةٌ لزيارة تلك المدينة،" قالَ هولكر، "ولزيارة طواحين تيَّار الخليج العظيمة أيضاً. لم أتصوَّر من قبلُ أنَّني محظوظٌ إلى هذه الدَّرجة".

"ألم يعد معكم ما تريدون تحميله؟" سألَ القبطان.

"لا شيء آخر، يا سيِّدي" أجابَ براندوك.

"فلننطلق إذاً دونما تأخير: إنَّ إعصاراً آخرَ يوشك أن يندلع وأنا لا أحبُّ أن أمكث هنا أو أن أُضطرَّ إلى اللجوء مرَّةً أخرى إلى الخِلالِ البحريَّةِ النُّرويجيَّة. إنَّني متأخِّرٌ يومين إلى الآن بسبب الأعاصير".

بأمرٍ واحدٍ من القبطان، أطلقَ *القنطورُ* عنانَ محرِّكَيه الجبَّارين وارتفعَ مِائتي مترٍ في الجوِّ مُحَيِّياً سكَّان المحطَّة بهسيسٍ حادٍّ للغاية. دارَ مرَّتين فوق الخليج، ثمَّ اندفعَ متَّجهاً نحو الجنوب الغربيِّ بسرعةٍ خياليَّة.

كتلٌ جليديَّةٌ هائلةٌ كانت تمتدُّ أمامَ الخليج، تخدِّدُها قنواتٌ واسعةٌ إلى حدٍّ ما، وكانت ترسلُ إلى الأعلى بريقاً قويَّاً يكاد يعمي الأبصار، سببُهُ الانكسارُ الضَّوئيُّ على كلِّ تلك الكتلة الشَّفَّافة. بعيداً، في المقابل، لاحَ الصِّباغُ البحريُّ الأزرقُ الدَّاكن الذي كان يشيرُ إلى أمواج المحيط الأطلسيِّ السَّائبة.

متلفِّعين جيِّداً بمعاطفِهم الفرْوِ، جلسَ براندوك وطوبي وهولكر خارجَ الرُّواق الزُّجاجيِّ، على مقاعد القيدومِ الصَّغيرة، للاستمتاع بذلك المشهد بشكلٍ أفضل.

وعلى الرَّغم من ضخامتها، كانت السَّفينة الطَّائرة تستجيبُ على نحوٍ مذهل، مُباهيةً في السُّرعةِ طيورَ النَّورس وطيورَ القطرس الكبيرة التي كانت تتبعُها أو تسبقها. كانت تحافظ على مسارٍ مستقيمٍ تماماً، موجَّهٍ على البوصلة، من دون أن تنخفض متراً واحداً. لم تكن منطاداً، بل سفينةً حقيقيَّةً تخضع لحركةِ دفَّتين تعملان كأذيالِ الطُّيور.

"يا له ابتكاراً مذهلاً!" ردَّدَ براندوك، مُستنشقاً ملءَ رئتيه الهواءَ المُصَقَّعَ، ولكنِ المنعشَ، للمحيط. "من كان لِيقول إنَّ الإنسان سيتمكَّن يوماً من تقاسمِ مملكةِ الفضاء مع الطُّيور؟ ماذا تكون نسورُ *الكوندور* الشَّهيرة بالمقارنة مع هذه السُّفن الطَّائرة؟"

"أتفوقُ الطَّيرَ سرعةً هذه السُّفن؟" سألَ طوبي.

"إنَّها تخلِّفهنَّ وراءَها دونما عناء" أجابَ هولكر.

"حتَّى الفَرقاطات(*)؟"

"إنَّها الطُّيور الوحيدة التي تفوقها سرعةً، لقدرتها على الطَّيران بسرعةِ مِائةٍ وستِّين كيلومتراً في السَّاعة".

"والقطرس؟" سألَ براندوك.

---

*) طيورٌ تتبعُ فصيلةَ الفرقاطات من رتبة الأطيشيَّات، تعيش في المناطق البحريَّة الحارَّة، ولها أجنحةٌ رفيعةٌ وقويَّة؛ (م).

"على الرَّغم من أنَّ باعَ جناحيه يتراوحُ وسطيّاً بين أربعةِ أمتارٍ وأربعةِ أمتارٍ ونصف[*]، لا يستطيع القطرسُ منازعةَ الفَرقاط".

"ما السُّرعة التي تبلغها هذه السُّفن الطَّائرة؟"

"مِائةً وخمسين كيلومتراً في السَّاعة" أجابَ هولكر.

"وكنَّا، في أيَّامنا، نمشي في الأرض مُباهين بأنَّ طوربيداتنا كانت قادرةً على قطعِ أربعةٍ وعشرين أو خمسةٍ وعشرين ميلاً في السَّاعة!" قالَ طوبي. "يا له من تقدُّمٍ! يا له من تقدُّم!"

"قُلْ لي يا سيِّد هولكر" قالَ براندوك. "ما السُّرعة التي تبلغها السُّفن البحريَّة الحديثة؟"

"خمسين أو حتَّى ستِّين ميلاً في السَّاعة" أجابَ المستجوَب.

"ما طبيعةُ مَكَناتها؟"

"إنَّها مَكَناتٌ تعمل بالكهرباء".

"ومِن حيث الشَّكل، ألها شكلُ السُّفن القديمةِ نفسُه؟"

"فلتحكمْ أنتَ على ذلك. هي ذي تحتنا تماماً سفينةٌ أغلبُ الظَّنِّ أنَّها آتيةٌ من جزيرة الدُّبِّ[**]. أتعتقد أنَّها تشبه واحدةً من تلك التي كانت تطوي المحيطات في أيَّامكم؟"

---

*) الأرقامُ هنا مُبالغٌ فيها، فباعُ جناحي "القطرس الكبير"، وهو الأطول بين جميع أنواع الطُّيور، لا يتجاوز ٣,٧ أمتار؛ (م).

**) إحدى الجزر التَّابعة حاليّاً لمملكة النُّرويج، وتقع في أرخبيل سفالبارد بين النُّرويج وروسيا؛ (م).

نهض براندوك وطوبي باندفاعٍ ناظرَين في الاتِّجاه الذي أشار إليه صديقهما ورأيا في الأفقِ ما يشبه مِغزلاً طويلاً جدّاً كان يجري على الأمواج بسرعةٍ فائقةٍ، مِن غيرِما أثرٍ لدُخان.

"تلك السَّفينة هي *التَّانجاروف*" قالَ قبطانُ السَّفينة الطَّائرة. "تغادرُ البحرَ الأبيضَ(*) متَّجهةً إلى آيسلندا. إنَّها سفينةٌ رائعةٌ تنسابُ كأنَّها سمكة قرش. لها جؤجؤٌ لا يهابُ جبالَ الجليد!"

"إنَّها لا تشبه في شيءٍ السُّفن التي كانت تجوبُ البحارَ في عصرنا" قالَ براندوك بعدما ابتعدَ القبطان. "أهُمُ مهندسو الألفيَّةِ الثَّالثة مَن قام بتعديلها؟"

"في غالب الأمر، وذلك للحصول على سرعةٍ أكبر واهتزازٍ وتمايلٍ أقل" قالَ هولكر. "أعطوا للهيكل شكلَ سيجارٍ حادٍّ جدّاً عندَ الجؤجؤ في حين اختفى السَّطحُ كلُّه تقريباً عدا مكاناً للبرجِ المخصَّصِ لمديرَي الدَّفَّة. وكما تريان، فإنَّ السُّفن الحديثة تكاد تكون مغمورةً بالكامل ومغلَّفةً بغطاءٍ إضافيٍّ بما يمكِّنها خلال العواصف من كسحِ الأمواج بلا أيَّة مشاكل".

"أتعلمُ بماذا تذكِّرني، في الشَّكلِ، هذه السُّفن الجديدة؟ بالغوَّاصات التي بدأوا يستخدمونها في عصرنا".

"هذا صحيحٌ" أكَّدَ طوبي. "وكيف تسير؟ بالعنفاتِ أيضاً؟"

"نعم، وبالتِّراسِ المسنَّنة. فَتَحْتَ الغاطسِ داخلَ تجاويف خاصَّةٍ ثمَّة ثمانيةٌ منها، أو عشرة، أو حتَّى اثنتا عشر، وهي تقدِّم عندَ اللزوم دفعاً كبيراً

---

*) بحرٌ داخليٌّ في شمال الجزء الأوروبيِّ من روسيا؛ (م).

للعنفات التي في مؤخِّرة السَّفينة" قالَ هولكر. "بهذا النِّظام الثُّنائيِّ الذي يذكِّرنا قليلاً بمراكبنا القديمة ذات القواعد الدَّوَّارة، استطاع مهندسونا إعطاءَ سفننا سرعاتٍ تصل إلى خمسين وحتَّى ستِّين ميلاً في السَّاعة".

"وهل قلتَ لي إنَّها لا تهتزُّ ولا تتمايل؟"

"إنَّ دوارَ البحر مرضٌ يكادُ يكونُ غيرَ معروفٍ اليومَ على متن البواخر الحديثة، فحتَّى أكثر الأمواج هولاً لا تستطيعُ لها هزّاً".

"ولكنْ لماذا؟" سألَ طوبي.

"لأنَّ جوانبها مطليَّةٌ بدهانٍ زيتيٍّ يتمدَّد ببطءٍ على الماء ويُنتِج نفسَ تأثير الزَّيت الذي يستخدمه صيَّادو الحيتان في العواصف".

"ما الذي لم يبتكره أبناءُ الألفيَّة الثَّالثة هؤلاء!" عقَّبَ براندوك.

"الكثير من الأشياء في الواقع، والتي ستكون ذات نفعٍ عظيم" أجابَ هولكر، مبتسماً.

"والقوارب الشِّراعيَّة، أما تزال موجودةً؟" سألَ طوبي.

"منذ سبعين عاماً لم نرَ واحداً منها. انظرا ما أجمل هذه السَّفينة وأخبِراني إن لم تكن أفضل من قريناتها التي جابتِ البحارَ قبلَ مِائة عام".

السُّفن الطَّائرةُ والملَّاحون



كان مسارُ *التَّانجاروف* يتقاطعُ في تلك اللحظة مع مسارِ السَّفينةِ الطَّائرة، مُقبلاً من جهةِ جانبها الأيسر.

كانت مِغزلاً هائلاً مصنوعاً كلِّيّاً من الحديد المفولَذ، بطولٍ يزيد على مِائةٍ وخمسين متراً، وجؤجؤٍ حادٍّ للغاية، وعرضٍ قدرُهُ في المنتصف خمسة عشر متراً.

وكانت مغلَّفةً بالكامل بطبقةٍ خارجيَّة، مع عددٍ كبيرٍ من النَّوافذ المفتوحةِ في تلك الطَّبقة والمحميَّة بزجاجٍ لا بدَّ وأنَّه كان سميكاً للغاية.

في المنتصف انتصبَ برجٌ معدنيٌّ، بارتفاع أربعةِ أمتارٍ، كان جالساً على سطحه، بالقرب من دفَّة القيادة، الرَّجلان المكلَّفان بإدارة الدَّفَّة. وأمَّا في الخلف فلم يكن ثمَّة سوى صارٍ للإبراق الهوائي.

بسرعةٍ وخفَّةٍ مخرَتْ، دون إصدار أيِّ ضجيج، تاركةً وراءَها أثراً ناصعَ البياض بدا وكأنَّه زبدٌ دُهنيٌّ.

أكثر من مجرَّد سفينة، كانت أشبه بحوتٍ يافعٍ منقذفٍ بكلِّ سرعتِه.

في اللحظة التي مرُّوا فيها تحتَ القنطور، أطلقَتْ أجهزته الكهربائيَّة طنيناً طويلاً وسجَّلَتْ رسالةً بعثَها مديرا دفَّةِ *التَّانجاروف*.

كانت الرِّسالةُ تحيَّةً وُدِّيَّةً تتمنَّى "رحلةً سعيدةً" للمبحرين في الهواء، بالإضافة إلى خبرٍ مفادُه أنَّ كتلَ الجليد آنذاك قد أدَّتْ إلى توقُّف الملاحة في البحر الأبيض.

"ما أجملها! ما أروعها!" هتفَ براندوك الذي كان يلاحق السَّفينةَ الفائقة السُّرعة بنظراته.

"متى يمكننا الوصول إلى آيسلندا؟"

"مساءَ غدٍ" أجابَ هولكر.

"على الرَّغم من جلاميد الجليد؟"

"سفننا تهزأ بجلاميد الجليد. تنقضُّ عليها بضرباتِ ترسٍ مهمازيٍّ وتكسِّرُها أيّاً كان سَمْكُها. إنَّها كِباشٌ حقيقيَّةٌ، بقوَّةٍ لم يسبق لها مثيل".

"وماذا حدث، يا حفيدي العزيز، للغوَّاصات التي كانت حديثَ النَّاس في عصرنا؟" سألَ طوبي.

"بعد أن أصبحت الحروبُ مستحيلةً، اختفَت أو كادت. ما يزال هناك عددٌ منها يُستخدَمُ لاكتشاف الأعماق ولاستخراجِ الكنوز المفقودة في قاع البِحار".

"وماذا عن قناة بنما؟" سألَ براندوك.

"لقد انتهوا من شقِّها منذ خمسةٍ وثمانين عاماً، يا سيِّدي العزيز".

"ذلك المشروع العظيم تمَّ إنجازه حقّاً؟"

"أجل، على أيدي أبناء بلدنا؛ كما أنَّ قنواتٍ أخرى شُقَّتْ لتقصير رحلات السُّفن. فبرزخ كورنث الذي يربط جزيرة موريا ببقيَّة أراضي اليونان شُقَّتْ خلاله قناةٌ أيضاً، وكذلك الأمرُ بالنِّسبة إلى مضيق ملقا، ويتمُّ حاليَّاً إنجازُ مشروعٍ عظيمٍ آخر".

"وما هو؟"

"الصَّحراء الكبرى على وشك أن تصبح بحراً متيسِّراً لعبور أكبر السُّفن. إنَّهم يعملون منذ خمس سنواتٍ على ذلك، وفي غضون خمسةِ أو ستَّةِ أشهرٍ سيكتملُ العمل".

"ماذا بقي لتفعلونه بعد؟" سألَ براندوك.

"الحفاظ على توازن الأرض، لقد سبقَ أن أخبرتك بذلك،" أجابَ هولكر "ونأمل أن ينجح علماؤنا في ذلك. ها إنَّ الجرسَ يدعونا لتناول الإفطار؛ لقد أورثَني هذا الهواءُ البحريُّ شهيَّةَ الذِّئاب. احذُوَا حَذوي يا صديقيَّ؛ وستكونان أفضل حالاً بعد ذلك".

وبينما كانوا يشقُّون طريقهم في غرفة الطَّعام، كانت السَّفينةُ الطَّائرة تواصلُ شقَّ طريقها نحو الجنوب الغربيِّ، ملتهمةً الفضاءَ بسرعةِ مِائةٍ وعشرين كيلومتراً في السَّاعة. كان المحيط مغطَّىً على الدَّوام بصفائح جليديَّةٍ مترامية الأطراف، بل وحتَّى بجبالٍ جليديَّةٍ تعكسُ وميضاً مُعَمِّياً.

هنا وهناك كانت تُلمَحُ بعض القنوات وفي داخلها بعض الفُقمات النَّادرة جدَّاً، هي بعضُ النَّاجيات القلائل من المجازر الوحشيَّة التي أنزلَها بها الصَّيَّادون النُّرويجيُّون والرُّوس.

كان الأصدقاء الثَّلاثة على وشك الانتهاء من وجبةٍ بسيطةٍ أجَلْ ولكنْ وافرة، عندما سمعوا منبِّهَ الأجهزة الكهربائيَّة يطنُّ ورأوا بعد لحظاتٍ قليلةٍ القبطان مُقبِلاً بوجهٍ متجهِّم.

"هل تلقَّيتم رسالةً سيِّئة، أيُّها القبطان؟" سألَ هولكر.

"لقد أبرقوا إليَّ من محطَّة "كيب يورك" الأسكتلنديَّة يُبلِغونني بأنَّ عاصفةً ثلجيَّةً رهيبةً تهبُّ منذ يومين حول الجُزُر البريطانيَّة" أجابَ القبطان. "هذا نذيرٌ بشتاءٍ سيِّئٍ هذه السَّنة".

"هل ستُضطرُّ إلى اللجوء مرَّةً أخرى إلى السَّواحل النُّرويجيَّة؟"

"لا أريد أن أضيِّعَ المزيدَ من الوقت؛ سأواجه الإعصار".

"هل ستصمدُ سفينتكم؟" سألَ براندوك.

"لا تجزعوا أيُّها السَّادة؛ فسفينتي *القنطور* مبنيَّةٌ بالكامل من الحديد المفولَذ العالي الجودة".

لم تمضِ ثلاث ساعاتٍ حتَّى كانت بشائرُ العاصفة، التي أبلغتْ المحطَّةُ الأسكتلنديَّةُ عنها، قد وصلت إلى السَّواحل التي كانت السَّفينةُ الطَّائرةُ تعبرُ أجواءَها.

كانت السَّماءُ قد ادلهمَّتْ، وعصفُ ريحٍ بحريَّةٍ حقيقيَّةٍ أهوجُ كان يواصلُ هبوبَه منذ منتصف النَّهار، صافعاً أجنحةَ ومراوحَ القنطور.

المحيطُ تقطَّعَ أمواجاً ما لبثت كلُّ موجةٍ منها أن صارت كالطَّود العظيم وراحت تفتِّتُ بأصواتٍ كأنَّها هزيمُ آلاف الرُّعود جلاميدَ الجليد المتحدِّرةَ

من جزيرة يان ماين(*). وكان القبطان قد أعطى أوامرَه للمهندسَين بأن يزيدا السُّرعةَ على أمل التَّملُّص من الهجوم الوشيك للإعصار ومُعطياً بذلك قائدَي الدَّفَّة فرصةَ التَّوجُّه غرباً لاجتناب مركز الإعصار. ومع ذلك، كابدَ *القنطورُ* خضَّاتٍ مفاجئةً وكان عاجزاً في بعض الأحيان عن تحمُّلِ هبَّات الرِّيح العنيفة. وقد حدَثَ بالفعل أكثرَ من مرَّةٍ أن تمَّ سحبُهُ لبضع ثوانٍ باتِّجاه الشَّمال، برغمِ جميع الجهود التي كانت تبذلها الأجنحةُ والمراوحُ الضَّخمة.

"هل سنسقط في البحر؟" سألَ براندوك الذي استطاع أن يجد لنفسه موضعاً وراءَ النَّافذة الزُّجاجيَّة لمقصورة المقدَّمة.

"حتَّى وإن حدثَ ذلك، فلن يلحق بنا مكروهٌ كبير" أجابَ هولكر.

"ألن ينتهي بنا الأمرُ تحت الماء؟"

"لن يحدث ذلك إطلاقاً، يا سيِّدي العزيز. فمهندسونا فكَّروا أيضاً في مثل هذه الحوادث وتحسَّبوا لها".

"كيف؟"

"ألم تلاحظ أنَّ التَّجويفَ السُّفليَّ للقاعدة كرويٌّ تقريباً مثل ذلك الذي لقوارب الإنقاذ وللسُّفن وأنَّ له عارضةً أيضاً؟ ذلك أنَّ ثمَّة في داخله وسائد هوائيَّة من شأنها أن تمنع القنطورَ من الغرق".

"وهكذا يمكن لهذه السُّفن الطَّائرة، إذا لزمَ الأمر، أن تتحوَّل إلى قوارب نجاة!" هتفَ طوبي باندهاش.

"وهي صالحةٌ تماماً للإبحار، يا خالي العزيز،" أجابَ هولكر "لأنَّ الكوثلَ

---

*) جزيرة بركانيَّة في المحيط المتجمِّد الشَّمالي هي حاليَّاً جزءٌ من مملكة النُّرويج؛ (م).

يُخفي داخلَ تجويفِ مِدسراً معدنيّاً يعملُ بنفس المحرِّك الذي يُشغِّلُ الأجنحة. فكما ترى، لا خطر يهدِّدُنا حتَّى وإن سقطنا. بإمكاننا بلوغ إنجلترا في جميع الأحوال".

"سأصابُ بالجنون" قالَ براندوك. "أبناءُ هذا العصر لم يتركوا أمراً إلَّا وفكَّروا فيه".

كانت العاصفة تزدادُ شدَّةً مع كلِّ ميلٍ كان *القنطوُر* يخوض صراعاً مريراً لقطعِه.

فالرِّياحُ أخذتْ تثورُ يرافقها صخبٌ مُصِمٌّ من عويلٍ وصفيرٍ وجؤار، مندفعةً حيناً من الجنوب إلى الشَّمال وحيناً من الشَّرق إلى الغرب، كما لو أنَّ إيولُوس(*) جُنَّ جنونُه.

مشهدُ المحيط، من ذلك الارتفاع، كان مخيفاً وفي الوقت نفسه خلَّاباً.

جبالٌ من الموجِ، سوداءُ سوادَ الحبرِ بينما ذُرواتها ساطعةٌ حتَّى لتكادُ تكون فوسفوريَّة، كانت تنقلبُ في كلِّ الاتِّجاهات، متراكباً بعضُها في بعضٍ وممتطياً بعضُها بعضاً إلى عُلُوَّاتٍ شاهقة.

كانت هُوَىً سحيقةٌ تتشكَّلُ، وكان الماءُ ما يلبث أن يردمَها حتَّى تنفتحَ من جديد، ومنها كان يخرجُ جؤارٌ رهيبٌ، ناجمٌ عن الدَّفق الهائج للمياه.

طيلةَ النَّهار بقيَ *القنطوُر* يصارعُ ببأسٍ شديدٍ، مرتفعاً تارةً ومنخفضاً تارةً أخرى، مدفوعاً مراراً وتكراراً خارجَ مساره؛ ثمَّ عندما هبطَ المساء لفَّه ضبابٌ كثيفٌ للغاية حدَّ أنَّ مصابيحَ الرَّاديوم لم تتمكَّن من خرقِه.

---

*) ملك الرِّياح في الأساطير الإغريقيَّة؛ (م).

"هوَذا خطرٌ آخر يحيق بنا وقد يكون أكبر" قالَ براندوك.

"لماذا؟" سألَ هولكر.

"إذا ما واجهَ *القنطوُر* سفينةً طائرةً أخرى تتقدَّمُ في الاتِّجاه المعاكس، مَن سيكون قادراً على إنقاذنا من تصادم آلتين مندفعتين بسرعةِ مِائةٍ وخمسين كيلومتراً في السَّاعة؟"

"لا تخف" قالَ هولكر. "هذا يمكن أن يحدث في مدينةٍ حيث السَّماء تعجُّ بالطَّائرات، وليس فوق البِحار".

"ولِمَ لا؟"

"لأنَّ كلَّ سفينةٍ طائرةٍ مجهَّزةٌ بلاقطٍ صوتيٍّ".

"أيُّ ضربٍ من الوحوش هو هذا اللاقط؟"

"إنَّه جهازٌ بسيطٌ ولكنَّ قيمته لا تقدَّرُ بثمن، يتكوَّن من قرنين سمعيَّين لاستقبال الأصوات، يفصلُ بينهما غشاءٌ أوسط. يتمُّ وضعُ هذين القرنين السَّمعيَّين على أذني مُدير الدَّفَّة وبالتَّالي عندما تقع هذه الأجهزة في مسار الموجات الصَّوتيَّة المنبعثة من أيِّ جسمٍ فإنَّها تقوم بإصدار ضوضاءَ بالشِّدَّة نفسِها، وهي أجهزةٌ حسَّاسةٌ جدَّاً لدرجة أنَّها قادرةٌ على تسجيل الذَّبذبات الأكثر دقَّةً واللامسموعة. تصوَّر الآن أنَّ سفينةً طائرةً تقترب منَّا. عندها يتمُّ نقلُ الضَّوضاء التي تنتجُها تلك السَّفينة، جرَّاءَ تحريكها كتلةَ الهواء، وكذلك اهتزازات الأجنحة على الفور إلى القرنين السَّمعيَّين لمدير دفَّةِ سفينتنا. ماذا يفعل حينذاك؟ يتمُّ إطلاق برقيَّةٍ يقوم الجهاز الكهربائيُّ بالتقاطها ونقلها إلى السَّفينة. كلا السَّفينتين الطَّائرتين تتوقَّفان

حينذاك وتغيِّران اتِّجاههما، وهكذا يزول خطرُ الاصطدام. ماذا ستقول الآن، يا سيِّد براندوك؟"

هزَّ الشَّابُّ رأسَه دون أن يُحيرَ جواباً.

وحتَّى آناءَ الليلِ بطُولِه لم يتوقَّف الإعصارُ لحظةً واحدةً عن العصف. الرِّياحُ التي كانت تهبُّ نحو الشَّرق دفعَتِ القنطورَ بعيداً جدَّاً عن مسارِه، ساحبةً إيَّاه إلى وسط المحيط الأطلسيِّ.

في منتصف النَّهار، عندما استطاعَ القبطان بفضلِ شعاعٍ من الشَّمس أن يحدِّدَ أخيراً موقعَ السَّفينة، لاحظ أنَّه كان قد تجاوزَ اسكتلندا ببضع مئاتٍ من الأميال.

"لا مناصَ لنا الآن من التَّخلِّي عن أيِّ أملٍ في الهبوط في إنجلترا" قالَ لهولكر الذي كان يستفسرُه عن الأمر. "إنَّ الرِّيحَ تسحبُنا كما لو أنَّ قنطوري تحوَّلَ إلى مركبٍ شراعيٍّ، ولن يكون من الحكمة السَّعيُ إلى مناوشتها".

"وأين سينتهي بنا المطاف؟"

"هل تخيفكم رحلةٌ وسط الأطلسيِّ؟"

"لا، طالما أنَّ الرِّياح لن تُعيدنا إلى أمريكا. فنحن نرغب في زيارة العواصم الأوروبِّيَّة الكبرى".

"حين يهدأ الإعصار، نواصلُ رحلتنا إلى إنجلترا. في ليڤربول يمكنكم أن تستقلُّوا إمَّا القطار وإمَّا القارب المتَّجه إلى لندن. إنَّها ليست سوى مسألةِ بضعةِ أيَّامٍ من التَّأخير. فحالُ هذه الرِّياح في نهاية المطاف سوف يتغيَّر".

كان القبطانُ واهماً.

الإعصارُ ضربَ بهِياجٍ شديدٍ ليومين آخرَين، معرِّضاً لخطرٍ جدِّيٍّ القنطورَ الذي بدأت أجنحته تتفكَّك رويداً رويداً.

في صباح اليوم الثَّالث، عندما بدأت الرِّياحُ تضعفُ أخيراً، أخطرَ القبطانُ المسافرينَ بضرورةِ اللجوء إلى الرُّواق الزُّجاجيِّ لئلَّا تقذف بهم الأمواجُ بعيداً.

"سنهبطُ في البحر؟" سألَ هولكر.

"نعم، يا سيِّدي،" أجابَ القبطان. "*فالقنطورُ* لن يصمدَ في الجوِّ إلَّا بجهودٍ جبَّارةٍ، ولذلك أفضِّلُ الهبوطَ على أن نسقطَ فجأةً".

"ولكنَّ المحيطَ مضطربٌ" عقَّبَ براندوك.

"إنَّ قوقعةَ الرُّواق من الصَّلابة والمتانة بمكان، والألواح الزُّجاجيَّة بسُمكِ خمسةِ سنتيمترات. الأمواجُ لن تكون قادرةً أبداً على كسرِها. سننقلبُ بحَّارةً بعدما كنَّا طيَّارين. وأيَّاً كان الأمر، لن نُصابَ بدوارِ البحر".

دخلوا الرُّواقَ ومعهم الطَّاقم والقبطان، إذ كان ممكناً إدارةُ الدَّفَّتين من الدَّاخل أيضاً. وراح *القنطورُ* يهبطُ بهوادةٍ وسط عُباب الأمواج.

للحظةٍ خشي براندوك، وطوبي، وحتَّى هولكر، من أن ينتهي بهم الأمرُ في قاع المحيط الأطلسي.

ما إنْ حطَّت السَّفينةُ الطَّائرة على الماء حتَّى راحت تكابدُ سلسلةً من الصَّدمات والارتجاجات التي بعثت في نفوسهم خوفاً كبيراً من أنَّ السَّفينة قد تنقلبُ انقلاباً لا تقومُ لها بعده قائمة.

ولكن بمجرَّدِ أن خرج المدسران الفولاذيَّان من تجويفيهما وشرعا في الحركة، استعادَ *القنطورُ* اتِّزانه وانطلق مثلَ زوبعة، صاعداً وهابطاً الأمواجَ العاتية.

كانت خزَّانات الهواء التي تملأ غاطس السَّفينة تُبقيها عائمةً بصورةٍ مذهلةٍ على سطح الماء، أفضل من برميلٍ فارغ. ولكنْ يا لِتلك القفزات بيْن الفينة والأخرى! ويا لِلأمواج التي توجَّب على زجاجِ الرُّواق صدَّها! كانت تنقضُّ عليه من الأعلى بهِياجٍ لا يُصدَّق، مُرجرِجةً دارعةَ القوقعة. ويلٌ إذا ما استسلمَتْ ألواحُ الزُّجاج! ساعتئذٍ لن يخرجَ أيٌّ من الأشخاص القابعين في الدَّاخل حيَّاً.

"اللعنة!" غمغمَ براندوك الذي بقيَ متشبِّثاً بإحدى دعامات الرُّواق ليتمكَّن بشكلٍ أفضل من تحمُّل تلك الهزَّات. "يا له من إحساسٍ يجمِّدُ الدَّمَ في العروق! هل ستنتهي رحلتنا هكذا، على ما لم يكن في الحسبان، بالسُّقوط في مهاوي الأطلسيِّ، يا سيِّد هولكر؟"

"لا تخفْ؛ فهذه السُّفن أعجوبةٌ في التَّصميمِ والبناء ويمكنها أن تصمدَ حتَّى في البحر أمامَ أشدِّ الأمواج عنفاً. ألا ترى كيف أنَّ المهندسَين ومُدِيرَي الدَّفَّةِ مُرتاحا البال؟ يمكنك أن تفهمَ من ذلك أنَّهم يشعرون بطمأنينةٍ مُطلَقة".

"وأين نحن الآن؟" سألَ طوبي.

"في مكانٍ ما لا يبعدُ أقلَّ من أربعمائة أو خمسمائة ميلٍ عن سواحل إسبانيا" أجابَ القبطان الذي كان قد سمعَ سؤالَه.

"عن إسبانيا قلتَ؟ ربَّما كنتَ تريد أن تقول عن إنجلترا".

"لا، يا سيِّدي. فالرِّياحُ، بعد أن أبعدَتْنا عن السَّواحل الإنجليزيَّة، سحبَتْنا نحو الجنوب باتِّجاه جُزُر الكناريِّ".

"وهل سنعود إلى أوروبَّا بهذه الوسيلة؟" سألَ براندوك.

"لم يعد في مُكْنَةِ قنطوريَ المسكين معاودةُ الطَّيران. انظروا إلى الأجنحة والدَّواسر كيف تسحقها الأمواج. ولكن لا تعبأوا بذلك؛ فنحن نسير بسرعة أربعين ميلاً في السَّاعة، لأنَّ الآلات لم تتعطَّل. في غضون يومين نبلغ لشبونة أو قادِس، وفي تلك الموانئ ستجدون من البواخر ومن السُّفن الطَّائرة المتَّجهة إلى إنجلترا بقدْرِ ما تريدون".

"هل سنُضطَرُّ إذاً،" قالَ براندوك "إلى قطع تيَّار الخليج للعودة إلى أوروبَّا؟"

"طبعاً" أجابَ القبطان.

"هل ستسنحُ لنا الفرصةُ لرؤية تلك الطَّواحين الذَّائعة الصِّيت؟"

"بل إنَّني أتطلَّعُ فِعلاً إلى التَّوجُّه نحو الجزيرة رقم ٧ التي لم تروها بعدُ، لأرى ما إذا كان ممكناً أن أتخلَّص من ذلك الأسير المحتجَز في المقصورة الأخيرة. تقع تلك الجزيرة على بُعد خمسةٍ وعشرين ميلاً من مدينة إسكاريو البرتغاليَّة الغائصة تحت البحر؛ ولكن يمكنني صرفُ النَّظر عن رحلةٍ لا طائل منها إلى هناك".

"لا، يا سيِّدي القبطان" قالَ هولكر. "إنَّ صديقيَّ لم يريا بعدُ واحدةً من مناطق اللجوء تلك التي تؤوي أسوأ مُجرمي العالَم. نحن على استعدادٍ لدفع ضعف سعر التَّذكرة إذا ما أخذْتَنا إلى إسكاريو".

"لِيكنْ" أجابَ القبطان بعد تردُّدٍ لم يدُمْ طويلاً. "فمَن يدري! قد نجدُ هناك بعض الميكانيكيِّين القادرين على إصلاح سفينتي القنطور".

طواحينُ تيَّار الخليج

بعد ثماني عشرة ساعةً من ذلك، كان *القنطور*، الذي لم يتوقَّف لحظةً عن التَّقدُّم، يدخلُ مياهَ تيَّار الخليج على بُعد مِائةٍ وعشرين ميلاً شمالَ جزيرةِ ماديرا؛ والأهمُّ من ذلك، أنَّه وصلَ إلى هناك في وقتٍ كان فيه الطَّقسُ جميلاً للغاية، ذلك أنَّ الإعصار كان قد انقشعَ مِن ظهيرة اليوم السَّابق.

وكما تعلمون، فتيَّارُ الخليجِ هو نهرٌ عظيمٌ يجري عبرَ المحيط الأطلسيِّ من دون أن تختلط مياهه بمياه المحيط الذي يطوِّقه من جميع النَّواحي.

ما من مكانٍ آخر على وجه الأرض يوجد فيه مثل هذا التَّيَّار الرَّائع. فلهذا التَّيَّار سرعةُ جريانٍ تفوق تلك التي للأمازون، واندفاعُهُ أشدُّ من اندفاعِ المسيسيبِّي، ومعدَّلُ تدفُّقِ كتلتَي هذين النَّهرين، بما هما أكبرُ نهرين في العالَم، لا يمثِّل ولا حتَّى واحداً بالألف من حجم المياه التي يسوقها يوميَّاً ذلك التَّيَّار.

هذا "النَّهرُ البحريُّ"، كما يسمِّيه على نحوٍ ملائمٍ البحَّارةُ، يستمدُّ نقطةَ ابتدائه من مجموعةٍ هائلةٍ من الحيود والصُّخور البحريَّةِ التي تشكِّلُ أرخبيلَ جُزُرِ البَهاماس في بحر الأنتيل، ويقطعُ خليجَ المكسيك بأكمله، قبل أن يندفعَ عبرَ المحيط الأطلسيِّ، متَّجهاً نحوَ الشَّمال أوَّلاً، ثمَّ منعطِفاً نحو

الشَّرق، ليلامسَ شواطئ أوروبَّا، تاركاً دونما مساسٍ المياهَ الدَّافئة التي يجرُّها معه لآلافِ وآلافِ العُقَد البحريَّة.

"ستريان الآن واحداً من أعظم اختراعات علمائنا" قالَ هولكر حالما أصبح *القنطورُ* وسطَ مياه تيَّار الخليج. "ستريان أيَّ منفعةٍ استطاع علماؤنا اجتناءَها من هذا التَّيَّار العظيم الذي كان مُهمَلاً في عصركما. لَيَبدو أمراً غيرَ قابلٍ للتَّصديق أنَّ السَّادةَ علماءَكم لم يكترثوا أبداً بتلك القوَّة الهائلة التي تنطوي عليها هذه المياه".

"ما الذي فعلتموه أنتم بهذا "النَّهر البحريِّ"؟" سألَ طوبي. "كنتَ قد حدَّثتني عن الطَّواحين".

"هذا صحيحٌ، أيُّها العزيز" أجابَ هولكر.

"ما عساها تكون الفائدةُ المرتجاةُ منها؟"

"كما تعلم، يا سيِّدي العزيز،" قالَ هولكر "جميعُ آلاتنا تعملُ بالكهرباء، ولذلك فنحن في حاجةٍ إلى قوَّةٍ هائلةٍ لتشغيل مولِّداتنا العملاقة. لأمريكا الشَّماليَّة شلَّالاتُها المعروفة؛ ولتلك الجنوبيَّة أنهارُها الوافرة. في حين لا تملك أوروبَّا سوى بضعةِ أنهارٍ مع شلَّالاتٍ بائسةِ الحال، لا يُعوَّلُ عليها أبداً. فبماذا فكَّرَ علماؤنا إذاً؟ لقد التجأوا إلى المحيط الأطلسيِّ وصوَّبوا أنظارهم نحوَ تيَّار الخليج. وحقَّاً، يا لَها مِن قوىً هائلةٍ تلك التي استطاعوا اجتناءَها من ذلك "النَّهر البحريِّ"! قاموا بإنشاء جُزُرٍ ضخمةٍ عائمة، من صفائح الحديد المفولَذ، مزوَّدَةٍ بدواليبَ هائلةٍ مشابهةٍ لتلك التي لطواحينكم القديمة، وقطرُوها بعد ذلك حتَّى وصلوا بها إلى تيَّار الخليج، حيث أحكموا إرساءَها. ثمَّة في الوقت الحاضر أكثر من مِائتي جزيرةٍ من تلك الجُزُر،

منتشرةٍ قربَ السَّواحل الأوروبِّيَّة، ومثلُها تقريباً في خليج المكسيك، مسؤولةٍ عن تزويد منشآتِ أمريكا الوسطى، وكذلك السَّواحلِ الشَّماليَّةِ لغوايانا وفنزويلا وكولومبيا والبرازيل، بالطَّاقة اللازمة دونما أيِّ كلفةٍ تقريباً".

"وكيف يتمُّ نقلُ تلك الطَّاقة؟ عبرَ أسلاكٍ هوائيَّة؟"

"لا، يا خالي العزيز، عبرَ أسلاكٍ بحريَّةٍ غليظةٍ تشبه تلك التي كنتم تستخدمونها قديماً في نظام الإبراق العابر للأطلسيِّ".

"ما السُّرعة التي تجري بها مياهُ تيَّار الخليج؟" سألَ براندوك.

"من خمسةٍ إلى ثمانيةِ كيلومتراتٍ في السَّاعة" أجابَ هولكر.

"وتلك الجُزُر، أقادرةٌ هيَ على الصُّمود في وجه الأعاصير؟"

"إنَّها مثبَّتَةٌ بالمراسي بإحكام ثمَّ إنَّه، حتَّى إذا ما قُدِّرَ لتلك المراسي أن تتحطَّمَ، فإنَّ ذلك لن يعرِّض الرِّجالَ المكلَّفين بالإشراف على تلك الطَّواحين لأيِّ خطر، لِكون تلك الجُزُر أو بالأحرى تلك الأطواف الفسيحة غيرَ قابلةٍ للغرق".

"وما مقدار القوَّة التي يمكن أن تقدِّمُها كلُّ جزيرةٍ على حِدة؟"

"إنَّها تعادلُ قوَّةَ مليون حصان".

"أبقيَ شيءٌ لم ينتفع منه أبناءُ هذا العصر؟!" هتفَ طوبي. "حتَّى موجُ تيَّار الخليج الذي لم نكن نرى له أيَّةَ أهمِّيَّةٍ خلا نشرِ دفءٍ مُستعذَبٍ على شواطئ أيرلندا واسكتلندا، انتفعوا منه. يا لِلرِّجال! يا لِلرِّجال".

"يا سيِّد هولكر،" قالَ براندوك "في هذه المِائة سنةِ الأخيرة هل حدثَ أن انحرفَ تيَّارُ الخليج عن مجراه؟"

"لماذا تسألُني هذا السُّؤال؟"

"لأنَّنا في عصرنا كنَّا نخشى أن يؤدِّي فتحُ قناةِ بنما إلى حدوث تحوُّلٍ في مجرى التَّيَّار، بسبب قوَّة اندفاع مياه المحيط الهادئ".

"لا شيء من ذلك على الإطلاق، يا سيِّدي" أجابَ هولكر. "مَن ذا القادرُ على حَرْفِ تيَّارٍ عظيمٍ مثل هذا عن مجراه؟"

"وهل ما تزال السَّواحل البريطانيَّة تتنعَّمُ بالتَّأثيرات الطَّيِّبة لحرارة تلك التَّيَّارت الدَّافئة؟"

"لو لم يكن الأمرُ كذلك، لتحوَّلَتْ أيرلندا واسكتلندا، وحتَّى إنجلترا، إلى أراضٍ شبه قطبيَّةٍ، لِوقوعها تحت خطِّ العرض نفسِه الذي تقع تحته سيبيريا".

"الجزيرة رقم ٧!" سمعوا في تلك اللحظة أحداً يُنادي في الخارج.

"ها هي الطَّاحونة الأكثر ضخامةً والتي تخصُّ إنجلترا" قالَ هولكر.

خرجوا سِراعاً من الرُّواق، وهو ما كان بإمكانهم الإقدامُ عليه دونما خوفٍ من التعرُّض لأيِّ خطر، بما أنَّ الأمواج كانت هادئةً جدَّاً آنذاك. على بُعد ثلاثةِ أو أربعةِ أميالٍ نحو الشَّمال كان يُلمَح هوائيٌّ آخر منتصبٌ فوق برجٍ، ملوَّنٌ بالأحمر، ويتَّسمُ بعدمِ تناسبٍ بين ضخامته وارتفاعه.

"الهوائيُّ من أجل الإبراق اللاسلكيِّ" قالَ هولكر.

"وهل جميع الطَّواحين مزوَّدةٌ بهذه الهوائيَّات؟" سألَ براندوك.

"نعم؛ وذلك على سبيل الاحتراز. إذا حدثَ وحرَّكَتْ عاصفةٌ إحدى

الجُزُر العائمة وانجرفَتْ هذه بعيداً، فإنَّه يتمُّ إخطارُ أقرب محطَّةٍ بذلك، عبرَ برقيَّةٍ، فتهرع إلى هناك أقوى القاطرات المُتاحة لتعيدَها إلى مكانها".

القنطورُ الذي راحَ يتقدَّمُ بسرعةٍ هائلةٍ، بمساعدةِ شدَّة جريان تيَّار الخليج الذي كان مؤاتياً له وكان يقطع في ذلك المكان ثلاثةَ أميالٍ ونصفَ الميل في السَّاعة، سرعان ما انتهى به الأمرُ في مياه الطَّاحونة رقم ٧.

كما قالَ هولكر بالفِعل، كانت طوفاً هائلاً من صفائح الحديد المفولَذ، مستديرَ الشَّكل، بمحيطٍ قدرُه أربعمائة مترٍ؛ مزوَّداً في وسطِه بأربعة دواليبَ ضخمةٍ كان التَّيَّارُ يدوِّرُها بسرعةٍ ملحوظة.

بين الدَّواليب قامتْ أربعة منازل، من الحديد المفولَذِ أيضاً، ومن طابقٍ واحدٍ، مجهَّزةٌ بمانعاتِ صواعق؛ خُصِّصَ أحدُها كمستودعٍ للمؤن، وأمَّا الأخرى فللحرَّاس. كان ثمَّة أربعة مدرَّجاتٍ تنتهي في البحر، كلٌّ منها مجهَّزٌ برافعةٍ تحملُ قاربَ نجاة.

ما إن رأى الحرَّاسُ، وهُمُ اثنا عشر نفراً من الرِّجال، السَّفينةَ الطَّائرةَ المشوَّهةَ وهي تقترب، حتَّى هرعوا إليهم يسألونهم بمروءةٍ عمَّا إذا كانوا في حاجةٍ إلى مساعدة.

عندما تلقَّوا ردَّاً سلبيَّاً، دعوا المسافرين للصُّعود إلى الجزيرة لزيارة منازلهم، ولمشاهدة الآلات المعَدَّةِ لنقلِ الطَّاقة التي كانت تنتجُها تلك الدَّواليب العملاقة إلى إنجلترا.

كان يُحَافَظ على الجزيرة المصغَّرة في حالةٍ دائمةٍ من النَّظافة الصَّارمة. كانت هناك طُرُقاتٌ صغيرةٌ محفوفةٌ بصناديق حديديَّةٍ ملأى بالتُّراب،

بداخلها كان ينضجُ القُنَّبيطُ والقرعُ وغيرهما من صنوف الخضراوات الصَّالحة للأكل، أو حيث كانت تُجُفَّفُ، مُعلَّقةً على الحبال، أسماكٌ كبيرةٌ اصطيدَتْ في مياه التَّيَّار.

"كيف حالُكم هنا؟" سألَ براندوك أحدَ الحرَّاس الذي كان قد وضعَ نفسَه في خدمتهم كدليل.

"إنَّنا في أحسن حالٍ، يا سيِّدي".

"ألا تشعرون بالملل في هذا المكان المنعزل؟"

"أبداً، يا سيِّدي. فدائماً هنالك شيءٌ ما للقيامِ به في هذا المكان، ثمَّ ننصرف بعد ذلك إلى صيد الأسماك والطُّيور، إذْ يتوافدُ إلى هنا العديدُ من أنواع الطُّيور البحريَّة التي تجودُ علينا بأطباق المشويَّاتِ الفاخرة. كما أنَّ الحكومة البريطانيَّة ترسلُ كلَّ شهرٍ إلى هنا سفينةً لتزويدنا بالمؤن وبكلِّ ما قد يلزمنا. زِدْ على ذلك أنَّ كلَّ عامٍ لدينا إجازةً مدَّتها شهرٌ نقضيها في الوطن. ماذا يمكن أن نشتهي أكثر من ذلك؟"

"وماذا عن العواصف؟"

"أوه! إنَّها مثارُ ضحكٍ، يا سيِّدي، وليست على الإطلاق ممَّا يقضُّ مضاجعنا".

بقيَ الأصدقاءُ الثَّلاثةُ لبضعِ ساعاتٍ على الجزيرة العائمة، وشربوا بضع زُجاجاتٍ صُحبةَ الحرَّاس؛ ثمَّ في حوالي الرَّابعة ظهراً استأنف *القنطور* رحلتَه صوبَ سواحل أوروبَّا لإنزال السَّجين في مدينة إسكاريو الغائصة.

المدينةُ الغائصة

وحيث إنَّ المحيطَ بقيَ مُحافظاً على هدوئه، بعدَ الغضبةِ الأخيرةِ الهوجاء للإعصار، فإنَّ القنطورَ راحَ يتقدَّمُ دونما أدنى مشقَّةٍ مثلَ باخرةٍ حقيقيَّة، بديعاً في إبحاره.

لم يكن بالطَّبع قادراً على مباهاةِ عابراتِ أطلسيٍّ ذلك العصرِ الحقيقيَّة، تلك المجهَّزة بسرعاتٍ غير اعتياديَّة؛ ولكنْ لا شيء كان ينقصه بالمقارنة مع عابراتِ أطلسيٍّ القرن المنصرم والتي كان من الممكن أن يتغلَّب عليها بسهولةٍ في أيِّ سباق.

كان براندوك وطوبي مستمتعَين للغاية بتلك الرِّحلة البحريَّة. أمضيا ساعاتٍ كاملةً في أعلى الرُّواق، حيث كان ثمَّة جسرٌ معدنيٌّ صغيرٌ يمتدُّ من الجؤجؤ إلى الكوثل، وهما يتنشَّقان ملءَ رئتيهما نسائمَ البحرِ الصِّحِّيَّة، ويدخِّنان سجائر فاخرةً أهداها لهما القبطان، ويشرِّفان فوق كلِّ شيءٍ بحضورهما موائدَ الطَّعام، لِما كانا يتمتَّعان به من شهيَّةٍ يُحسدان عليها.

وقد كانا أفضل حالاً بكثيرٍ لأنَّهما لم يعودا يشعران بتلك الاضطرابات الغريبة والنَّفضاتِ العصبيَّة التي كانت قد أمضَّتهما غيرَ قليلٍ عندما كانا يعبران فوق المدن الأمريكيَّة الكبيرة وفوق العَنَفات العملاقة لشلَّالات نياجارا.

طَوال ذلك الوقت لم يتركهما هولكر دقيقةً واحدة، مناقشاً إيَّاهما بحماسةٍ في شؤون المستقبل وفي المشاريع الفريدة التي كان علماءُ الألفيَّة الثَّالثة منكبِّين على دراستها، ومقدِّماً لهما التَّفسيرات حول آلاف الأشياء التي لم يسبق لهما أن رأياها، بسبب السُّرعةِ التي كانا يسافران بها.

"يا سيِّد هولكر" قالَ براندوك ذاتَ ظهيرةٍ، بينما كانوا يرتشفون القهوةَ على جسرِ الرُّواق. "كيف سنجدُ أوروبَّا؟ كما كانت قبل مِائة عامٍ أم أنَّ تغييراتٍ سياسيَّةً حدثَتْ في مختلف بلدانها؟"

"نعم، الكثير من التَّغييرات، وذلك للحفاظ على السَّلامِ بين مختلف الشُّعوب، ماحِين بذلك عهدَ الحروبِ إلى الأبد" أجابَ حفيدُ طوبي.

"ماذا حدثَ لبريطانيا العُظمى؟"

"إنَّها اليوم بريطانيا صُغرى، ولكنَّها بقيَتْ ثريَّةً كما كانت دوماً ومُثابرة".

"لماذا تنعتُها بالصُّغرى؟"

"لأنَّها خسِرَتْ كلَّ مستعمراتها، بعد أن انفصلَتْ هذه شيئاً فشيئاً عن الوطن الأم. كندا اليوم دولةٌ مستقلَّة؛ أستراليا كذلك، وجنوب إفريقيا لم يعد لديها أيُّ شيءٍ مشتركٍ مع بريطانيا. حتَّى الهند شكَّلَتْ دولتَها المستقلَّة بِمنأىً عنها".

"إذاً تلك الإمبراطوريَّة الاستعماريَّة العظمى؟..." تساءَلَ طوبي.

"تفكَّكَتْ بالكامل" أجابَ هولكر.

"من دون حروبٍ؟"

"كلُّ تلك المستعمَرات انضمتْ إلى عُصبةٍ واحدةٍ لتعلن استقلالَها في نفس اليوم، فلم يبق أمامَ بريطانيا ما تفعلُه سوى الإذعان لئلَّا تشكِّلَ تلك المستعمراتُ معاً وِقْراً ثقيلاً عليها".

"لقد بدأتِ الإمبراطوريَّة بالانهيار فِعلاً منذ أيَّامنا" قالَ براندوك. "وماذا عن روسيا؟"

"لقد خسِرَتْ سيبيريا، بعدما استقلَّتْ هذه عنها، معَ مَلِكٍ ينتمي إلى الأسرة الرُّوسيَّة. والنِّمسا خسِرَتْ مقاطعاتِها الألمانيَّة، أمَّا هنغاريا، وقد نالَتْ استقلالَها، فإنَّها تحتلُّ اليومَ تركيا الأوروبِّيَّة".

"وماذا حدثَ للمقاطعات؟"

"ابتلعتْها ألمانيا، في حين أُعِيدَتْ "إستريا" و"ترينتينو" إلى إيطاليا جنباً إلى جنبٍ مع مستعمَراتِ دَلْماسِيَة القديمة التي كانت تحت سيادة ڤينيسيا".

"إيطاليا إذاً؟..."

"إنَّها اليوم أقوى الدُّول اللاتينيَّة، بعدما استعادَتْ أيضاً "مالطة" و"نِيس" و"كورسيكا"".

"وتركيا، ماذا عنها؟"

"لقد رُفِضَتْ كلِّيَّاً في آسيا الصُّغرى وفي العالَم العربيِّ، ولم تحتفظ في أوروبَّا إلَّا بالقسطنطينية، المدينةِ التي كانت مرامَ الكثير من الأمم، والتي كان من الممكن أن تصبحَ سبباً خطيراً لِخِلافٍ دائم. آه! لقد فاتني أن أقولَ لكما إنَّ دولةً جديدةً قد نشأتْ".

"أيُّ دولة؟"

"الدَّولة البولنديَّة، التي تشكَّلت من المقاطعات البولنديَّة المقسَّمة بين روسيا، والنِّمسا، وألمانيا. لقد كان الوضع في أوروبَّا قبلَ خمسين عاماً مُقلقَلاً على نحوِ خطيرٍ، الأمر الذي كان يهدِّدُ باندلاع حربٍ مُخيفة. ولذلك فكَّرَ الملوكُ ورؤوساءُ الجمهوريَّات في تسويةٍ أفضل للخريطة الأوروبِّيَّة خلالَ مؤتمرٍ كبيرٍ عُقِدَ في لاهاي، مركزِ صُنعِ السِّياسةِ العالميَّة. تمَّ الاتِّفاقُ على استعادةِ جميع الدُّول للمقاطعات التَّابعة لها وفقاً للحقوق الجغرافيَّة والتَّاريخيَّة، وعلى إنشاء دولةٍ جديدةٍ أيضاً، هي بولندا، التي كانت تمثِّلُ تهديداً باندلاع حربٍ بين روسيا، والنِّمسا، وألمانيا. وهكذا أصبح السَّلامُ أمراً مضموناً بفضل التَّدخُّل القويِّ من قِبَل الكونفدراليَّات الأمريكيَّة والمستعمرات البريطانيَّة القديمة التي طوَّعَتْ كما ينبغي الأمَمَ النَّاشزة. اليوم، ومنذ عشر خمسيَّاتٍ، يخيِّمُ سلامٌ مُطلَقٌ على القارَّة الأوروبِّيَّةِ العجوز".

"ومَن الذي يسوِّي القضايا التي قد تطرأ؟"

"محكمةُ لاهاي التي باتت جميعُ دول العالَم تعترف بها اليوم. مِن جهةٍ أخرى، وكما قلتُ سابقاً، الحروبُ في أيَّامنا هذه أصبحتْ أمراً بعيدَ الاحتمال، وستؤدِّي إلى إبادةِ الدُّول المتحاربة عن بكرةِ أبيها".

"أوه!" هتفَ في تلك اللحظةِ طوبي وكان قد نهض. "انظرا إلى القمر يصعدُ هناك! كم يبدو مهولاً! لم يسبق لي قَطُّ أنْ رأيتُه بهذه الضَّخامة. حتَّى القمرُ أدخلتم عليه تغييرات؟"

نهضَ هولكر هوَ الآخر.

كان الظَّلام قد بدأ بالهبوط، وجهةَ الشَّرق كان ثمَّة نصفُ قرصٍ عملاقٍ يتلألأ على سطح الماء، ناشراً من حولِهِ ضوءاً قويَّاً يميلُ قليلاً إلى الزُّرقة.

"تغييراتٌ على القمر!" هتفَ هولكر. "أنتَ مخطئٌ يا سيِّدي".

"ماذا يمكن أن يكون؟"

"إنَّها قبَّةُ مدينة إسكاريو الغائصة".

"أودُّ أن أعرف لماذا أنشأتم مدناً غائصةً لا بدَّ وأنَّها كلَّفَتكم مبالغَ طائلة".

"ببساطةٍ لكي نخلِّصَ المجتمعات من الأشخاص الخطِرين الذين يخِلُّون بأمنها. لكلِّ دولةٍ واحدةٌ منها، بعيدةٌ قدرَ الإمكان عن سواحلها، ترسِلُ إليها حُثالةَ المجتمع، اللصوصَ السَّادرين في غيِّهم، والفوضويِّين الأشدَّ خطراً، والقتَلَةَ الأكثر دمويَّةً".

"مع أعدادٍ كبيرةٍ من الحرَّاس؟"

"ولا حتَّى واحد، يا خالي العزيز".

"يُذبَّحون بالجملةِ إذاً".

"الأمرُ مختلفٌ تماماً. هُم يعلمون جيِّداً أنَّ المدينةَ سيتمُّ إغراقُها دونما رحمةٍ عندَ أقلِّ اضطرابٍ قد يثيرونه. ولقد أثمرَ هذا التَّهديدُ نتائجَ ما كان أحدٌ يتوقَّعها. الخوفُ يروِّضُ تلك الحيوانات الضَّارية التي ينتهي بها المطافُ مُستأنَسَةً تماماً".

"ومَن يحكمُهم؟"

"هذا شأنٌ يتعلَّق بهم. هُمُ الذين ينتخبون زعماءَهم، وإلى الآن يبدو أنَّ جوّاً رائعاً من الوئام يسودُ في تلك الإصلاحيَّات؛ ثمَّ إنَّ هناك شيئاً آخرَ يساعدُ على جعلِهم مِطواعين".

"ما هو؟"

"الصِّراعُ المستمرُّ مع الجوع".

"ألا تنقلُ الحكوماتُ المؤن الغذائيَّةَ إلى أولئك المدانين؟"

"بل تنقلُ إليهم شِباكاً، وآلاتٍ لتصنيعِ مختلف المنتجات، كالمنسوجات، والأحذية، والأواني وما إلى ذلك من الأشياء التي يبيعونها بعد ذلك للسُّفن التي ترسو عندَهم، ليشتروا في المقابل الموادَّ الأوَّليَّة اللازمة لتلك الصِّناعات، والتَّبغَ، والمؤن الغذائيَّة وما إلى ذلك".

"أيحدُث في بعض الأحيان أن يعانوا الجوعَ؟" سألَ براندوك.

"المحيطُ يمدُّهم بأكثر ممَّا يحتاجون من الطَّعام. فالأسماك المنجذبةُ إلى الضَّوء الذي ترسلُهُ المصابيح التي تنير تلك المدينة، تتدفَّق في أسرابٍ كبيرة. بل إنَّ قاطني تلك المدن يعمدون إلى تمليحها بكمِّيَّاتٍ كبيرةٍ ويرسلونها مِن ثَمَّ إلى أوروبَّا وكذلك إلى أمريكا".

"والماء؟"

"لديهم آلاتٌ تعطيهم منه بقدر ما يشتهون، وذلك بتبخير مياه البحر".

"لم يعد السُّجناءُ إذاً يكلِّفون المجتمعَ شيئاً" قالَ طوبي.

"إنَّهم لا يكلِّفونه سوى الطَّاقة اللازمة لتشغيل آلاتهم، والتي غالباً ما يتمُّ توفيرها مِن قِبَلِ طواحين تيَّار الخليج".

"لا بدَّ وأنَّ تلك المدن كلَّفَتْ مبالغَ طائلةً!" قالَ براندوك.

"لا أقولُ لا، ولكن أيُّ منفعةٍ لم تحصل عليها الدُّوَلُ والمجتمعات من ذلك؟ فالملايين التي كانت تُنفَق على إعالةِ الكثير من الأوغاد، تبقى الآن محفوظةً في خزائن الحكومة، أضِفْ إلى ذلك أنَّ "البُعبُعَ" المتمثِّلَ في إرسالهم إلى مدينةٍ تحت الماء قد قلَّصَ إلى حدٍّ كبيرٍ من عدد الجرائم".

"ألا نعرِّض أنفسنا للخطر بالدُّخول، أو بالأحرى، بالنُّزول إلى إسكاريو؟" سألَ طوبي.

"لا خطر في ذلك على الإطلاق، كُن واثقاً. إنَّهم يعلمون أنَّ أيَّ إساءةٍ مِن قِبلهم لأحد الغرباء ستؤدِّي إلى إغراق مدينتهم".

"إنَّه تدبيرٌ لاإنسانيٌّ إلى حدٍّ ما، إذا جازَ القول".

"ولكنَّه يكبحُ جماحَهم، وأيُّ كَبْح! ها قد وصلنا. لا بدَّ وأنَّ القبطان يُبْلِغَهم في هذه الأثناء بوصولنا؛ لأنَّني أسمعُ صوْتَ الأجهزةِ الكهربائيَّة تعمل".

توقَّفَ *القنطورُ* أمامَ قبَّةٍ هائلةٍ لا بدَّ وأنَّ محيطَها كان يبلغُ على الأقلِّ أربعمائةِ مترٍ، مصنوعةٍ من ألواحٍ زجاجيَّةٍ مستديرةٍ معشَّقةٍ بإحكامٍ وسميكةٍ للغاية، كما أنَّها معزَّزَةٌ بقضبانٍ ذات ثخانةٍ غير اعتياديَّةٍ من حديد التَّسليح المفولَذ.

شبيكةٌ من الحديد كانت تغطِّي القبَّةَ بكاملها لتؤمِّن لها حمايةً أفضل من الأمواج، وكان يحيطُ بها سردابٌ مليءٌ بشِباك صيدٍ وُضِعَتْ هناك لتجفَّ.

على القمَّة، حيث كان ثمَّة فتحةٌ كما بدا الأمرُ، ظهرَ رجلان مُسِنَّان كانا يرتديان لباساً من قماشٍ خشنٍ وينتعلان حذاءين بحريَّين عاليَي الرَّقبة.

أدنى القبطانُ السَّفينةَ باحتراسٍ إلى أحد السَّلالم الحديديَّة الأربعة التي كانت تؤدِّي إلى قمَّة القبَّةِ المتلألئة، داعياً المسافرين إلى اللحاق به.

"إنَّني معروفٌ هنا" قال. "ليس هنالك ما يدعو إلى القلق".

تقدَّمَ الأصدقاءَ الثَّلاثةَ وألقى التَّحيَّةَ على أحد الرَّجلين بكلِّ تهذيبٍ وألفة:

"مساءُ الخير أيُّها الأبُ جاو. كيف تمضي الحياةُ هنا؟"

"على أحسن ما يُرام، أيُّها القبطان" أجابَ الرَّجل، رافعاً قبَّعته بأدبٍ أمامَ المسافرين الثَّلاثة.

"أما يزالُ رعاياكم وُدَعاء؟"

"ليست لديَّ أيَّة شكوى حولهم. ثمَّ، لماذا عليهم أن يصبحوا سيِّئي الخلُق؟ إنَّنا نعيش في رغدٍ، ولا شيء ينقصنا".

"معي هؤلاء السَّادة الذين يرغبون في زيارة مدينتكم. أتأخذُ على عهدتكَ شأنَ سلامتهم؟"

"كلِّيَّاً: إنَّهم موضعُ ترحيب".

"أقدِّمُ إليكم حاكمَ المستعمَرِة" قالَ القبطان، ملتفتاً إلى براندوك، وطوبي، وهولكر.

"اتبعوني، أيُّها السَّادة" قالَ المعتقَلُ، بابتسامةٍ وَدُود.

"آه! عليَّ أن أترك عندكم أحدَ المطرودين من أوروبَّا، مواطناً بريطانيَّاً ستسلِّمونه لاحقاً إلى إحدى السُّفن التَّابعة لدولته" قالَ القبطان. "من الصَّعب عليَّ القيام بذلك، فالإعصارُ أعطبَ أجنحة سفينتي ودواسرَها".

"سلِّمني إيَّاه؛ سوف أهتمُّ أنا بشأنه. فلننطلقْ، أيُّها السَّادة، فبعد نصف ساعةٍ سأوعزُ في دقِّ ناقوسِ الصَّمت وحينذاك ستنطفئ جميع المصابيح".

قادَ المسافرين الثَّلاثة والقبطانَ إلى ما يشبه جُبَّاً كان مفتوحاً في منتصف القبَّة حيث وجدوا المصعدَ جاهزاً في انتظارهم.

أجلسَهم على المقاعد وهبطَتِ الآلةُ بهم بسرعةٍ مارَّةً وسطَ حلقةٍ من مصابيح الرَّاديوم التي كانت تسكبُ تيَّاراتٍ من الضَّوء في جميع الاتِّجاهات.

بانشداهٍ واضحٍ على مُحيَّي براندوك وطوبي، اللذَين لم يستطيعا تصديق أعينهما، وجدا نفسيهما في ساحةٍ كبيرةٍ مستطيلةِ الشَّكل، بطول مِائة مترٍ وعرضِ ستِّين، ومحاطةٍ بالكامل بسُرادِقاتٍ فائقة الجمال مع سقائف من التُّوتياء، مقسَّمةٍ إلى مقصوراتٍ صغيرةٍ مخصَّصةٍ للسُّجناء. خلفَها كان ثمَّة سُرادِقاتٌ أخرى مزوَّدَةٌ بأنابيب معدنيَّة.

في السَّاحة نفسِها كان ثمَّة عددٌ كبيرٌ من البراميلِ والقَصَباتِ والشِّباك المكدَّسةِ هنا وهناك كيفما اتَّفق.

"هاكُم مدينتي" قالَ الحاكمُ "هي كلُّ ما ترونه هنا".

"كم يبلغ عددُ سكَّانها؟" سألَ طوبي.

"لدينا ألفٌ ومِئتا نزيلٍ، ستُّون سُرادِقاً وعشرون مَشغَلاً، حيث يعملُ كلُّ مَن لا يشتغلُ بالصَّيد".

"أين تجثمُ المدينة؟" سألَ طوبي.

"على قمَّةِ جزيرةٍ صغيرةٍ مغمورة، على عمق خمسة عشر متراً".

"ألا تهتزُّ المدينة عندما تثور العواصف في الخارج؟"

"لا شيء من هذا القبيل، يا سيِّدي؛ فالجدران المصنوعة من ألواح الحديد المفولَذ، والمعزَّزة بإحكامٍ بأعمدةٍ ضخمةٍ من الحديد المغروزِ عميقاً في الصَّخر، قادرةٌ على تحمُّل أيَّةِ صدمة. ثمَّ لا بدَّ وأنَّكم تعلمون أنَّه على عمق ثمانية أو عشرة أمتارٍ تحت مستوى الماء لا يشعر المرءُ بالأمواج. إنَّها القبَّة التي تقاومُ زخمَ الأمواج كلِّها وتستطيعُ أن تتحدَّاها من غير أن تنالَ عقاباً على ذلك".

"أليسَ رائعاً كلُّ هذا، يا سيِّد براندوك؟" سألَ هولكر.

"إنَّه عالَمٌ جديد" أجابَ الأمريكيُّ. "لم أتوقَّع يوماً أن أرى، بعد مِائةِ عامٍ فحسب، كلَّ هذه الأمور الجديدة غير العاديَّة!"

نظرَ رُبَّانُ القنطورِ إلى براندوك بانشداه.

"مِائة عامٍ، قلْتَ!" هتفَ.

"كنتُ أمزح" أجابَ الأمريكيُّ. "قل لي، أيطيعُكَ رعاياك دائماً؟"

"إنَّني لا آمُرُهم بفِعْلِ هذا الأمرِ أو ذاك" أجابَ زعيمُ المدينة الغائصة. "مَن لا يعمل لا يأكل، ولذلك فإنَّهم مُرغَمون جميعاً على عملِ شيءٍ ما مِن دون أن أفرضه أنا عليهم".

"ألم تندلع أيُّ ثوراتٍ هنا؟" سألَ طوبي.

- "لأيِّ غرضٍ سيثورون؟ أنا لستُ ملِكاً، ولا أمثِّلُ أيَّةَ سُلطة. لو لم يكونوا راضين عنِّي لطلبوا منِّي أن أترك المنصبَ لأحدٍ آخر، وعندَ هذا الحدِّ ينتهي كلُّ شيء".

في تلك اللحظة تردَّدَ رنينٌ كئيبٌ داخلَ القبَّةِ الهائلة جاعلاً المنافذ الزُّجاجيَّة تهتز.

"إنَّه الرَّعد" قالَ رُبَّانُ القنطور، وقد اكفهرَّ جبينُه. "هل قرَّرتْ جميعُ البلايا أن تقع على رؤوسنا هذه المرَّة؟"

"إنَّنا في موسم تقلُّب الرِّياح التِّجاريَّة، والطَّقسُ يصبحُ سيِّئاً بين الفينةِ والأخرى".

"فلنصعدْ، أيُّها السَّادة".

أخذَتِ الثُّلَّةُ الصَّغيرةُ مكانها في المصعد وفي غضون دقائق قليلةٍ كان أفرادُها واقفين على سطحِ القبَّة الهائلة.

كان المحيطُ قد اتَّخذ مظهراً مُريعاً، وكانت السَّماء أكثر إراعةً منه.

من الغربِ كانت تجيءُ أمواجٌ ضخمةٌ، وغيومٌ قاتمةٌ كانت تتقدَّمُ بسرعةٍ مدوِّخة. في البعيد كان الرَّعدُ يقصِفُ هادراً.

"إنَّه إعصارٌ حقيقيٌّ على وشك أن يندلع، يا سادتي" قالَ رُبَّانُ القنطور. "مع سفينةٍ معطوبةٍ إلى هذه الدَّرجة لن أجرؤ على استئناف الرِّحلة إلى أوروبَّا".

"هل سنُضطرُّ إذاً إلى قضاء الليل هنا؟" سألَ براندوك قلِقاً.

"لدينا أسِرَّةٌ وثيرة، ويمكنني أيضاً أن أقدِّم لكم عشاءً شهيّاً، قوامُهُ السَّمَكُ طبعاً" قالَ جاو. "ولن يزعجكم رفاقي على الإطلاق، أؤكِّدُ لكم ذلك".

"ولكنْ لديَّ مخاوفُ بشأن سفينتي" قالَ رُبَّان القنطور. "فالأمواجُ، بعتوِّها هذا، يمكن أن تقذفَ بها على القبَّة".

"القاعُ جيِّدٌ حولَ هذا الحيد الصَّخريِّ وسوف تبقى مراسيكم راسخةً لا يُزحزحُها شيء".

"شيءٌ آخرُ بَعْدُ ما يزالُ يُقلِقني. أينامُ رفاقُك دائماً، في الليل؟"

"لماذا تسألني هذا السُّؤال؟" سألَ جاو مندهشاً.

"أجبني أوَّلاً".

"عندما تثور العاصفة، ولا يكون هنالك قمر، يفضِّلون الرَّاحة لأنَّ رميَ الشِّباك سيكون من دون طائل. في هذه الليلة المريعة لن يترك أحدٌ منهم فِراشَه".

"أتضمن لي ذلك؟"

"أتحمَّل كاملَ المسؤوليَّةِ عنهم".

"إنَّما سألتُكَ ذلك السُّؤال لأنَّني أنقلُ حمولةً من الكحول مُعدَّةً لا أدري لأيَّةِ تركيباتٍ كيميائيَّة".

"لا أحد يعلم بذلك، وبالتَّالي يمكنكم أن تناموا قريري العين" أجابَ

جاو. "ثمَّ لا بدَّ أنَّ رعاياي، كما تسمُّونهم أنتم، قد فقدوا الآن كلَّ رغبةٍ في الشُّرب، لأنَّه ممنوعٌ منعاً باتَّاً بيعهم مشروباتٍ روحيَّة. وأيُّ سفينةٍ تعمدُ إلى تزويدهم بها سيتمُّ مصادرتها على الفور من قِبَل "المراقبين"".

"ومَن يكون هؤلاء؟" سألَ براندوك الذي كان دوماً الأكثر فضولاً بين الجميع.

"إنَّها سفنٌ خاصَّةٌ تابعةٌ لجميع الدُّول، مكلَّفَةٌ بمراقبة جميع المحيطات وتقديم المساعدة للمبحرين. أيُّها السَّادة، أتقبلون دعوتي لكم إلى العشاء والنَّومِ في كوخيَ المتواضع؟ قد يكون أمراً محفوفاً بالمخاطر النَّومُ على متن القنطور مع هذا الإعصار القادم".

"وماذا عن رجالي؟" سألَ القبطان.

"حالما ينتهون من إنزال المراسي وتثبيت السَّفينة جيِّداً سينزلون هم أيضاً إلى المدينة الغائصة" أجابَ جاو. "سأُحِلُّهم ضيوفاً عندَ بعض المرحَّلين الذين يتمتَّعون بمنزلةٍ كبيرة".

"منزلةٍ كبيرة" تذمَّرَ براندوك.

"هيَّا أيُّها السَّادة" قالَ جاو.

اندلعَ الإعصارُ في تلك اللحظة بهياجٍ لم يسبق له مثيل. عصفاتٌ هائجةٌ راحت تمزِّق المحيط، رافعةً أمواجاً عملاقةً كانت بدورها تتحطَّمُ، مع خوارٍ وجؤارٍ مُخيفَين، على جدران قبَّة المدينة الغائصة.

القنطور، المهتزُّ والمصطفِقُ بقوَّة، كان يرتفعُ مثلَ كرةٍ مطَّاطيَّةٍ على الرَّغم من أنَّه ألقى كلَّ مراسيه.

"إنَّها ليلةٌ وبيلة" قالَ القبطانُ وهو يهزُّ رأسَه. "لا أعلم ما إذا كانت سفينتي المسكينة ستتمكَّن من الصُّمود".

بعد أن نبَّهوا الطَّاقم إلى ضرورةِ مغادرةِ السَّفينة في أسرع وقتٍ ممكنٍ والانضمام إليهم، أخذوا مكانهم في المصعد وهبطوا في السَّاحة الصَّغيرة التي كانت ما تزال مُضاءةً بصورةٍ جميلةٍ وحيث كان العديد من المرحَّلين ما يزالون عازمين على ترقيع شِباكهم لكي تكون جاهزةً عندما يهدأ المحيط.

قادَ جاو ضيوفَه إلى منزلٍ صغيرٍ جميل، مبنيٍّ بالكامل من صفائح الحديد، ومقسَّمٍ إلى أربع غرفٍ صغيرةٍ أشبه ما تكون بالقُمْرات، لِكون المساحةِ شيئاً نادراً وثميناً جدّاً في تلك المدينة الغريبة، بل وأثمن من أن يُجيزَ المرءُ لنفسِه رفاهيةَ امتلاك غرفٍ أكثر اتِّساعاً.

أدخلَهم جاو إلى مكتبه الخاصِّ الذي كان يخدمُ في الوقتِ نفسِه كحجرةِ طعامٍ، طلبَ منهم الجلوسَ وقدَّمَ لهم، بنفْسِه (إذْ لم يكن له خدَمٌ تحت تصرُّفه، لأنَّه لم يكن مسموحاً حتَّى للحاكم أن يتمتَّع بصلاحيَّاتٍ خاصَّة) أطباقاً من السَّمَك الفاخر مطهيَّةً في الصَّباح وأرغفةً كبيرةً مستديرة.

كان العشاءُ مؤلَّفاً على وجهِ الحصرِ من المنتجات البحريَّة مع مُشهِّياتٍ من حشائش البحر الصَّغيرة المخلَّلَة بدِرايةٍ وزجاجةٍ واحدةٍ من النَّبيذ لعلَّ جاو كان يحتفظ بها لبعض المناسبات الكبيرة، ومع ذلك فقد استلذَّه رُكَّابُ القنطورِ كثيراً، أولئك الذين لم تكن شهوةُ الأكلِ أمراً معيباً في عُرفِهم.

ولَمَّا كانوا جميعاً مُتعَبين، فقد قادهم الحاكمُ إلى الغرفةِ المعدَّةِ لهم، والتي لم تكن أكثر من قُمْرةٍ أخرى بالكاد تتَّسع لبراندوك وطوبي وهولكر.

بعد ذلك غادرَهم ربّانُ القنطور ليرى ما كان مِن حالِ الإعصار، ولينقذَ على الأقلّ طاقمَه.

"حسناً يا طوبي" قالَ براندوك عندما صاروا وحدَهم. "يبدو أنَّ العالَمَ قد تغيَّر، ولكنَّ الطَّبيعة لم تفقد من وحشيَّةِ جبروتها شيئاً. أبناءُ هذا العصر، الرَّائعون حقّاً، لم يُفلِحوا في إسكاتها".

"مَن يعلم! قد يُفلِحون ذات يومٍ في تحقيق هذه المعجزةِ أيضاً" أجابَ طوبي. "فمثلما في عصرنا نجحوا في حبس البرق، كذلك ذاتَ يومٍ سينتهي الأمرُ بهؤلاء البشر الفائقي القدرة إلى قهرِ غضبِ المحيطات وهياجِ الرِّياح. إنَّ لديَّ اعتقادٌ راسخٌ بأنَّه لم يعد هناكِ ما هو مستحيلٌ بالنِّسبة إلى علماء الألفيَّةِ الثَّالثة".

"في انتظار ذلك، سأنام" قالَ براندوك. "لا أعلمُ من أيِّ شيءٍ ينشأ ذلك، ولكنْ منذ بعض الوقت وأنا أجدُ نفسي منهَكاً كلِّيّاً وأشعرُ أيضاً بتشوُّشٍ غريبٍ في دماغي. عندما أستيقظ في الصَّباح، أشعرُ بأعصابي ترتعدُ كما لو كانت تتلقَّى صدماتٍ كهربائيَّة. أتستطيع أن تفسِّر لي، أنت الذي قبلَ مِائةِ عامٍ كنتَ طبيباً، هذه الظَّواهر التي أعترفُ لك صراحةً بأنَّها في بعض الأحيان تُرعبُني؟"

"أنا اليومَ لا أساوي شيئاً على الإطلاق أمامَ الأطبَّاء المعاصرين" قالَ طوبي متنهِّداً. "غيرَ أنَّني أعزوها إلى التَّوتُّر الكهربائيِّ العالي الذي يهيمنُ اليومَ على هذا الكوكب المسكين. آملُ في جميع الأحوال أن تنتهي بك الحالُ إلى التَّكيُّف معه".

ارتموا على أسِرَّتهم الضَّيِّقة، أطفأوا مصباحَ الرَّاديوم وأغمضوا أعينهم،

فيما كان الرَّعدُ يجأرُ في البعيد بقوَّةٍ كبيرةٍ جعلَتْ زجاجَ القبَّةِ يهتزُّ. كانوا قد ناموا لعدَّة ساعاتٍ عندما استيقظوا فجأةً على وقعِ صراخٍ جماعيٍّ مُرعبٍ وعلى صوتِ تهشُّمٍ فظيع.

كان طوبي أوَّلَ مَن قفزَ خارجَ السَّرير، مُشعِلاً المصباحَ مرَّةً أخرى.

"ماذا هناك؟" سألَ براندوك مرتدياً ملابسه على عُجالة.

"هل تهشَّمَتِ القبَّة؟" صاحَ هولكر، مرتعباً.

"لا أعلم" أجابَ طوبي الذي لم يكن أقلَّ منه تأثُّراً. "ولكنَّه بالتَّأكيد أمرٌ وبيل".

في تلك اللحظةِ فُتِحَ البابُ واندفعَ رُبَّانُ القنطورِ إلى داخل القُمْرَةِ حاملاً في يده مسدَّساً كهربائيَّاً كبيراً.

"لقد جُنَّ جنون المرحَّلين!" صاحَ. "اتبعوني على الفور".

"جُنَّ جنونهم!" هتفَ براندوك، وطوبي، وهولكر. "أوضِحْ لنا".

"هيَّا، سأوضِحُ لاحقاً! أسرعوا، قبلَ أن تقع مجزرة".

اندفع الأصدقاء الثَّلاثة خارجَ الكوخ من دون طرحِ أيَّة أسئلةٍ أخرى. وجدوا جاو في انتظارهم. كان الرَّجل المسكين ينتفُ شَعرَه ويسبُّ ويجدِّفُ بجميع اللغات.

كانت المصابيحُ قد أُنيرَتْ من جديدٍ في السَّاحة الصَّغيرة، وتحت تلك الومضات من الضَّوء الكثيف كان قاطنو المدينة الغائصة يتحرَّكون باهتياجٍ كالمخبولين.

كان القبطان مُحِقّاً في قولِهِ بأنَّهم أصبحوا جميعاً مجانين.

كانوا يصرخون، ويقفزون، ويلطمون أنفسَهم، ويرتمون على الأرض متدحرجين وسطَ جلجلةٍ مروِّعة، ناجمةٍ عن قضبان الحديد التي كانوا يضربون بها بجنونٍ على الجدران المعدنيَّة التي كانت تحميهم من اجتياحِ مياه المحيط لمدينتهم.

"ولكنْ ما الذي حصل؟" سألَ طوبي.

"ما كنتُ أخشاه" أجابَ رُبَّانُ القنطور. "ألا تشمُّ هذه الرَّائحة؟"

"آه بلى، هواءُ المدينةِ موبوءٌ بالكحول".

"إنَّه كحولي أنا، ذلك الذي كان عليَّ أن أنقله إلى هامبورغ ولكنَّ هؤلاءِ الأشقياء نهبوه".

"وماذا عن القنطور؟" سألَ براندوك.

"وما أدراني أنا؟ لا أعلم إن كان ما يزال عائماً أم إنَّه قد غرق".

"وملاَّحوك؟"

"لم أرَهم مرَّةً أخرى".

"أيُّها الأصدقاء،" قالَ طوبي "لم يبق أمامنا إلَّا ركوب المحيط، قبلَ أن يتحوَّل كلُّ هؤلاء الزُّعر إلى مجانين هائجين. فما دام في حوزتهم شيءٌ من الكحول فإنَّهم سيواصلون الشُّرب ويمكن أن يصبحوا خطِرين. فلننجُ بأنفسنا بأسرع ما يمكن".

التفُّوا إلى خلف المنازل يقودهم جاو العجوز الذي كان ينشجُ من الغضب، وتوجَّهوا إلى المصعد، فيما أطلق المرحَّلون، الذين لم يتوقَّفوا عن إفراغ براميل الكحول، العنانَ لأنفسهم في رقصةٍ جامحة.

لحسن الحظِّ كان المصعدُ بعيداً عن السَّاحة ولم تكن يدُ التَّخريب قد طالتْهُ بعد.

مُرتقين بصورةٍ أتوماتيَّة، دونما حاجةٍ إلى أحد، قفز الرِّجال الخمسة إلى الدَّاخل وفي ثوانٍ قليلةٍ بلغوا سطحَ القبَّة.

إعصارٌ مروِّعٌ كان يهبُّ وقد هاجَ هائجُه فوق المحيط الأطلسيِّ.

أمواجٌ عاليةٌ كالجبال كانت تجيشُ وتتحطَّم، مع جؤاراتٍ مخيفةٍ، على شبائك القضبان الحديديَّة، لاويةً إيَّاها كما لو كانت من القصدير، وكانت عصفاتٌ سريعةٌ مروِّعةٌ تمرُّ فوق المدينة الغائصة مرسلةً صفيراً مُصِمَّاً.

سحابةٌ سوداءُ سوادَ القطرانِ المصفَّى كانت تنساخُ كحيوانٍ سائبٍ في السَّماء، مُطلِقةً البروق والرُّعود.

كان الرِّجال الخمسة قد زحفوا نحو الجزء الجنوبيِّ من القبَّة، حريصين على البقاء ملاصقين لشبائك القضبان الحديديَّة لئلَّا تطوِّح بهم بعيداً الرِّياحُ التي كانت تبلغ سرعاتٍ لا يمكن التَّنبُّؤ بها، عندما ظهرَ رجلٌ تحت مستوى أقدامهم تقريباً وهو يصيح:

"تراجعوا، أيُّها الأوغاد، وإلَّا قتلتُكم".

"كاترسون!" صاحَ رُبَّانُ القنطور.

"آه هذا أنت، أيُّها القبطان!" هتفَ ذلك الرَّجل الذي لم يكن سوى طيَّار السَّفينة الطَّائرة. "ظننتُ أنَّهم قد قتلوك بالفِعل".

"ليس بعد. أين القنطور؟ هل ما يزال صامداً؟"

"لقد اختفى، أيُّها القبطان،" أجابَ كاترسون "ومعه السَّجين الذي كنَّا قد أنزلناه هنا وعشراتٌ من المرحَّلين".

"وملاَّحو سفينتي؟"

"لقد بوغِتوا فيما هِم نيامٌ وأُخِذوا أسرى، ويبدو لي أنَّهم تعاونوا، لا أعلم ما إذا كان طوعاً أو كرهاً للنَّجاة بحياتهم، مع سكَّان هذه المدينة اللعينة، لأنَّني قبل أن يفرُّوا من هنا رأيتهم يشربون معهم".

"وسفينتي تلاشت؟"

"لقد مضوا بها بعيداً بعد أن أنزلوا كلَّ براميل الكحول. وبقدر ما استطعتُ أن أفهمَ، بينما كنَّا نائمين، فإنَّ الأسرى قد دبَّروا مكيدةً للاستيلاء على الحمولة لافتعالِ حفلة مُجونٍ مُريعة. أمَّا سجيننا، وهو الأدهى بين الجميع، فقد صعد السَّفينة مع أصدقائه الذين وجدهم هنا وانطلق في عرض المحيط".

"وماذا سنفعل الآن؟" سألَ براندوك الذي لم يبدُ على أيَّةِ حالٍ متأثِّراً كثيراً.

"سيكون علينا أن ننتظرَ مرورَ إحدى السُّفن" أجابَ القبطان. "لا أنصحكم بالعودة إلى هناك ما دام أولئك المجانين يستأثرون بقطرةٍ واحدةٍ من الكحول".

"أكان معك الكثير منه على متن السَّفينة؟" سألَ طوبي.

"ثلاثون طنَّاً".

"أكثر بكثيرٍ ممَّا يمكن أن يشربوه إلى حدِّ انفجار أجوافهم في أسبوعٍ واحد" قالَ براندوك. "ما أروع الأمر إذا لم تأتِ سفينةٌ لانتشالنا من هذه الورطة".

"وانتقاماً لكم،" قالَ جاو العجوز "فإنَّ حكومات أوروبَّا وأمريكا، كما قلتُ لكم في السَّابق، ليست رقيقةً جدَّاً مع سكَّان المدينة الغائصة".

"كيف سيعاقبونهم؟" سألَ طوبي.

"بإغراقهم جميعاً. العدالةُ، في أيَّامنا هذه، لا تحتمل التَّسويف".

"ألا يمكنك، يا جاو، القيامُ بمحاولةٍ لتهدئة أولئك المجانين؟" سألَ القبطان.

"أولئكَ ما إن يفلتوا من عِقالهم حتَّى يصبح من المستحيل أن تسيطر عليهم بعد ذلك، فإذا ما دنوتُ منهم وحاولتُ إفهامَهم منطقَ الأمور، قتلوني في الحال. لقد سبق أن أخبرتكم بأنَّ زعماءَ هذه الإصلاحيَّات لا يملكون سوى سلطةٍ ضعيفةٍ جدَّاً ومزعزَعة".

"فإذاً، قبل أن يخطرَ في بالهم أن يصبُّوا جنونهم علينا، ينبغي أن نمنعهم من إمكانيَّة الوصول إلى هنا" قالَ براندوك.

"إذا أخرجنا المصعدَ من الخدمة فإنَّهم لن يكونوا قادرين على الوصول إلينا وإيذائنا" أجابَ جاو. "ارتفاعُ القبَّةِ جدٌّ كبيرٍ ليتمكَّنوا من الوصول إلينا،

كما أنَّ الجدران المعدنيَّة ملساءُ تماماً. آه! يا لِمصيبتي! لم أكن أتوقَّع مثل هذا الشَّغب!"

"ألقوا اللومَ على العاصفة التي منعتنا من استئناف رحلتنا" قالَ طوبي.

"وعلى حمولةِ سفينتي" أضاف القبطان. "هيَّا! دعونا لا نهتمُّ الآن إلَّا بالصُّمود في مواجهة ضربات الإعصار. وعندما تشرق الشَّمس سنرى ما يمكن أن نقوم به لمغادرةِ هذه المدينةِ الغائصةِ التي لم نستظرفها كثيراً والابتعادِ عن سكَّانها الفائقي الخطورة".

انسحبوا نحوَ الجزء الأكثر عُلْواً من القبَّة، وأخرجوا المصعدَ من الخدمة ليكونوا أكثر اطمئناناً بأنَّ المرحَّلين لن يعِيدوهم إلى الأسفل، وراحوا ينظرون إلى ما يجري هناك في الأسفل، من خلال فتحةٍ واسعةٍ. كانت العربدة قائمةً على قدمٍ وساق، ومن جوف المدينة الغائصة كانت تصعدُ رائحةٌ كريهةٌ حادَّةٌ يكاد يكون من المستحيل احتمالُها.

كان المرحَّلون، وهم يواصلون الشُّرب، يضحكون كالمجانين وبدا أنَّهم باتوا آنذاك لا يعلمون ماذا يفعلون.

وفيما كانت جماعاتٌ منهم ترقصُ باهتياجٍ في السَّاحة، كمِعازٍ تتقافز، متناطحةً ومرتميةً على الأرض بالعشرات، كانت جماعاتٌ أخرى، مأخوذةً فجأةً بنزوةِ تدميرٍ جنونيَّةٍ، تعيث فساداً في البيوت راميةً في الهواء أسِرَّةً وطاولاتٍ، وتمزِّق الشِّباكَ، وتحطِّمُ أدوات الصَّيد، مع إطلاق الصَّيحات والضَّحكات.

شِجاراتٌ متكرِّرةٌ كانت تندلعُ من وقتٍ إلى آخر بين الرَّاقصين والمخرِّبين،

فكانت تنهمرُ حينذاك سيولٌ حقيقيَّةٌ من الضَّربات واللكمات من جميع الاتِّجاهات. لم يعد من الممكن إحصاءُ الجماجم المتكسِّرة.

"إذا تمكَّن هؤلاء المسعورون من التسلُّق إلى هنا، فقد يخرقون زجاجَ القبَّةِ أيضاً" قالَ طوبي.

"أيمكن أن يحطِّموا الجدران الحديديَّة للمدينة؟" سألَ براندوك وقد اعتراهُ الجزع.

"لا تخافوا" أجابَ جاو. "فهي ذات ثخانةٍ كبيرة، ثمَّ إنَّهم لا يملكون هراواتٍ ولا أيَّة أدواتٍ أخرى مناسبة".

"لم أرَ في حياتي قطُّ مجوناً كهذا المجون" قالَ رُبَّانُ القنطور. "إذا ما استمرَّ هؤلاء الرِّجال بالشُّرب على هذا المنوال فإنَّ الأمرَ سينتهي بهم إلى تحويل هذه المدينة إلى مستشفىً حقيقيٍّ للمجانين. كيف سينتهي كلُّ ذلك؟ أعترفُ بأنَّني لستُ مرتاحَ البال على الإطلاق. لا يمكننا أن نعقد الآمال إلَّا على ظهورِ سفينةٍ ما ترسلُها إلينا العنايةُ الإلهيَّة. لسوء الحظِّ، نحن خارجَ خطِّ الملاحة المعتاد الذي تسلكه السُّفن المتوجِّهة من أوروبَّا إلى أمريكا. وَيهاً! فلنبتعدْ عن اليأس!"

تمدَّدوا وسطَ القنطرةِ المسطَّحة، جنباً إلى جنبٍ، منتظرين بنفادِ صبرٍ بزوغَ الفجر.

كان الإعصارُ قد اتَّخذ أبعاداً مُرعِبة. كان عبارةً عن هياجِ أمواهٍ ورياحٍ وهي تتصبَّبُ على القبَّة بغضبٍ لم يسبق له مثيل.

أطوادُ موجٍ عظيمةٌ كانت تتحطَّمُ على جدران المدينة، مُحدِثةً بكاملِ

زخمها ارتجاجاتٍ أقلقَتْ إلى درجةٍ كبيرةٍ رُبَّانَ القنطور والطَّيَّار اللذَين كانا يعرفان بعض الأشياء عن ثوراتِ غضبِ المحيطِ الأطلسيِّ.

من وقتٍ إلى آخر، وعلى الرَّغم من أنَّها كانت راسخةً بقوَّةٍ في الحيد الصَّخريِّ تحت الماء وموطَّدَةً بأعمدةٍ ضخمةٍ من الحديد المفولَذ، كانت المدينةُ الغائصةُ فريسةً لرجَّاتٍ عنيفةٍ بدَتْ معها كما لو أنَّها ستُقتلَعُ وتُحمَلُ بعيداً.

حتَّى الأمريكيُّون الثَّلاثة لم يكونوا هادئي الرَّوع على الإطلاق، على الرَّغم من تطميناتِ جاو لهم.

"ماذا إذا ما انفصلَتْ عن الصَّخرة؟" سألَ براندوك في لحظةٍ من اللحظات. "ماذا يمكن أن يحصل لنا؟"

"سينتهي أمرُنا جميعاً!" قالَ القبطان.

"لا، على الإطلاق" قالَ جاو الذي على العكس منهم لم يعبِّر عن أيَّةِ مخاوف. "فهذه المدينة أشبه بطَوْفٍ هائلٍ من الحديد ولَسَوفَ تطفو على نحوٍ رائع".

"الآن يمكنني أن أتنفَّسَ الصُّعَداء قليلاً" قالَ براندوك. "ففكرةُ إنهاءِ رحلتي في قاع البحر لم ترُقْ لي على الإطلاق، حتَّى وإن..."

شتيمةٌ خرجَتْ من فم الطَّيَّار قطعَتْ عبارتَه.

"ماذا هناك يا توم؟" سألَ القبطان.

"أقول إنَّه إذا ما داهمَتْنا موجةٌ أخرى كتلك التي مرَّتِ الآن، فإنَّ المدينة

لن تبقى قادرةً على الصُّمود. لقد سمعتُ أصواتَ ارتطامٍ مكتومة. أتُراها انهارَتْ أعمدةُ الحديد المفولَذ؟"

في تلك اللحظة ألقى الجميعُ السَّمْعَ، ولكنَّ دَويَّ الرُّعود الهادرةِ وسط السَّحاب الثِّقالِ والمختلِطَ بالهدير الصَّاعد من جبِّ المصعد جعلَ من غير الممكن تمييزَ أيِّ جلبةٍ أخرى.

"قد تكونُ واهماً، يا توم؟" قالَ القبطان.

"ربَّما" أجابَ الطَّيَّار. "لكنِّي أفضِّلُ أن أتأكَّد من ذلك".

"يمكننا أن نحاولَ الوصولَ إلى الدَّرابزين، إذا كان ما يزال موجوداً".

"سوف تطوِّحُ بنا الأمواجُ بعيداً، يا سيِّدي" قالَ براندوك.

"أنا وتوم خبَرْنا هذه الأمواج منذ أمدٍ بعيدٍ، ولن تُفاجئنا في شيء. هيَّا بنا، أيُّها الطَّيَّار".

انقلبا على بطنيهما، ومُصمِّمِينِ الآذانَ عن نصائح جاو والأمريكيِّين الثَّلاثة ابتعدا زحفاً، مُلازِمَين البقاءَ لِصْقَ عوارضِ الحديد المفولَذ التي كانت بمثابة قوى إسنادٍ للألواح الزُّجاجيَّة.

آنذاك أصبحَ الهديرُ النَّاجمُ عن التَّحطُّم المتواصلِ لأطوادِ الموجِ رهيباً. كانت هناك لحظاتٌ بدا فيها أنَّ القبَّةَ بكاملها سوف تنهارُ تحت وطأةِ الضَّربات القويَّة.

لم يدُمْ غيابُ القبطانِ والطَّيَّار إلَّا قليلاً. شاهدوهما يعودان مُسرِعَين، وسطَ غيوم الزَّبَد التي كانت تكتنفُ القبَّةَ بأكملها.

"فإذاً؟" باضطرابٍ سألَ الجميعُ معاً، الأمريكيُّون الثَّلاثة وجاو.

"الأعمدةُ الفولاذيَّةُ تنهارُ واحداً تلوَ الآخر" أجابَ القبطان.

"سوف نُحمَلُ بعيداً إذاً" قالَ براندوك.

"نعم، إذا لم يهدأ الإعصار".

"ألديك أملٌ في أن تخفِّف الأمواجُ من سخطها الجنونيِّ؟"

"بل أخشى أنَّ إعصاراً حلزونيّاً مُخيفاً في طريقه إلى التَّشكُّل".

"وأولئك الأوغاد في الأسفل ماضون في لهوِهِم!" قالَ طوبي.

"اتركهم يموتون في غيِّهم" قالَ براندوك.

"ما لَم نغرق نحن أيضاً!"

"لقد قلتُ لكم إنَّه حتَّى وإن انفصلَتِ المدينةُ عن الصَّخرة فإنَّنا لن نواجه أيَّ خطر، على الأقلِّ إلى أن نصادفَ صخرةً أخرى من شأنها أن تمزِّق خاصرةَ المدينة. غير أنَّها نادرةٌ في هذا الجزء من المحيط، أليس كذلك أيُّها القبطان؟"

"لا وجود لها على الإطلاق حتَّى نبلُغَ جُزُرَ الآزور" أجابَ رُبَّانُ القنطور. "وبالتَّالي يمكننا أن نقطعَ أكثر من ثلاثمِائةِ ميلٍ ونحن على يقينٍ تامٍّ بأنَّنا لن نصطدمَ بإحداها".

دَويٌّ هائلٌ أصمَّ آذانهم في تلك اللحظة.

موجةٌ هائلةٌ كالجبل العظيم كانت قد انقلبَتْ على المدينة الغائصة،

راجَّةً إيَّاها بعنفٍ شديدٍ حتَّى أنَّ الأمريكيِّين الثَّلاثة انكبُّوا لوجوههم واحداً تلو الآخر، فهم كانوا قد نهضوا ليروا ما إذا كانت عربدةُ المرحَّلين قد انتهَتْ أو ما تزال مستمرَّة.

"يبدو لي أنَّ هذا الطَّوف الفولاذيَّ قد تحرَّك" قالَ القبطان.

ذلك الدَّويُّ المخيفُ كان قد شعرَ بهِ المخمورون أيضاً كما بدا، ذلك أنَّ صيحاتهم كانت قد توقَّفَتْ فجأةً.

ألقى جاو حولَه نظرةً خاطفة.

"أجل" قالَ بعد ذلك. "لقد تحرَّكَت المدينة. العمودُ الفولاذيُّ الذي كان بمثابة دعامةٍ مركزيَّةٍ لم يعد موجوداً. الموجُ طوَّحَ بهِ بعيداً".

"يا له من خبرٍ مُفرِح!" قالَ هولكر. "ماذا سيحدث الآن؟"

لم يُجب أحد. كان الجميع ينظرُ باغتمامٍ إلى أطواد الموج التي كانت، وهي تعكسُ الضَّوءَ الكثيفَ المنبعثَ من مصابيح الرَّاديوم، تبدو وكأنَّها صبيبٌ من البرونز المنصهر.

وعلى الرَّغم من طمأنةِ كلماتِ جاو لهم، وهو الذي كان مُلِمَّاً بعمقٍ بقوَّةِ الاحتمال التي كان من الممكن لذلك السِّجن الغريب أن يوفِّرَها، فإنَّ قلقاً عميقاً كان قد استولى على الجميع.

يمكن القولُ إنَّ صدورَهم كانت قد توقَّفتْ عن التَّنفُّس وقلوبَهم عن الخفقان، لشدَّة ما اعتراهم من الجزَع.

أيمكن لذلك الصُّندوقِ المعدنيِّ الهائلِ أن يطوف حقّاً، أم إنَّه سيهوي إلى القاع كما لو كان كتلةً خاملة؟

كان الرَّعدُ ما يزال يرغو في أعماق السَّماء، مُجارياً هديرَ الأمواج المروِّعَ وعويلَ الرِّياح الجهنَّميَّ.

في الأسفل، داخلَ المدينة، كان الصَّخَبُ قد توقَّف.

بين الفينة والأخرى كانت القبَّةُ تكابدُ بعضَ الارتجاجات. هل كانت الألواح الزُّجاجيَّة، بالرَّغم من ثخانتها الكبيرة ومن متانةِ العوارض الفولاذيَّة التي تدعمها، على وشك أن تتهشَّم؟

على حين غرَّةٍ طَوْدٌ آخرُ من الموجِ أشدُّ هولاً هوى، باهتياجٍ لا يمكن صدُّه، على تلك المدينةِ السِّجنِ، مُقتلِعاً إيَّاها كلِّيَّاً من الصَّخرة ومطوِّحاً بها وسطَ ستائرِ الزَّبَدِ الكثيفةِ المتراصَّة.

في اللحظةِ نفسِها تقريباً سُمِعَ صوتُ القبطان يهدرُ عالياً في قلب الإعوالاتِ المروِّعة للإعصار:

"إنَّنا نطفو!... تمسَّكوا جيِّداً!...".

عبْرَ الأطلسيِّ

لم يكن جاو العجوز مُخطئاً. إذا كان مجتمعُ الألفيَّةِ الثَّالثةِ الحديثُ قد فكَّرَ في نقل الأفراد الخطِرين إلى تلك المدن الغريبة الغائصة، مُلغياً من الميزانيَّات المخصَّصةِ لها نفقاتِ معيشةِ مخلوقاتٍ لا فائدة تُرجَى منها، فإنَّه في الوقتِ نفسِهِ لم يألُ جهداً في توفير ملاجئ آمنةٍ لهم، ملاجئ ذات متانةٍ من شأنها أن تحصِّنهم من التَّعرُّض لأيَّة تهلُكة.

وهكذا فإنَّ المدينة الغائصة، التي انفصلَتْ عن الصَّخرة تحت وطأة أطوادِ الموج، لم يكن منها سوى أنْ تحوَّلَتْ إلى مدينةٍ عائمةٍ، متروكةٍ حتماً لنزواتِ التَّيَّارات والرِّياح، ولكنْ قادرةٍ على الصُّمود جيِّداً في انتظار أنْ تصادفَ سفينةً بحريَّةً أو سفينةً طائرة، ما لَم تقذف بها زوبعةٌ ما على أحد الحيود الصَّخريَّة. كلُّ الخطر كان يكمنُ هناك.

كان من غير الممكن أن تنفدَ المياهُ العذبة، لوجود آلاتِ تقطيرٍ كهربائيَّةٍ عالية القدرة بإمكانها تزويد المدينة بها وبكميَّاتٍ كبيرة؛ ولا الطَّعام أيضاً، لأنَّه كان ثمَّة الكثير من الشِّباك ومن المعروف أنَّ المحيطات أكثر ثراءً بكثيرٍ من البِحار.

ولسوء حظِّهم كانت لدى الإعصار نيَّةٌ جدُّ ضعيفةٍ على الانتهاء. لا الأمواج، ولا حتَّى الرِّياح ألْمَحَتْ أدنى إلماحٍ إلى أنَّها ستهدأ، مهدِّدَةً بسَحب المدينةِ العائمةِ إلى عُرض المحيط الأطلسيِّ، حيث كانت العاصفة تهبُّ من جهة الشَّرق.

ما لبث ذلك الصُّندوق الفولاذيُّ الهائل، بعد أن غاصَ، أن صعد إلى السَّطح من جديد، متمايلاً بشكلٍ مخيفٍ ودائراً حولَ نفسِه.

إذا كانت الأعمدة الفولاذيَّة قد انهارتْ تحتَ الضَّربات القويَّة للأمواج، فإنَّ القبَّةَ قاومتْ بشكلٍ رائعٍ الغرقَ وقاومَهُ بشكلٍ أروع الأمريكيُّون الثَّلاثة، وربَّان القنطورِ وطيَّارُه، وجاو.

كانوا قد تشبَّثوا بقوَّةٍ بالعوارض المعدنيَّة في انتظار أن تعودَ السَّفينةُ إلى سطحِ الماء، مُتَحَدِّين الأمواجَ بعِنادٍ يائس.

"اعتقدتُ أنَّ ساعتنا الأخيرة قد حانت" قالَ براندوك بعد أن عبَّ ملءَ فمِهِ كمِّيَّةً كبيرةً من الهواء. "وماذا عنك، يا طوبي؟"

"كنتُ أتساءلُ ما إذا كنتُ ما أزالُ حيَّاً أم أنَّني غرقتُ في أعماق الأطلسيِّ" أجابَ الطَّبيب.

"آملُ أن تكون راضياً عن المهندسين الذين قاموا ببناء هذا الصُّندوق الهائل".

"إنَّهم أناسٌ رائعون، يا عزيزي. في عصرنا، ما كانوا ليكونوا قادرين على الإتيان بالشَّيء نفسِه".

"إنَّني على يقينٍ تامٍّ من ذلك. إلى أين تدفعُ بنا العاصفةُ، أيُّها القبطان؟"

"نحو الجنوب الغربيِّ" أجابَ رُبَّانُ القنطور.

"هل ثمَّة جُزُرٌ في هذا الاتِّجاه؟"

"جُزُرُ الآزور".

"هل سنتهشَّمُ على صخورها؟"

"هذا يعتمدُ على مدَّة بقاءِ العاصفة، يا سيِّدي".

"ألا تظنُّ أنَّها ستهدأ؟"

"نعم، لا أظنُّ ذلك على الإطلاق. إنَّها مسترسلةٌ بشكلٍ مخيفٍ في هياجها وأخشى أنَّها ستجعلنا نتراقصُ لفترةٍ طويلة. أتعاني من دُوار البحر؟"

"لا، على الإطلاق".

"كلُّ شيءٍ على ما يُرام إذاً".

"وإذا ما انفلقَ هذا الصُّندوقُ في غضون بضعةِ أيَّامٍ على أحد الحيود الصَّخريَّة، هل سيكون حينذاكَ أيضاً كلُّ شيءٍ على ما يُرام؟". سألَ هولكر، مُقهقِهاً.

"لم نصادف تلك الصَّخرة بعد، وبالتَّالي، من الآن وإلى أن نصادفها ليس هناك أيُّ سببٍ يدعونا إلى الذُّعر" أجابَ رُبَّانُ القنطور. "ولكنَّ هنالك أمراً آخر يُقلِقُني كثيراً".

"وما هو؟"

"الإجابةُ يجبُ أن تعطيني إيَّاها أنتَ، يا جاو".

"تكلَّمْ، أيُّها القبطان".

"هل لدى رعاياك ما يكفي من الطَّعام؟"

"ليومين أو ثلاثة أيَّام، لا أكثر".

"ونحن؟"

"قبل أن يندلعَ الإعصار، كان هناك الكثير من الأسماك الموضوعة على امتدادِ الدَّرابزيناتِ لتجُفَّ، ولكنْ أظنُّ أنَّ الأمواجَ أخذَتْ كلَّ شيءٍ في طريقها".

"أيمكننا الحصول على شيءٍ منها من المرحَّلين؟"

"ربمَّا، عندما يتعبون من الشُّرب" أجابَ جاو. "ولكنْ ثمَّة شِباكٌ في إحدى غرَفِ تخزين القبَّة".

"ولكنْ ما مِن آلةِ تقطيرٍ واحدةٍ لنحصلَ على الماء..."

"هنا في الأعلى لا".

"لَسَوفَ نتعرَّضُ إذاً لخطرِ الموت، إذا لم يكن جوعاً، فعلى الأقلِّ عطشاً إذا ما رفضَ رعاياكَ مدَّنا بالماء. هذا ما كنتُ أخشاه".

"لدينا المصعد، أيُّها القبطان" قالَ جاو.

"والذي سينفعُنا بشكلٍ مثاليٍّ في جعلِ أولئك المجانين يُرْدُوننا قتلى. لن أكون أنا بالتَّأكيد مَن سينزلُ إلى هذه المدينة لاستجداء الماء من أولئك الأوغاد. بالمناسبة، ماذا يفعلون؟ أتُراهم لاحظوا أنَّ سجنهم بدأ يمخرُ عُبابَ المحيط الأطلسيِّ؟"

"أراهن على أنَّهم لم يلاحظوا شيئاً" قالَ طوبي.

"أتُراهُم نيامٌ؟" سألَ براندوك. "ما عدتُ أسمعُ صياحَهم".

"دعونا نُلقي نظرة" قالَ القبطان. "لديَّ فضولٌ لمعرفةِ ما إذا كانوا مستمرِّين في الشُّرب والرَّقص".

زحفوا نحوَ جُبِّ المصعد.

بقيَتْ مصابيحُ الرَّاديوم متوهِّجةً على الدَّوام، وكان صمتٌ عميقٌ مخيِّماً في جوف المدينةِ العائمة. في السَّاحةِ، وسطَ خضمٍّ عددٍ كبيرٍ من البراميل وهشيمِ أشياء من كلِّ صنفٍ ولون، كانت زُمَرٌ من المرحَّلين غاطَّةً في النَّوم، مصعوقةً حتماً بما عبَّتْهُ من تلك المشروبات الرَّهيبة.

آخرون كانوا قد اضطجعوا على الأرضِ داخلَ المنازلِ شبه المهدَّمة، والتي باتت بلا أسقف. كانت رائحةُ هواءٍ راكدٍ رهيبةٌ ما تنفكُّ تصعد.

"نائمون كالزُّغْبات(*)" قالَ براندوك.

"أراهنُ، بعد مثل هذه العربدة،" عقَّبَ طوبي "أنَّ برميلاً من غاز النُّشادر لن يكون كافياً لإنهاضِهم على أقدامهم".

"وسوف نستغلُّ نحنُ رقادَهم" قالَ جاو.

"للقيامِ بماذا؟" سألَ رُبَّانُ القنطور.

"لنؤمِّنَ إمداداتنا من الماء، يا سيِّدي".

"إنَّك لَرَجُلٌ رائع. مَن سينزل؟"

"أنا".

---

*) مثَلٌ يُقالُ لمن يغطُّ في نومٍ عميق؛ والزُّغبةُ حيوانٌ صغيرٌ من رتبةِ القوارض يعيش في الغابات والحدائق التي توجد فيها أشجارٌ معمَّرة من شأنها أن توفِّر له التَّجاويف التي يأوي إليها، وهو يتغذَّى بشكلٍ رئيسٍ على ثمار الكستناء والبلُّوط والبندق وعلى الحبوب والفاكهة؛ (م).

"وماذا إذا ما أردُوكَ قتيلاً؟"

"ليس هناك أيُّ خطر" قالَ طوبي. "فأولئك الأوغاد لن يستفيقوا قبل أربعٍ وعشرين ساعة".

"وماذا عن بحّارتي؟" سألَ القبطان "هل قُتِلوا؟"

"أرى واحداً منهم مستلقياً في السَّاحة" قالَ الطَّيَّار. "أولئك لم يتمكَّنوا من مقاومةِ إغراءِ الانخراط في حفلةِ شُربٍ هائلة، وقد تواطأوا مع المرحَّلين؛ فلا تعوِّل عليهم بعد الآن".

"يا لِلأشقياء!"

"إنَّهم جميعاً إيرلنديُّون؛ وأنت تعلمُ بقدرِ ما أعلمُ أنا كَم يشربُ هؤلاء القوم عندما تسنحُ لهم الفرصة".

"دعونا لا نضيِّع الوقت" قالَ جاو. "ساعدوني، أيُّها السَّادة".

فتحوا قفلَ المصعد، ونزل الزَّعيمُ السَّابقُ إلى جوف المدينة مصحوباً بالطَّيَّار.

كان أوَّلُ شواغلِهِ يتمثَّلُ في خرقِ جميع البراميلِ الملأى بالكحول، والتي لم تكن حتَّى تلك اللحظة قد فُرِّغَت، ووَضْعِ حدٍّ مِن ثمَّ لتلك العربدةِ الخطيرة؛ قبل أن يستولي على صندوقٍ من السَّمك المجفَّف مع دَنٍّ مليءٍ بالماء العذب.

لم يستيقظ أحدٌ من المرحَّلين. أولئك الثَّلاثمائةِ وغدٍ وأكثر لم يحرِّكوا ساكناً وظلُّوا يشخرون بصخبٍ أخذَ يهتزُّ بإثرِهِ زُجاجُ القبَّةِ نفسُه.

ارتفعَ المصعدُ من جديدٍ وتمَّ إقفاله على الفور لئلَّا يكون في خدمةِ أولئك اللاجئين في الأسفل.

"الآن" قالَ جاو "يمكننا أن ننتظرَ اللقاءَ بسفينة. لخمسة عشر يوماً على الأقلِّ لن نكون عرضةً لخطر الموتِ جوعاً أو عطشاً".

"ورعاياك، أسيكون لديهم ما يكفي للصُّمودِ طويلاً؟" سألَ براندوك.

"فليموتوا جميعاً! إنَّهم ثلَّةٌ من الأشقياء الذين لا يُثيرون شفقة أحد" أجابَ جاو بغضبٍ. "أنا لن أكترث لأمرهم بعد الآن أبداً".

"أمَّا أنا فأخشى أنَّنا سنكون مُكرَهين على الاكتراث، بل والاكتراث كثيراً، لأمرهم" قالَ براندوك. "فعندما يستيقظون ويشعرون بمدينتهم تتراقصُ سوف يرغبون هم أيضاً في الصُّعود وسوف يسبِّبون لنا الكثير من المشاكل".

"وأنا أشاركُكَ الهاجسَ نفسَه، يا سيِّدي" قالَ القبطان. "لا مفرَّ لنا، العاصفةُ فوق رؤوسنا، وأولئك المجانين مِن تحتنا. أتوقَّع أنَّ رحلتنا هذه، عبر الأطلسيِّ، لن تكون مسلِّيةً كثيراً. مَن يعلم؟! فلننتظرْ أنْ تظهرَ الشَّمسُ لكي نتمكَّن على نحوٍ أفضل من تقدير مدى عنفِ هذا الإعصار ومُدَّتِه".

ولَمَّا كانت المدينةُ العائمة قد ارتفعَتْ كثيراً بعد انفصالِها عن الصَّخرة، ولم يعد ثمَّة خطرٌ في أن تبلُغَ الأمواجُ أوجَ القبَّة، فقد استلقى الرِّجالُ السِّتَّةُ عندَ فُوهةِ الجُبِّ ليَغُطُّوا، إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، بضعَ ساعاتٍ في النَّوم.

ولكنَّ الكتلة المعدنيَّة الهائلة كانت تكابدُ اهتزازاتٍ فظيعةً للغاية وعنيفةً لدرجةٍ كان من المستحيل معها أن يغطَّ المرءُ في نومٍ عميق.

الأمواجُ التي كانت تتعاقبُ باهتياجٍ مُتصاعد، كانت تهزُّها بشكلٍ فظيعٍ وتجعلُها في بعض الأحيان تدورُ حولَ نفسِها، لكونها بلا دفَّات.

من وقتٍ إلى آخر كانت تغطسُ بشدَّةٍ في الأغوار البحريَّة، كما لو أنَّها ستختفي إلى الأبد في وهداتِ الأطلسيِّ؛ ثمَّ ما تلبث أن ترتفع فجأةً من جديدٍ مُصدِرَةً آلاف الجعجعاتِ الغريبة التي كانت توتِّر على وجه الخصوص في براندوك الذي كانت كلُّ أعصابه تنتفضُ بقوَّةٍ منذ بعض الوقت كما كان يبدو.

في بعض الأحيان كانت تعلو على قمم أطوادِ الموج متمايلةً بشكلٍ مخيفٍ، ثمَّ تنحدرُ، وتنحدرُ، بسرعةٍ مدوِّخةٍ، وهي تدورُ كلُعبةِ الخذروف(*).

والإعصارُ في تلك الأثناء، بدلاً من أن يهدأ، كان يزدادُ هياجاً.

بروقٌ تعمي الأبصار كانت تتوالى دونما توقُّفٍ في تصاعُدٍ مروِّع، متبوعةً برعودٍ رهيبةٍ كانت أصداؤها تتردَّدُ مهدِّدَةً ومتوعِّدةً حتَّى في جوفِ المدينة، جاعلةً الجدران المعدنيَّةَ تهتزُّ، من دون أن تُفلحَ في إيقاظ المخمورين.

طيلةَ الليل، بقيَتِ الكتلةُ الضَّخمةُ تتمايلُ وتدورُ، مضروبةً دونما هوادةٍ بأطوادِ الموج التي كانت تدفعُها نحو بحرِ سرقوسة وليس نحو جُزُر الآزور كما اعتقدَ القبطانُ في أوَّلِ الأمر.

وأخيراً، قرابةَ السَّاعة الرَّابعة فجراً، ظهرَ وميضُ ضوءٍ من بين نُتَفِ الغيومِ المائجة.

رسمَ المحيطُ آنذاك مشهداً مثيراً للإعجاب. كتلٌ من الماء، مُغطَّاةٌ بالزَّبَد، كانت تمتطي بعضها بعضاً بغضَبٍ، بين تَصادُمٍ وتَدافُع.

---

*) مخروطٌ خشبيٌّ صغيرٌ يُشَدُّ بخيط ويُدَوَّر فيدور بسرعة، ويُسَمَّى أيضاً دُوَّامة أو بلبل؛ (م).

لم تظهر أيُّ سفينةٍ، أكانت جويَّةً أم بَحْريَّة. لا شيء سوى طيور قطرسٍ كبيرةٍ كانت تحومُ بين الزَّبَدِ والضَّباب، ناخرةً كالخنازير.

"لا أملَ في نجاتنا، أليس كذلك أيُّها القبطان؟" سألَ براندوك.

"إلى الآن، لا أمل" أجابَ رُبَّانُ القنطور.

"إلى أين تدفعُنا الرِّياح؟"

"نحوَ الجنوب الغربيِّ".

"بعيداً عن خطوط الملاحةِ التي تسلكُها السُّفن؟"

"للأسف، يا سيِّدي".

"أين سينتهي بنا المطافُ إذاً؟"

"من الصَّعب معرفةُ ذلك، لأنَّ الرِّياح يمكن أن تغيِّرَ اتِّجاهها من لحظةٍ إلى أخرى".

في تلك اللحظةِ دوَّتْ صيحاتٌ مخيفةٌ في جوفِ المدينةِ العائمة.

الأمريكيُّون الثَّلاثة، والقبطانُ، والطَّيَّارُ، وجاو، هرعوا جميعاً لبلوغِ فتحةِ الجُبِّ.

كان المرحَّلون قد استفاقوا، ومأخوذين بنزوةِ هياجٍ لا يعلمُ مأتاها إلَّا الله، راحوا يتشاجرون بوحشيَّةٍ مسلَّحين بمعدَّاتِ الصَّيد وبالسَّكاكين.

تساقط الأشقياءُ بالعشرات، سابحين في بحيراتٍ حقيقيَّةٍ من

الدِّماء، بجماجمَ مفلوعةٍ بطعناتِ حِرابِ صيدِ الحيتان أو بصدورٍ ممزَّقةٍ بطعناتِ السَّكاكين.

"اللُّعَناء، ماذا يفعلون؟" صرخَ جاو وهو يرتعدُ فرقاً.

ولكنَّ صوته ضاعَ وسطَ الصَّخبِ المخيفِ للمتلاحمين.

أطلق القبطانُ بضعَ طلقاتٍ من مسدَّسِهِ الكهربائيِّ، على أمل أن تجذبَ تلك الفرقعات، الضَّعيفة جدَّاً على أيَّةِ حال، انتباهَ أولئك الأوغاد.

لم ينتبه أحدٌ: حتَّى إنَّ طلقةَ مدفعٍ ربَّما لم تكن ستكفي للتَّأثيرِ فيهم.

"دعوهم يُذبِّحُ بعضُهم بعضاً" قالَ براندوك. "سوف تنقصُ أسبابُ خوفنا كثيراً بنقصان أعدادهم".

"على أيَّة حال، لا شيء يمكن أن نفعلَه في سبيلِ تهدئتهم" قالَ رُبَّانُ القنطور. "إذا نزلنا إلى هناك، مزَّقونا أشلاءً".

"أودُّ لو أعرفُ من أجلِ ماذا يذبِّحُ بعضُهم بعضاً بهذه الطَّريقة" قالَ هولكر.

"ما زالوا في حالة سُكْرٍ، ألا ترى ذلك؟" قالَ القبطان. "إنَّهم يتقيَّأون دماً وكحولاً معاً".

"كُفُّوا عن ذلك!" أخذ جاو يصرخُ في تلك الأثناءِ، بكلِّ ما يملك من صوتٍ في حلقِه! "كفى، أيُّها الأشقياء! كفى!"

كان الأمرُ مضيعةً للأنفاس.

استمرَّت المذبحة البشعة باهتياجٍ متزايدٍ بين الفريقين، ذينك الفريقين المتشكِّلين يعلمُ الله لأيِّ سبب.

لقد تناحروا في السَّاحة، وفي الأزقَّة، وحتَّى داخلَ البيوت، وسطَ الصَّريخ والتَّجديف. بين الحين والآخر، كان بعضُهم ينفصلُ عن الحشود ويهرعُ ليستردَّ قواه بدنانِ الكحولِ القليلة التي غفلَ عنها جاو والطَّيَّارُ ولم يحطِّماها؛ ثمَّ، مهتاجين أكثر فأكثر، كانوا يُلقون بأنفسهم في قلب العِراك بكلِّ ما أوتوا من وحشيَّة.

استمرَّت تلك المعركة المروِّعة لأكثر من نصف ساعة، في مذبحةٍ عظيمةٍ أوقعَها كلُّ فريقٍ في الآخر؛ وفي النِّهاية انفصلَ النَّاجون، وبالكاد كانوا بضعَ مئاتٍ، مستنزَفين، ليتَّخذوا لأنفسهم ملاذاً إمَّا في الأكواخ شبهِ المهدَّمة، وإمَّا في زوايا المدينة الأشدِّ إعتاماً، مُتهاوين على الأرض كجثامين موتى.

"لقد انتهت" قالَ براندوك. "هل سيعاودون الكرَّةَ من جديدٍ ويحوِّلون المدينة العائمة إلى مدينةِ موتى؟"

"هاكُم خطرٌ جديدٌ يحيقُ بنا" قالَ رُبَّانُ القنطور. "مَن سيُلقي بهؤلاء الثَّلاثمائةِ أو الأربعمائة ميِّتاً في البحر؟ مع تلك الحرارةِ السَّائدة هناك فإنَّهم سوف يتفسَّخون سريعاً، وسوف ينتشر بين النَّاجين وباءٌ سينتهي به المآلُ إلى إزهاقهم جميعاً".

"وقد لا يوفِّرنا نحن أيضاً،" قالَ طوبي "إذا لم نجد وسيلةً ما لمغادرةِ مدينةِ الموتى هذه".

"في الوقتِ الحاضرِ، عليكم أن تستسلموا أيُّها السَّادة" قالَ القبطان. "لا أرى أيَّ يابسةٍ تلوحُ في الأفق".

"لا بدَّ وأنَّ القنطورَ قد بُنِيَ عندما كانت تتلألأ في السَّماء نجمةُ شؤمٍ خبيثة، يا عزيزي القبطان" قالَ براندوك.

"هكذا يبدو. لم يكن الأمرُ عبارةً سوى عن سلسلةٍ متواصلةٍ من سوء الطَّالع. ولكنْ مَن يدري! فلننتظرْ نهاية هذه الرِّحلة الباعثة قليلاً على البهجة. إلى الآن المدينةُ ليست مهدَّدَةً بالغرق، ولذلك فإنَّ لدينا الحقَّ في الأمل".

ولكن كان يبدو أنَّه قد قُيِّضَ سلفاً لكلِّ الآمالِ أن تبقى هزيلةً جدَّاً، فالإعصارُ كان مستمرَّاً في هياجِهِ، مهوِّشاً الأطلسيَّ في جزءٍ هائلٍ منه بلا شك.

مع ذلك، ظلَّت المدينة تعومُ على الدَّوامِ بشكلٍ رائعٍ، مرتفعةً تارةً وغاطسةً حتَّى منتصف القبَّةِ تارةً أخرى.

في بعض الأحيان كانت أطوادُ الموجِ تصلُ تقريباً إلى الرِّجال السِّتَّة الذين كانوا يتشبَّثون جيِّداً بحافَّةِ جُبِّ المصعد خوفاً من أن يُطوِّحَ بهم بعيداً.

وكان الزَّبدُ يغطِّيهم بكثافةٍ أحياناً لدرجةٍ لم يكونوا معها قادرين على تمييز بعضهم بعضاً، بالرَّغم من أنَّهم كانوا مُتدانين جدَّاً.

كانت الشَّمسُ قد بزغتْ منذ ساعات، ولكنَّ أشعَّتها لم تكن قادرةً على اختراق الكتلةِ الهائلةِ للأبخرة، فبقيَ المحيطُ رازحاً تحت ظُلمةٍ رهيبةٍ شبهِ تامَّة.

عندَ منتصفِ النَّهار تناولَ المهجورون في عرض المحيط بضعَ لُقَيمات؛ ثمَّ، وبعد أن استوثقوا من الأمرِ بشِباكٍ على عوارض الألواح الزُّجاجيَّة، حاولوا النَّومَ لبضعِ ساعاتٍ تحت حراسةِ طيَّارِ القنطور.

طَوالَ الليلِ لم يغمض لهم جفنٌ وَلَوْ لثانيةٍ واحدة، وشعرَ براندوك وطوبي على وجه الخصوص بإعياءٍ كبيرٍ ووقعا في غمراتِ رَجفاتٍ تشنُّجيَّةٍ أثَّرَتْ فيهما إلى حدٍّ ليس بالقليل.

قرابةَ المساءِ محقَ الغيومَ أخيراً شعاعٌ من الشَّمس، مُضيئاً الأمواجَ بانحرافٍ، بما أنَّ النَّجمَ كان على وشك الغروب.

القبطانُ، ما إن نبَّهه الطَّيَّارُ إلى الأمر، حتَّى نهضَ على عجلٍ ليحاولَ أن يعرف، بصورةٍ تقريبيَّةٍ على الأقلِّ، إلى أين دفع الإعصارُ بالمدينةِ العائمة. لبثَ في الحال مبهوتاً من وجودِ كتلٍ ضخمةٍ من الطَّحالب الطَّافيةِ وسطَ الأمواج.

"هذا ما كنتُ أخشاه" قالَ مقطِّباً جبينَه.

"ماذا لديك هناك؟" سألَ براندوك في جزَع.

"لقد أصبحنا الآن، يا سادتي الأعزَّاء، عرضةً لخطر إيقاف رحلتنا واحتجازنا هنا إلى الأبد".

"مِن قِبَلِ مَن؟" سألَ الأمريكيُّون الثَّلاثة بصوتٍ واحد.

"مِن قِبَلِ السَّرجاس(*). إذا ما علِقَ هذا الطَّوفُ الهائلُ بين تلك الأكوام من الطَّحالب، فإنَّه لن يخرجَ بعد ذلك أبداً، أؤكِّدُ لكم ذلك، ما لَم تندلع عاصفةٌ أخرى هابَّةٌ من الاتِّجاه المعاكس".

"يبدو أنَّك تحملُ سوءَ الطَّالع، أيُّها القبطان" قالَ براندوك.

"قد يكون ذلك صحيحاً حقَّاً، ما لَم يكن جاو أو مدينته مَن يحملُه".

"أتدفعُنا الرِّياحُ بالفِعل على السَّرجاس؟" قالَ طوبي.

---

*) هو جنس أعشابٍ بحريَّةٍ من الطَّلائعيَّات يتبع الفصيلة السَّرجاسيَّة التَّابعة لرتبة الفوقسيَّات؛ ويُسَمَّى هذا العشبُ البحريُّ أيضاً عشب الخليج. له أكياسٌ هوائيَّة تجعله يطفو على سطح الماء، ومعروفٌ عنه أنَّه يمكن أن يعرقل الملاحة؛ (م).

"بل إنَّ الأمواجَ تساعدُها في ذلك أيضاً" أجابَ القبطان الذي كان يزدادُ اضطراباً أكثر فأكثر.

"عاصفةٌ، وطحالبُ، وموتى، وأشخاصٌ خبيثون، تحتَ أقدامنا" غمغمَ براندوك. "لم يكن الأمر يستحقُّ عناءَ العودة إلى الحياة بعدَ مِائة عامٍ للقيام بمثل هذه المجازفات".

"وماذا يفعلُ رعاياك يا جاو؟" سألَ القبطان.

"يشخرونَ وسطَ الموتى".

"مرَّةً أخرى؟! هذا أفضل لنا. سأكون في غاية السَّعادة إذا هُم لم يستيقظوا هذه المرَّة أبداً، لأنَّني متأكِّدٌ من أنَّهم سيسبِّبون لنا الكثير من المتاعب عندما يفتحون في نهاية المطاف أعينهم ولا يجدون مزيداً من الكحول لمواصلةِ عربدتهم البذيئة. احترسوا! الموجةُ التَّالية ستكون قويَّةً بما يكفي لتُلقي بكم في الماء إذا لم تتمسَّكوا بقوَّة".

الأطلسيُّ الذي وجدَ نفسَه عالقاً في سباقِه المحموم، مجلوداً بشدَّةٍ بسياطِ ريحٍ كانت تتعقَّبهُ بلا هوادة، راحَ يُضاعفُ مِن غضبه محاولاً، ولكن عبثاً، اختراقَ تلك الأكوام اللامتناهية من الطَّحالبِ المتشابكُ بعضُها ببعضٍ بقوَّةٍ بفضلِ عددٍ لا حصرَ له من الجذور.

والأمواجُ، إذْ لم يكن لها مِن مَنْفَسٍ، كانت تتلوَّى على بعضِها، مؤلِّبةً على نفسِها هجومَ أمواجٍ مُضادَّةٍ بعنفٍ لا يمكن وصفُه.

ستائرُ هائلةٌ من الزَّبَد كانت تطوف هائمةً فوق أكوامِ السَّرجاس،

لتتقوَّضَ من حينٍ إلى آخر وتتمزَّق تحت العصفات الشَّرِسةِ الصَّاعدةِ لرياحٍ شديدةِ العُتوِّ.

كانت المدينةُ العائمةُ تتمايلُ على نحوٍ مثيرٍ للقلق، مُلقيةً بأياطلِها وسطَ الأمواج.

كلُّ دَرَابْزيناتِها كانت قد اقتُلِعَتْ، غير أنَّ العوارضَ الفولاذيَّةَ المزجَّجَة بقيت تقاومُ طَوالَ الوقت. ويلٌ لهم إذا ما تضعضعَتْ تحت ثقلِ أطوادِ الموجِ الهائلة. لا أحد من المرحَّلين كان سينجو مِن اجتياح المياه للمدينة.

كانت الإيماضاتُ الأخيرةُ للشَّفق على وشك الأفول عندما وجدَتِ المدينةُ العائمةُ، التي كانت تُتابعُ مجراها نحو الجنوب الغربيِّ، نفسَها وسطَ خضمٍّ الطَّحالب الأولى.

"ها نحنُ ذا!" صاحَ القبطانُ مُهيمِناً للحظةٍ واحدةٍ، بصوتِه المدوِّي، على آلاف الأصوات الهادرةِ التي كانت تصنعُها الرِّياح. "تشبَّثوا بقوَّة!"

رفعَ جبلٌ سائلٌ المدينةَ، وأبقاها للحظةٍ كالمعلَّقة في الهواء، ثمَّ قذف بها إلى الأمام بقوَّةٍ لم يسبق لها مثيل.

سُمعَ هزيمٌ رنَّانٌ منبعثٌ من الجدران الفولاذيَّة، بقيَتْ بعدَه الكتلةُ الهائلةُ ساكنةً بلا حراكٍ، فيما كانت الأمواج تعبرُ القبَّةَ بسرعةٍ تاركةً شلَّالاتٍ من المياه تنهلُّ داخلَ الجُبِّ، شلَّالاتٍ راحت تتصبَّبُ على رؤوس المخمورين وكأنَّها وابلٌ خلاصيٌّ يهمي من مِنضَحِ ماءٍ عظيم.

وسطَ السَّرجاس

ليس بحرُ سرقوسةِ، كما يعلمُ الجميع، سوى ركامٍ هائلٍ من الطَّحالب المتجمِّعةِ هناك من جرَّاءِ التَّماجُنِ المقصودِ أو غير المقصودِ للتَّيَّارات البحريَّة وعلى رأسها تيَّارُ الخليج العظيم. للبحر مساحةٌ تبلغُ مئتين وستِّين ألف ميلٍ مربَّع، وطولٌ يبلغُ ألفاً ومئتي ميلٍ، وعرضٌ يتراوحُ بين خمسين ميلاً ومِائةٍ وستِّين ميلاً.

تلك الطَّحالبُ التي من نوع "السَّرجاس السَّابح"(*)، تظهرُ بشكل خُصَلٍ منفصلةٍ بأطوالٍ تتراوحُ بين ثلاثين وثمانين سنتيمتراً، وتُرَى مبعثرةً حيناً ومتكتِّلَةً حيناً آخر، مُشَكِّلَةً شرائطَ حيناً وحقولاً حقيقيَّةً حيناً آخر، وتبلغ أحياناً من الكثافةِ حدَّاً تكون قادرةً معه على احتجاز المراكب الشِّراعيَّة التي يدفعها سوءُ الحظِّ لدخول خضمِّ ذلك البحر.

ويُعتقدُ أنَّ جزيرة أطْلَنتِس الذَّائعة الصِّيت، التي اختفتْ على نحوٍ غامضٍ للغاية مع الملايين والملايين من قاطنيها، تقبعُ هناك في الأسفل، ومن الممكن جدَّاً القولُ إنَّ تلك الجزيرة تقومُ مقامَ القاعِ لذلك الحشد اللامتناهي من النَّباتات.

المدينةُ العائمة، وقد دُفعَ بها وسطَ الطَّحالب من جرَّاء الضَّربات العاتيةِ

---

*) في النَّصِّ الأصليِّ يذكر سالغاري هذا النَّوع باسمه العلميِّ اللاتينيِّ "*Sargassum bacciferum*" والذي له باللاتينيَّة مرادفٌ علميٌّ آخر هو "*Sargassum natans*" أيْ السَّرجاس السَّابح؛ (م).

للأمواج، علِقَتْ فجأةً وبقوَّةٍ حدَّ أنَّها بقيَتْ شبهَ هامدةٍ ما بها حَراك، كما لو أنَّها جنحَتْ فوق شريطٍ رمليٍّ مرتفع.

كتلةُ الحديد المفولَذ الهائلةُ، ما إن اكتنفَ السَّرجاسُ أحدَ جوانبها، حتَّى انغرزَتْ في مكانها كما ينغرزُ إسفينٌ ضخمٌ داخلَ جذعِ شجرةٍ أكثر ضخامةً بعدُ.

الأمواجُ التي كانت تتشقلبُ وتتكبكبُ فوق حقول الطَّحالب اللامتناهية، مُحاوِلةً عبثاً تفريقها، كانت آنذاك ما تزال تنقضُّ على المدينة، مُجتاحةً القبَّةَ بصورةٍ خاصَّة، وباعثةً القليل من البهجة في نفوس الرِّجال السِّتَّة الذين كانوا عرضةً لخطر أنْ يُطوِّحَ بهم بعيداً؛ بيدَ أنَّ الأمواج لم تعد قادرةً على هزِّ المدينة.

"هل انتهت رحلتنا عندَ هذا الحدِّ، أيُّها القبطان؟" قالَ براندوك وهو يتشبَّث بيأسٍ بحافَّةِ الجُبِّ.

"لسوء الحظِّ" أجابَ رُبَّانُ القنطور. "نحن أسوأ حالاً ممَّا لو كنَّا في سفينةٍ جانحةٍ، ولا أدري مَن سيكون في مقدورِهِ أن ينتشلَ من وسطِ الطَّحالب هذا الصُّندوقَ المعدنيَّ العملاق. إنَّ أسطولاً كاملاً لن يكون قادراً على ذلك".

"لا مناصَ لنا إذاً من العيش إلى الأبد ههنا، أو الموت جوعاً؟"

"جوعاً لا. فبحرُ سرقوسة غنيٌّ بالأسماك التي وإن كانت صغيرةً جدّاً إلَّا أنَّها ليست أدنى قيمةً أو أقلَّ فائدةً للجسم من تلك الأخرى، ومن الممكن الحصول عليها دونما حاجةٍ إلى الشِّباك. وسوف نجدُ أيضاً، في

الواقع، سرطاناتِ بحرٍ كبيرةً وشديدةَ الشَّراهة من شأنها أن تمدَّنا بأطباقٍ لذيذة المذاق".

"لكنِّي أفضِّل أن أكون بعيداً عن هنا".

"وأنا أيضاً، وليس أقلَّ منك".

"هل ستأتي سفينةٌ ما لتنتشلنا من هذه الورطة؟"

"من الممكن أن يمرَّ مركبٌ خشبيٌّ طائرٌ، اختصاراً لمسارِه، فوق هذه البحار العشبيَّة، ولكن متى؟"

شغبٌ مخيفٌ اندلعَ في تلك اللحظة في أعماق المدينةِ العائمة.

"لقد استيقظوا" قالَ طوبي. "هلَّا تحاول، إذا استطعتَ يا جاو، أن تهدِّئ تلك الفورات، وتشرح لهم ما حدثَ خلال سَكْرَتِهم اللعينةِ الهائلة".

"سيكون عملاً محفوفاً بعضَ الشَّيء بالمخاطر. ربَّما من الأفضل لنا أن ينتهوا جميعاً قتلى".

انحنوا جميعاً على حافَّةِ الجُبِّ ورأوا تحتهم خمسين أو ستِّين رجلاً متجمِّعين في السَّاحةِ المكتظَّةِ بالجثث وهم يرمون نظراتٍ مشوَّشةً في الهواء، ويصرخون كحيواناتٍ متوحِّشة.

"المصعد! أنزِلوا المصعد! نريدُ الخروج!"

"أوغاد!" صاحَ جاو. "أرأيتم ماذا فعلتم؟"

"يا سيِّد جاوا!" صاحَ رجلٌ ذو قامةٍ هي أقربُ إلى الضَّخامة. "سامحنا،

لقد أصبحنا كالمجانين ولم نعد نعلمُ ما كنَّا نفعل. كلُّ اللومِ يقعُ على الكحول الذي لم نعد معتادين عليه".

"وتذابحتُم، أيُّها المجرمون".

"لقد كنَّا كالمجانين!..."

"ودمَّرتم حتَّى المنازلَ وخرَّبتم كلَّ أدوات الصَّيد".

"إنَّه ذنبُ الكحول!" صاحَ آخرُ. "لو أنَّ ذلك القبطان الملعون لم يأتِ به إلى هنا لَما كنَّا نبكي الآنَ الكثيرَ مِن رفقائنا".

"أجل، إنَّه هوَ الوغد" صاحَ ثلاثون أو أربعون صوتاً.

"وأنتم همُ اللصوص!" صاحَ رُبَّانُ القنطور، مُظهِراً نفسَه لهم.

هدَرَ صياحٌ هائلٌ، صياحٌ بدا وكأنَّه زئيرُ مِائةِ أسدٍ مُتَّحِدين.

"سافل!"

"وغد!"

"لقد سمَّمْتنا عمداً!"

"إحدى الحكومات الشَّائنة أرسلَتْكَ إلى هنا لتحوِّلنا إلى مجانين ويُقتِّلَ بعدَ ذلك بعضُنا بعضاً".

"الموتُ لك! الموتُ لك!"

"وفوق ذلك يحسبون أنَّهم على حقٍّ، يا طوبي!" صاحَ براندوك.

"حسناً" صاحَ جاو. "سنعود إلى الحديث عن ذلك لاحقاً، عندما تصبحون أكثر عقلانيَّةً وتتوقَّف أبخرةُ الكحول عن إفسادِ أدمغتكم".

"آه! هكذا إذاً يا كلبَ الحاكم!" صاحَ العملاق. "لن أموتَ راضياً إنْ أنا لم أحصل على جلدِكَ أوَّلاً".

"تعال واحصل عليه" أجابَ جاو. "إنَّني أتحدَّاك".

"لن تهربَ منِّي، أقسِمُ لك".

"نعم، فلنقتلهم جميعاً!" صرخَ الآخرون في جوقةٍ واحدة.

"فلندعهم يصرخون ولنُعْنَ نحن بشؤوننا" قالَ القبطان. "فهم لن يتمكَّنوا من الوصول إلينا ما لم نُنزِل لهم المصعد؛ ولكي أقطعَ عنهم كلَّ أملٍ فإنَّني سأرميه في البحر".

ما إن قالَ القبطان ذلك، وقبل أن يُتاحَ للآخرين الوقتُ لمعارضته، حتَّى ألقاهُ بدَفعةٍ واحدةٍ رهيبةٍ عن القبَّةِ إلى الأسفل.

الطَّحالبُ، التي لم تكن كثيفةً جدَّاً في ذلك الموضع، انشقَّتْ وابتلعَتْه.

"لقد حكَمْتَ على أولئك التُّعساء بموتٍ مُحقَّق" قالَ طوبي.

"إذا ما هبطَتْ سفينةٌ ما غداً ههنا، أتعلم ماذا ستفعل؟" سألَ القبطان.

"لا".

"ستقوم بلا أدنى شكٍّ بنسفِ هذه المدينة بقنبلةٍ جوِّيَّةٍ سائلة، مع جميع مَن فيها مِن أمواتٍ وأحياء. أليس صحيحاً يا جاو؟"

"هكذا قرَّرَتْ حكوماتُ أوروبَّا وأمريكا، لكي تلجمَ طُرداءَ المجتمع" أجابَ العجوز.

"لم تمض ثلاثةُ أشهرٍ بعدُ مُذْ قامت سفينةٌ جويَّةٌ، أرسلَتْها الحكومةُ الأمريكيَّة، بإغراق مدينةِ فورتاوا الغائصة لأنَّ المرحَّلين الذين كانوا يعيشون فيها، وكانوا خمسمائة، قد تمرَّدوا وقاموا بقتل قبطان إحدى السُّفن وجميع ركَّابها لينهبوا مِن ثمَّ الحمولة".

"إنَّها قوانين لاإنسانيَّة" قالَ براندوك.

"إنَّ المجتمع يريدُ أن يحيا ويعمل في سلام،" أجابَ القبطان. "وهو ما لا يبشِّر بالخير أبداً بالنِّسبة إلى الأشرار. هراء! فلندَعْ عنَّا هذه النِّقاشات غير المثيرة للاهتمام ولنتناولْ إفطارَنا، بما أنَّ المحيطَ قرَّرَ أن يمنحنا الآن بعض الرَّاحة".

"لن أتمكَّن من تناول طعامي بسلامٍ وأنا أفكِّرُ في أنَّ هنالك مِائةَ شخصٍ ربمَّا، تحتَ قدميَّ، على وشك أن يتضوَّروا من الجوع".

"لعدَّةِ أيَّامٍ لن يُعوزَهم الطَّعام" قالَ جاو. "وفي النِّهاية إذا ما توصَّلوا إلى آراءٍ أكثر حكمةً فإنَّنا سنخلِّصهم من الجثث لئلاَّ ينتشرَ أيُّ وباءٍ وخيمٍ من شأنه أن يكون بلا شكٍّ قاتلاً حتَّى لنا، ولا سيَّما مع الحرارة الرَّهيبة التي تسودُ في هذه المنطقة، وسنسمح لهم بأخذ جرعةٍ من الهواء الطَّلق. ما قولُكَ في ذلك، أيُّها القبطان؟"

"بودِّي أن أتركهم يقضون نحبَهم" أجابَ رُبَّانُ القنطور.

"لا، ذلك سيكون عملاً وحشيَّاً" قالَ طوبي وهولكر.

"إنَّني على يقينٍ من أنَّهم سيهدؤون في النِّهاية" قالَ براندوك. "فعندما تبدأ الجثث بالتَّفسُّخ، سيكونون مُرغَمين على الاستسلام".

"فلنبحث عن إفطارٍ لنا" كرَّرَ القبطان. "لا يَحسُنُ بنا أن نستنفدَ ما لدينا من سمكٍ مُجفَّفٍ قد نتحسَّر عليه لاحقاً. فلنهبطْ على السَّرجاس أيُّها السَّادة؛ فالأسماك، والسَّرطانات الكبيرة والصَّغيرة، تتوافرُ بكثرةٍ بين هذه الطَّحالب، كما قلتُ لكم".

انزلقوا على طولِ القواطع الزُّجاجيَّةِ للقبَّة، متعلِّقين بيدٍ واحدةٍ بالعوارض المعدنيَّة، وهبطوا على حقل السَّرجاس الذي كان في ذلك الموضع كثيفاً جدَّاً لدرجةِ أنَّه كان قادراً على حملِ رجلٍ بشكلٍ ممتاز.

لقد قالَ القبطانُ الحقيقة عندما أكَّدَ أنَّهم لن يعدموا شيئاً مِن طعامِ الإفطار.

في وسط الطَّحالب، المكوَّنةِ من غُصَيناتٍ بُنِّيَّةٍ كثيرةِ التَّفرُّع، مع سُويقاتٍ قصيرةٍ مزوَّدَةٍ بوريقاتٍ سِنانيَّةٍ، كانت تتقافزُ ألوفٌ مؤلَّفةٌ من أسماكٍ صغيرةٍ مسطَّحَةٍ وقبيحةِ الشَّكل، ذاتِ أفواهٍ واسعةٍ للغاية، وبالكاد يبلغُ طولُها سنتيمتراً واحداً، مِن جنسِ "السَّمكةِ الضِّفدع"(*)، وأعدادٌ كبيرةٌ من الأُخطُبوطات الأرجوانيَّة، وكانت تطفرُ مرَحاً أعدادٌ مِن رأسيَّاتِ القَدَم(**) ومِن السَّرطانات الكبيرة، منهمِكةً في إيقاعِ مَذبحاتٍ حقيقيَّةٍ بجيرانها السَّيِّئي الحظِّ.

"أيُّ سوءِ حظٍّ هذا ألَّا يكون لدينا مِقلاةٌ وقارورةٌ من الزَّيت!" غمغمَ

---

*) في النَّصِّ الأصليِّ يذكرُ سالغاري هذا الجنس باسمِهِ العلميِّ اللاتينيِّ: *Antennarius*؛ (م).

**) طائفةٌ من الرَّخويَّات؛ (م).

براندوك من دون أن يضيِّعَ لحظةً واحدة. "أيُّ مقليَّاتٍ فاخرةٍ كنَّا لِنأكل!"

تلك المطاردة، ذلك أنَّ الأمرَ كان مُطاردةً حقيقيَّةً بدلاً من أن يكون مجرَّدَ عمليَّةِ صيدٍ اعتياديَّة، استمرَّتْ قرابةَ النِّصف ساعةٍ وكانت حصيلتُها جَمَّة.

ولعدمِ قدرتهم على طهي شيءٍ مِن كلِّ تلك الأسماك الصَّغيرة، بما أنَّ مواقدَ الرَّاديوم كانت موجودةً في قعرِ المدينةِ العائمة، فإنَّ الأمريكيِّين الثَّلاثة ورِفاقهم كانوا مُرغَمين على تناول تلك الوجبة الشَّهيَّةِ المعدَّةِ للقلي... حيَّةً!

شيئاً فشيئاً هدأ الإعصار. الغيومُ انقشعَتْ في النِّهاية، والرِّياحُ انتهت من إطلاقِ عَصفاتِها العاتية والمحيطُ، كما لو أنَّ قواهُ خارَتْ مِن جرَّاءِ تلك المعركة العظيمةِ التي استمرَّتْ لثمانٍ وأربعين ساعةً، تَمَلَّسَ بسرعةٍ واستوى.

غيرَ أنَّه لم تكن تلُوحُ في الأفق علامةٌ واحدةٌ على أنَّ هياجَ المرحَّلين سيهدأ. كان من الواضحِ أنَّ الإفراط في الشُّرب قد شوَّشَ كلِّيَّاً تلك الأدمغة التي في الأصلِ لم تكن متوازنةً يوماً.

ولأنَّ غضبهم تعاظمَ من جرَّاء رفضِ جاو لإنزال المصعدِ لهم، فقد قاموا بنهبِ المستودعات رامين بكلِّ شيءٍ رأساً على عقب، ثمَّ استأنفوا ما كانوا قد بدأوه مِن تهديمٍ للبيوت التي بقيت قائمةً حتَّى ذلك الوقت، محطِّمين ومبعثرين كلَّ شيء.

بين الفينة والأخرى كانت صرخاتٌ وحشيَّةٌ تصعدُ مِن جُبِّ المصعد، محرِّكةً إلى حدٍّ ليسَ بالقليل مشاعرَ طوبي وبراندوك، ومُبقيةً في حالةِ

من اللامبالاة المطلَقة القبطانَ، وجاو، والطّيّارَ، وحتّى هولكر، أيْ جميعَ الرِّجال الأربعة الذين اعتادوا النَّظرَ إلى الآمين على أنَّهم وحوشٌ خطرون على المجتمع!

ولكن بحلولِ المساء كانت كلُّ تلك العربدة قد انتهتْ. مُنهَكين من التَّدمير والصُّراخ، قرَّرَ المرحَّلون أخيراً أن يرتاحوا على الرَّغم من الرَّائحة الكريهة غير المحتمَلة التي بدأت تنتشرُ تحت القبَّةِ الهائلة. كانت الجثث قد بدأت بالتَّفسُّخ.

كان الأمريكيُّون الثَّلاثة ورِفاقُهم جالسين على حافَّةِ الجُبِّ، محزونين قليلاً، يحدِّقون في السَّماء التي عادت إلى الإظلام، ويتساءلون أيُّ مصيبةٍ أخرى توشكُ أن تحلَّ بهم.

كان ممكناً القولُ آنذاك إنَّ إعصاراً جديداً كان على وشك الثَّوران فوق المحيط المضطرب. هواءٌ ثقيلٌ، خانقٌ، عَمَّ الطَّبقاتِ العليا والسُّفلى، مُشبَّعاً بالشِّحْنات الكهربيَّة.

كانت الشَّمس، قبلَ بضعِ ساعاتٍ من ذلك، قد غطسَتْ، حمراءَ أكثرَ من المعتاد، داخلَ سحابةٍ سوداء ظهرَتْ من جهةِ الغرب.

"طقسٌ سيِّئٌ مرَّةً أخرى، أليس كذلك، أيُّها القبطان؟" سألَ براندوك.

"نعم" أجابَ رُبَّانُ القنطور، وقد بدا أكثر قلقاً من المعتاد. "سوف نحظى بإعصارٍ آخر يا سادتي، إعصارٍ سوف يقذف كلِّيّاً خارجَ خطوطِ الملاحةِ بالسُّفن الطَّائرة التي قد يصادف وجودُها في هذه الأنحاء. ولكنْ لديَّ بعضُ الأمل".

"في ماذا؟" سألَ طوبي.

"في أنَّ هذا الإعصار القادم من الغرب قد ينتشلنا من السَّرجاس ويدفع بنا إلى عرض المحيط مِن جديد".

"ذلك سيكون مِن حسن حظِّنا، أيُّها القبطان".

"رُوَيْدَكَ، يا سيِّدي. ماذا إذا ما دفعتنا الرِّياحُ هذه المرَّة نحوَ جُزُر الكناريِّ؟ هذا هو ما أخشاه".

"أيُغِمُّكَ الرُّسوُّ عند تلك الجُزُر؟" سألَ براندوك مندهشاً.

بدوره حملقَ رُبَّانُ القنطورِ في الأمريكيِّ بدهشةٍ عميقة.

"ولكنْ مِن أين أنت؟" سألَه.

"مِن أمريكا، يا سيِّدي".

"أيْ مِن بلدٍ لا يبعدُ كثيراً عن جُزُر الكناريِّ".

"لا أعلم ما الذي ترمي إليه بقولك هذا، أيُّها القبطان" قالَ براندوك بدهشةٍ لا تَني تزدادُ أكثر فأكثر.

"قليلةُ الحظِّ السَّفينةُ البحريَّةُ أو الجويَّةُ التي قد تسقط على تلك الجُزُر" أجابَ القبطان. "فلا يمكن لأيِّ رجُلٍ مِن أفرادِ طاقمها أن يخرجَ حيَّاً بكلِّ تأكيد".

"ما الذي حدث على تلك الجُزُر إذاً؟" سألَ طوبي الذي لم يكن أقلَّ اندهاشاً من براندوك.

"عجباً! لقد وطَّنَتْ حكوماتُ أمريكا، وأوروبَّا، وآسيا، وإفريقيا، في تلك الجُزُر كلَّ الحيوانات التي كانت ذات يومٍ موجودةً في كلِّ القارَّات الخمس".

"لماذا؟" سألَ براندوك.

"للحفاظ على العروق. ثمَّة هنالك نمورٌ، وأُسُودٌ، وفِيَلَةٌ، وفهودٌ، ويَغْوَراتٌ، وأُسُودٌ جبليَّةٌ، وثيرانُ بيسون، وأفاعٍ، وغيرها من الحيوانات التي لا أعرف حتَّى اسمها" أجابَ القبطان. "فكما تعلمون جيِّداً، جميعُ القارَّاتِ اليومَ أصبحَتْ مكتظَّةً بالسُّكَّان، ولذلك فإنَّ تلك الحيوانات لم تعد تجد الملجأ ولا المهرب. علماءُ الحيوان من جميع أنحاء العالَم، وقبلَ انقراض جميع الحيوانات البرِّيَّة بشكلٍ كاملٍ، فكَّروا في حِفظ العروق الأخيرة على الأقلِّ".

"بِنَقلِها إلى جُزُر الكناريِّ؟"

"أجل، يا سيِّد براندوك" أجابَ القبطان.

"وسُكَّان تلك الجُزُر، ألا يتمُّ افتراسُهم؟"

"أيُّ سكَّان؟"

"ألم يعد هنالك سكَّان؟ معذرةً على جهلي، أيُّها القبطان، فنحن آتيان من الأصقاعِ الأكثر نأياً في القارَّةِ الأمريكيَّة، حيث لا تصلنا أخبارٌ عن كلِّ ما يحدث في العالم" قالَ طوبي الذي لم يكن يرغب على الإطلاق في إطلاعِ أحدٍ على قصَّةِ قيامتهما.

"كنتُ أظنُّ أنَّ الأمريكيِّين متقدِّمون علينا نحن الأوروبيِّين بأشواط" قالَ القبطان. "لقد كنتما دائماً إذاً، ولخمسين سنةً أو نحو ذلك، على جهلٍ بالكارثة الرَّهيبة التي ضربَتْ تلك الجُزُر التَّعيسة الحظِّ؟"

"لم نسمع قطُّ أحداً يتحدَّث عن ذلك" أجابَ براندوك.

"كان من المعروف سابقاً أنَّ تلك الجُزُر ذاتُ أصلٍ بركانيٍّ" قالَ القبطان. "لم تكن سوى القمم الأكثر عُلْواً لجبالٍ هائلةٍ أو بالأحرى لبراكين تمَّ ابتلاعُها ربَّما خلالَ الطُّوفان العظيم الذي أغرقَ أطْلَنتِس القديمة. ففي يومٍ نحيسٍ بدأت جزيرةُ تَنرِيْف، بعد آلاف السِّنين من النَّوم، بالإفاقةِ لافظةً حمماً بكمِّيَّاتٍ مُذهلةٍ ورماداً غطَّى جُزُرَ أرخبيل الكناريِّ كلَّها. وليس ذلك فحسب، بل إنَّها لفظَتْ أيضاً كمِّيَّةً من الغاز الخانق قضَتْ على سكَّان الأرخبيل كُلِّيَّاً".

"ألَمْ ينجُ منهم أحدٌ؟" سألَ براندوك.

"بالكاد خمسة عشر أو عشرون شخصاً، وهُمُ الذين حملوا إلى أوروبَّا تلك الأخبار الرَّهيبة" أجابَ القبطان. "ذلك الثَّوران البركانيُّ المهولُ استمرَّ عشرين عاماً، مؤدِّياً إلى اختفاء العديد من الجُزُر، ثمَّ توقَّف فجأةً. وبعد أن حاولَت الحكوماتُ الأوروبِّيَّة والأمريكيَّة عبثاً توطينَ تلك الأراضي، فكَّرَتْ في أن تهجِّرَ إليها جميع الحيوانات، المفترسة وغير المفترسة، التي كانت ما تزال موجودةً في القارَّات الخمس، للحيلولةِ دون انقراضها الكامل".

"لقد تحوَّلَتْ تلك الجُزُر إذاً إلى عددٍ كبيرٍ من حدائق الحيوانات" قالَ طوبي.

"نعم، يا سيِّدي. من وقتٍ إلى آخر ينزلُ بعضُ الصَّيَّادين الشُّجعان بتلك الجُزُر في رحلات صيدٍ، بهدفِ تزويد المتاحف بنماذج من تلك الحيوانات وفي نفسِ الوقتِ للحيلولةِ دون ازديادِ أعدادِها عن الحدِّ الذي تستطيع تلك الجُزُر احتمالَه".

"ما أكثر ما قام به هؤلاء الرِّجال في مِائة عام!" همهمَ براندوك وقد أصبحَ في تلك اللحظة منشغلَ الفِكر. "ما الذي كنَّا سنراه إذاً بعد مِائةِ عامٍ أخرى، إذا ما قُيِّضَ لنا أن نعيد التَّجربة؟ ظنِّي أنَّنا لن ننجوَ، نحن القادمَين من عصورٍ بائدة".

الإعصارُ الذي أعلنَ القبطانُ عن مَقْدَمه كان يتقدَّم، مع تصاعُدٍ رهيبٍ في الرُّعودِ والبروقِ التي كانت من شدَّةِ الإبهار بحيث شعرَ براندوك وطوبي بأنَّ العمى أصابَهما.

كان يبدو أنَّ الشِّحنات الكهربيَّة الهائلة المولَّدة مِن قِبَل أعدادٍ لا حصرَ لها من الآلات الكهربائيَّة العاملة على سطح القشرةِ الأرضيَّة كان لها مفعولُها أيضاً في طبقاتِ الجوِّ العليا، ذلك أنَّ الأمريكيَّين لم يسبق لهما أن رأيا قطُّ، في عصرهما، بروقاً في مثل تلك الشِّدَّةِ من الإبهار ومثل ذلك الأمدِ من المداوَمة.

هذه المرَّة كان الإعصار آتياً من الغرب. ولذلك كان من المرجَّح أنَّ بحرَ سرقوسة، ممزَّقاً بغاراتِ الأطلسيِّ الهائجة، سوف يفتح الألوف المؤلَّفة من أذرعِهِ، مُخلياً سبيلَ المدينة العائمة.

في منتصف الليل، انهالَ المحيطُ، مرفوعاً مِن قِبَلِ ريحٍ شديدةِ الهبوب، بنَطَحاتِهِ الأولى على حقول السَّرْجاس. كانت أطوادُ موجِهِ تتهاوى على الكتل العشبيَّة بأقصى ما يكون الجموح، قارضةً أو مُقطِّعَةً الحوافَّ هنا وهناك.

كانت المدينةُ العائمة، المحاصَرَةُ من الأسفل، تتحرَّك في جميع الاتِّجاهات. بدا وكأنَّ عُباباً هائجاً، ذا قوَّةٍ لا يمكن التَّنبُّؤ بها، آخذٌ بِضَرْبِها في الجزءِ السُّفليِّ منها، لأنَّها بين الفينة والأخرى كانت تمرُّ بتخبُّطاتٍ عنيفةٍ وضعَتْ عضلاتِ الأمريكيِّين الثَّلاثة ورِفاقِهم على مِحَكٍّ شاقٍّ للغاية.

المرحَّلون، وقد أفاقوا من جرَّاء هزيمِ الرُّعود المتواصل، ووميضِ البروق المعمِّي، واصطخابِ الأمواج، بدأوا مرَّةً أخرى بالصُّراخ، لتختلطَ أصواتُهم بعويل العاصفةِ المتجبِّر.

مذعورين من كلِّ ذلك الضَّجيج، وغيرَ عارفين بما كان يحدث في الخارج، راحوا يُطالبون بإنزال المصعد الذي لم يعد له أيُّ وجودٍ آنذاك، مهدِّدين بخرق جدران المدينةِ العائمة وإغراقِ الجميع.

"لم يكن ينقصنا سوى هذا!" صاحَ القبطان، جزِعاً بعضَ الشَّيء. "إذا نفَّذوا تهديدَهم، فحينئذٍ ليلةٌ طيِّبةٌ للجميع. لن يكون حقلُ السَّرجاس ما سوف يُنقذنا، مع هذا التَّموُّج المسعور. عليك القيامُ بمحاولةٍ لتهدئتهم، يا عزيزي جاو".

"قد لا يكون لنا بُدٌّ من السَّماح لهم بالصُّعود، وحينئذٍ سيُجْهزون علينا جميعاً" أجابَ الشَّيخُ وقد بدأت فرائصُهُ ترتعد.

"حاوِلْ أن تطمئنَهم".

"لن يصغوا إليَّ. إنَّهم يريدون الخروج من هذا الخندق الجحيميِّ(*) الذي يختنقون فيه. ألا تشعرون بأنَّ رائحةً فظيعةً بدأتْ تنبعث من كلِّ تلك الجثث؟"

"لم نكن نحن مَن ارتكبَ المجزرة" قالَ القبطان. "فليتحمَّلوا الآن عواقبَ ما اقترفَتْ أيديهم. نحن لا نستطيع، بقليلِ عددِنا هذا ودونما مصعدٍ، أن نرفعَ إلى هنا أربعمائةِ جثَّةٍ أو أكثر. سوف يستغرق ذلك أسبوعاً من العمل".

---

*) الإشارة هنا إلى الخنادق العشرة التي تتكوَّن منها الدَّائرة الثَّامنة من دوائر الجحيم في الكوميديا الإلهيَّة لدانتي؛ (م).

"وقد لا تكفينا تلك المدَّة" قالَ الطَّيَّار.

"ولكن عليك أن تفعل شيئاً لأجلِ أولئك البائسين" قالَ طوبي.

"يا لِغبائي!" هتفَ جاو في تلك اللحظة. "وهُمُ أكثر غباءً منِّي أيضاً".

"لماذا، يا صديقي؟" سألَ القبطان.

"لأنَّه في مقدورنا أن نحوِّلَ المدينة العائمة إلى ثلَّاجةٍ هائلة. أيُعقَلُ أنَّ أحداً لم يفكِّر قبلَ الآن في ذلك! إنَّني لَألعنُ نفسي ثلاثاً بأنَّني بهيمةٌ بمِائة قرنٍ على رأسي!"

"وكيف يكون ذلك؟" سألَ براندوك وطوبي.

"لدينا أكثر من عشرين خزَّاناً مليئاً بالغاز المُسال لِحفظ الأسماك فيها. عَشرٌ منها تقبع تحت القبَّةِ والأخرى موزَّعةٌ في زوايا المدينة الأربع. في غضون خمس دقائق أو أقلَّ قليلاً سوف تتجمَّد الجثث ويتوقَّف تحلُّلُها على الفور".

"وهل ستجمِّد الأحياء أيضاً؟" سألَ براندوك.

"لديهم ألحفة؛ فليلتحفوا بها" قالَ القبطان.

"حاولْ أوَّلاً أن تهدِّئَهم وتُخبرَهم بذلك" قالَ طوبي. "ألا تسمع كيف يدقُّون على جدران المدينة؟ ليس عندي شكٌّ في متانتها، ولكنَّها في لحظةٍ ما قد تتداعى".

"أنت مُحقٌّ في هذا" أجابَ جاو.

لكي يسمعه المرحَّلون على نحوٍ أفضل، انحدرَ وصولاً إلى العوارض الفولاذيَّة التي كانت تعمل كدعامةٍ للمصعد، مُطِلّاً عليهم من بين حُزَم الضَّوء القويَّة المقذوفةِ مِن مصابيح الرَّاديوم التي لم تنطفئ أبداً.

سرعان ما لَمَحَهُ القاطنون الذين لم يتوقَّفوا لحظةً عن النَّظر إلى الأعلى، على أمل أن يروا المصعد هابطاً إليهم، وفي الحال صعدَتْ عبر الجُبِّ أصواتُ غناءٍ جماعيٍّ من الشَّتائم مع هديرٍ صخبٍ مسعور.

"ها هو السَّفَّاح!"

"ها هو الخائن!"

"فلنقتل هذا الوغدَ خرِّيجَ السُّجون الذي أقسمَ منذ أوَّل لحظةٍ على إهلاكنا".

"انزلْ أيُّها الكلب!... انزلْ!..."

تركَهم جاو يفرِّجون عن أنفسِهم، متلقِّياً برباطةِ جأشٍ، ودونما انزعاجٍ، ذلك الإعصارَ من الشَّتائم والتَّهديدات، وعندما رأى أنَّهم لم يعودوا يملكون أنفاسَهم، أومأ إليهم بحركةٍ وِدِّيَّةٍ، وهو يصيح:

"هلَّا تتوقَّفون عن ذلك، أيُّها المجانين! أتريدون أن تصغوا إليَّ أم لا؟ إذا استمرَّيتم على هذا المنوال فإنَّني سأصعد إلى حيث كنتُ ولن تروني بعد ذلك أبداً".

"نعم، نعم، فلندعه يتكلَّم!" صاحت عدَّة أصواتٍ.

"تكلَّمْ إذاً، أيُّها العجوز" هتفَ صوتٌ آخر.

"لقد انفصلَتْ مدينتُنا عن الصَّخرة، والعاصفةُ حملَتْنا إلى وسطِ السَّرجاس".

"أنت تكذب!"

"دعوا أحدَكم، ولكن واحداً فحسب، يصعد ليتأكَّد من أنَّني لم أقُلْ سوى الحقيقة".

"أنزِلِ المصعد!"

"لقد حملَه البحرُ بعيداً".

"أرسِلْ حبلاً إلى الأسفل إذاً".

"حسناً" أجابَ جاو. "ولكنِّي أحذِّرُكم، إذا أقدَمَ أكثرُ من واحدٍ على الصُّعود قطعناه. فالقبَّةُ ستنهارُ تحت وزنِكم".

"أتريدُنا أن نَهلك هنا، وسطَ كلِّ هذه الجثث التي تُرسِلُ بشكلٍ مُريعٍ روائحَها الكريهة؟" صاحَ آخر.

"افتحوا خزَّانات الغاز المُسال وسوف تتجمَّد في الحال".

لم يكدْ يُنهي كلامه حتَّى هرع كلُّ أولئك الرِّجال نحوَ زوايا المدينةِ العائمةِ الأربع، حيث كانت توجد أنابيب ضخمة من الحديد المفولَذ.

سُمِعَتْ في الحال أصواتُ صفيرٍ حادَّةٌ للغاية، ثمَّ انبعث من الجُبِّ تيَّارُ هواءٍ مُثلَّج، فيما تغطَّتْ ألواحُ الزُّجاج من الأسفل بطبقةٍ من الجليد.

في الوقتِ نفسِه كان براندوك، والقبطان، والطَّيَّار يصِلون ويعقِدون الحبالَ التي كانت ذاتَ يومٍ تُستَخدَمُ لتعليق الشِّباك والتي تغاضَتْ عنها الأمواجُ جزئيّاً.

"فلننزلْها في هذه الثَّلَّاجة" قالَ براندوك وهو يتنشَّق ملءَ رئتيه الهواءَ الباردَ الذي كان يخرجُ باستمرارٍ من الجُبِّ متدفِّقاً في زوابعَ عنيفةٍ وفُجائيَّة. "إنَّنا تحت خطِّ الاستواء تقريباً وأسناننا تصطكُّ. ما الذي لم يبتكره بعدُ هؤلاء الرِّجالُ المذهلون مِن أبناءِ الألفيَّة الثَّالثة؟ سوف ينتهي بيَ الأمرُ إلى الجنون، أؤكِّدُ لكم ذلك!"

ما إن فُتِحَتِ الصِّمَاماتُ حتَّى هرع المرحَّلون إلى داخل البيوت التي كانت ما تزال قائمةً، بصورةٍ جيِّدةٍ أو سيِّئةٍ، على أركانها، ليستولوا على جميع الألحفةِ التي وجدوها.

إذا كان الجليدُ قد بدأ يتشكَّلُ على الوجهِ السُّفليِّ للقبَّة، فأيُّ صقيعٍ كان مخيِّماً هناك في الأسفل مع تلك الخزَّانات الأربعة التي كانت تنفثُ طبقاتٍ وطبقاتٍ من الجليد؟!

مُمْسَكاً بقوَّةٍ مِن قِبَل القبطان، والطَّيَّارِ، وجاو، لامسَ الحبلُ أخيراً سطحَ الأرض؛ ولكنَّ اضطراباً آخرَ أشدَّ هولاً اندلعَ في تلك اللحظة بين أولئك الهائجين.

عشرون يداً أحكمَتْ قبضتَها عليه ولم تعد تريدُ مبارحتَه. أمَّا أولئك الذين لم يتمكَّنوا من بلوغِهِ في وقتٍ مبكِّرٍ فقد راحوا يطعنون بلا رحمةٍ رِفاقَهم الذين أمسكوا به قبلَهم.

عبثاً حاولَ القبطانُ ورفيقاه، وقد اشمأزَّتْ نفوسُهم من تلك المشاهد، أن يسحبوا الحبلَ. كان لا بدَّ لهم من آلةٍ رافعة.

كان أوَّلُهم على وشك أن يقترحَ قطْعَهُ عندما، بقفزةِ بهلوانٍ، وثبَ شابٌّ من السُّجناء، أكثر خفَّةً من الآخرين، فوق رؤوس المتعاركين، قابضاً عليه وقاطعاً إيَّاه تحتَ مستوى قدميه بضربةِ سكِّينٍ واحدة.

"هيَّا! هيَّا!" صاحَ القبطان.

صعدَ الشَّابُّ مُسرعاً، بينما شدَّ الأمريكيُّون بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ أزْرَ القبطان.

حين رأى المرحَّلون صاحبَهم مرتقياً الحبلَ أثخنوه بالجراح، متوعِّدين ببقرِ بطنِهِ حالما ينزلُ عائداً.

"لا يمكننا أبداً أن نتوصَّلَ إلى اتِّفاقٍ مع أولئك الأوباش" غمغمَ براندوك. "يبدو لي أنَّ حقيقةَ المجرمِ قبلَ مِائةِ عامٍ قد بقيَتْ هي نفسها. لقد حسَّنَ العلمُ كلَّ شيءٍ ما عدا جنسَنا البشريَّ، فالإنسان الخبيث بقيَ خبيثاً. ولسوفَ تمرُّ قرونٌ وقرون ولكنَّه، إذا ما رُفِعَتْ عنه طبقةُ الطِّلاء التي أسبغَتْها الحضارةُ عليه، سيبقى على الدَّوامِ ذلك الإنسانَ البدائيَّ ذا الغرائزِ الدَّمويَّة".

وصلَ الحبلُ أخيراً، مسحوباً بقوَّةٍ مِن قِبَلِ القبطان ورِفاقه، إلى حافَّةِ الجُبِّ.

السَّجين الذي كان متشبِّثاً به، وهو فتىً حديثُ السِّنِّ، أمردُ تقريباً، وأشقرُ، وناحلُ الذِّراعين والسَّاقين، ما إن رأى أنَّه بلغَ نقطةً مناسبةً حتَّى ترك الحبلَ قافزاً برشاقةٍ إلى سطحِ القبَّة.

"انظرْ إذاً، ثمَّ ارجعْ لتخبر أصحابَك بما رأيت" قالَ لهُ جاو.

"لا يهمُّني أكُنَّا في البحر أم في الجحيم" أجابَ السَّجين وهو يأخذ نفَساً طويلاً. "لقد خرجتُ من ذلك المسلَخ وهذا يكفيني. اقتلوني، إذا شئتم، ولكنَّني لن أعودَ إلى هنالك أبداً. لَسَوف يقطِّعونني إرباً إرباً".

"فلتبقَ هنا إذاً، ولكنّني أحذِّرك" قالَ القبطان "إذا ما أقدَمْتَ على أيِّ عملٍ ضدَّنا، فسيكون عليك حينئذٍ أن تسوِّي حسابَكَ مع مسدَّسي الكهربائيِّ".

"لن أضعَكم في أيِّ مأزق، أقسمُ على ذلك، يا سيِّدي".

في الأسفل، كان المرحَّلون يصرخون ملءَ حناجرهم. ولكنَّ صوتَ العاصفةِ الهادرَ لم يتوقَّف هُنيهةً عن خنق كلِّ ذلك العجيج.

كان الإعصارُ يمزِّقُ الأطلسيَّ للمرَّةِ الثَّانية.

"أين نحن ماضون؟" تساءلَ القبطان محدِّقاً بقلقٍ في الأمواج وهي تتقلَّبُ باهتياجٍ شديدٍ فوقَ حقولِ السَّرجاس.

فجأةً، المدينةُ التي كانت قد انحرفَتْ قليلاً، استوَتْ في لحظةٍ واحدةٍ، مرتفعةً عدَّة أمتارٍ على الأمواج.

"تشبَّثوا بالعوارض!" صاحَ جاو.

موجةٌ وحشيَّةٌ، مخترقةً حقلَ السَّرجاس الذي كانت المدينةُ العائمةُ متَّكئةً عليه، كانت تتقدَّمُ مع ألفِ جُؤارٍ وجُؤار دافعةً أمامَها ستائرَ كثيفةً من الأمواه المترَبة التي كانت تحجبُ كلَّ شيءٍ حتَّى ضوءَ البروق.

"أتُراها ستسيرُ بنا إذاً؟" سألَ براندوك، فيما كانت ذراعُ طوبي اليمنى تمسك به بقوَّةٍ لئلَّا تطوِّحَ به تلك الموجةُ بعيداً.

بوقٌ، بوقٌ حقيقيٌّ مِن ماءٍ مرَّ مِن فوقهم، غامراً وغامساً إيَّاهم من الرَّأس إلى أخمص القدمين، ثمَّ تحرَّكَتِ المدينةُ العائمة وقامت بوثبةٍ هائلة. كانت حُرَّةً من جديد.

جزيرةُ الحيواناتِ الوَحِيشة

للمرَّةِ الثَّانية كانت المدينةُ العائمةُ تحت رحمةِ المحيط. القوى الوحشيَّة للطَّبيعةِ انتصرَتْ مرَّةً أخرى، ولكن ليس على نحوٍ سيِّئٍ هذه المرَّة، إذْ أنَّها حرَّرَتِ الغرقى، وكان من الممكن تَسْمِيَتُهم هكذا آنذاك، مِن سجنٍ كان من الممكن أن يصبحَ قاتلاً للجميع.

استأنفَت الكتلةُ العملاقةُ رقصتَها الفوضويَّة. أين كانت تتَّجه؟ لا أحد كان يعلم. غيرَ أنَّ ما لا لُبْسَ فيه هو أنَّ الرِّياحَ والأمواجَ كانت تدفعُها نحو الشَّمال الشَّرقيِّ، نحو جُزُر الكناريِّ.

الرِّجال الذين أصبحوا سبعة، بعدما انضمَّ إليهم الفتى المرحَّل، لم يكونوا في وضعٍ يُغبَطون عليه.

كان السُّجناء أكثر حظّاً بكثير، فَهُمُ على الأقلِّ كانوا آمنين داخلَ الجدران الفولاذيَّة، آمنين مِن ضرباتِ البحرِ ومِن ضربات الرِّيح الرَّهيبة، حتَّى وإن كانوا يُصارعون البردَ الشَّديدَ الذي كان يخرج بلا توقُّفٍ مِن خزَّانات الغاز المُسال.

كان الإعصارُ يعصفُ بهياجٍ شديد؛ وكان يبدو أنَّه اتَّخذَ قرارَه الذي لا رجعة فيه بإتلاف المدينةِ العائمةِ السَّيِّئةِ الحظِّ.

"أتعلمُ يا طوبي؟" قالَ براندوك، فيما استمرَّت الأمواجُ بالمرور مراراً وتكراراً فوقَ القبَّةِ باندفاعٍ مُخيف "كأمريكيٍّ جيِّدٍ لم أُعْرِض يوماً عن خوض

المغامرات؛ ولكنَّني بدأتُ أشعرُ بأنَّني نلتُ ما يكفي من هذه القصَّة. أتعلمُ ما الذي أفكِّر فيه؟"

"تفكِّرُ في أنَّ الأمواجَ عاتيةٌ للغاية وأنَّ المحيطَ الأطلسيَّ ليس رؤوفاً جدَّاً بأبناء القرن المنصرم".

"لا؛ أفكِّرُ في أنَّنا سننتهي نهايةً وخيمة".

"وهل تتأسَّف لذلك، بعد أن عشتَ قرناً ونصفَ القرنِ تقريباً ورأيتَ الكثيرَ من العجائب؟ مِن دون مشروبيَ الرُّوحيِّ ماذا كنتَ ستكون، في هذه اللحظة؟ نُتفةَ رمادٍ مِن دون حتَّى شَقفةِ عَظْمٍ صغيرة".

"أنتَ مُحِقٌّ، يا طوبي" أجابَ براندوك، مُرغِماً نفسَه على الابتسام. "مِن بين مئات ومئات الملايين من البشر الذين اختفوا في هاوية الموتِ السَّحيقة، نحن الوحيدان اللذان نجونا فكيف لي أن أمتلك شجاعةَ التَّأسُّف؟!"

"فلتقنَعْ إذاً بالعيش ساعةً، أو شهراً، ولا تفكِّر في أيِّ شيءٍ آخر. فمهما يحدثُ مِن أمْرٍ، ما مِن فانٍ آخر نال حظَّاً عظيماً كالذي نلناه. تَوَقَّ الأمواجَ بدلاً مِن ذلك. إنَّها تعتدي على حياتنا".

وقد كانت تعتدي عليها بالفِعل. فمنذُ خمسين عاماً، أو ربَّما مِائة، لم يتأجَّج المحيطُ الأطلسيُّ غضباً مثلما كان يتأجَّجُ آنذاك. لم يسبق لبراندوك، وهو الذي عَبَرَهُ في شبابه مرَّاتٍ عديدةً، أن رأى شيئاً كهذا.

ولكنَّه التَّوتُّرُ الكهربائيُّ العالي ما كان يؤثِّر في الأمريكيِّين قبلَ كلِّ شيء. كان وميضُ البروقِ يدومُ مدَّةً غير مألوفة، لخمسٍ أو حتَّى لعشر دقائق، وكانت الصَّواعق تنهمرُ بالعشراتِ في وقتٍ واحد. براندوك الذي ربَّما

كان متوتِّرَ الأعصاب أكثر من طوبي، كان ينتفضُ وكأنَّه كان يتلقَّى شِحناتٍ كهربيَّةً حقيقيَّةً، لدرجةِ أنَّه عندما كان يمرِّرُ يداً على رأسه، كان شَعرُه، وعلى الرَّغم من تغرُّقِهِ بالماء، يُفرقعُ ويُطلِقُ شراراتٍ حقيقيَّة.

استمرَّت المدينةُ العائمةُ أثناءَ ذلك في شقِّ طريقها خلالَ الأمواج مثلَ قوقعةِ جوزٍ بسيطة. لم تكن سفينةً بكلِّ معنى الكلمة: كان من الممكن اعتبارُها خردةً هائلةً تحت رحمةِ نقماتِ المحيط.

طيلةَ الليل، وحتَّى طَوالَ النَّهار التَّالي، جابَتِ الكتلةُ الهائلةُ، مُجتاحَةً بأطوادِ الموج، أقاصي الأطلسيِّ على غيرِ هُدىً ودونما توقُّفٍ، ومن دون أن يتمكَّن الغرقى مِن فِعل شيءٍ لتصويب وِجْهَتِها.

وطَوالَ ذلك الوقت بقيَ المرحَّلون محافظين على هدوئهم، مبهوتين ربَّما مِن دويِّ الأمواج، ومِن هزيم الرُّعود المتواصل، ومِن الاهتزازاتِ العشوائيَّةِ لمدينتهم.

ولا شكَّ، إضافةً إلى ذلك، في أنَّ البردَ الشَّديدَ الذي كان سائداً هناك في الأسفل قد هدَّأ هياجَهم. لم يسبق قَطُّ أن تمتَّعَتْ ثلَّاجةٌ بمثل ذلك الصَّقيع، فبلَّوراتُ الجليد غلَّفَت كلَّ شيءٍ حتَّى الجثث، مُوقِفَةً تحلُّلَها.

في صباحِ اليوم الثَّاني أطلقَ القبطانُ، الذي داومَ مع الطَّيَّار على النُّهوض بأعباء الحراسة الليليَّة، مُقاوماً سطوةَ النُّعاسِ بشدَّة، صيحةً شقَّتِ الفضاء.

"تَنرِيْف!"

ما إن سمعَ الأمريكيُّون الثَّلاثة، وجاو، والفتى السَّجين، الذين أخذَهم

النُّعاسُ بعد أن قيَّدوا أنفسَهم بقوَّةٍ إلى العوارض الفولاذيَّة لكيلا تطوِّحَ بهم بعيداً أطوادُ الموجِ التي كان الأطلسيُّ يقذفُ القبَّةَ بها دونما هوادةٍ، حتَّى نهضوا جالسين.

كان الفجرُ قد بدأ بالبزوغ؛ ولكنَّه كان فجراً رماديَّاً، كئيبَ الهيئةِ، ذلك أنَّ الغيومَ الهائجةَ لم تكن تسمحُ للضِّياء بالانتشارِ بحُرِّيَّة.

جهةَ الشَّرق، على ارتفاعٍ شاهقٍ، كان عمودٌ من النَّارِ يتسنَّمُ الفضاءَ، متأرجحاً في كلِّ الاتِّجاهات وثاقباً وجهَ السَّماء.

"أما يزالُ الجبلُ العظيمُ يقذفُ حُمَمَه؟" سألَ براندوك.

"يبدو أنَّه قد استفاقَ من جديد" أجابَ القبطان.

"أتدفعُنا الرِّياحُ صوبَ تلك الجُزُر؟"

"للأسف" أجابَ القبطان.

"أيجبُ علينا، بعدَ أولئك المرحَّلين، أن نتعاملَ الآن مع الوحوشِ البرِّيَّة؟"

"ليست كلُّ الجُزُر مأهولةً بالأُسُودِ، والبُبُورِ(*)، والفهودِ، واليَغوَراتِ، والنُّمورِ الرَّقطاء وما إلى ذلك، يا سيِّدي. فهناك مِن بينها العديدُ من الجُزُر التي توفِّرُ ملاذاً آمناً لحيواناتٍ مُسالمةٍ أو شِبهِ مُسالمة، كثيران البيسون، آخرِ ما بقي منها في بلادكم، والنَّعامِ، والغزلان، والأيائل الحمراء، والأيائل الأوروبِّيَّةِ السَّمراء، وغيرها الكثير ممَّا لا أعرف اسمه. إذا كانت الأمواجُ تسوقُنا نحو واحدةٍ من هذه الأخيرة، فلن يكون لدينا ما نخشاه، بل على

*) جمع بَبَر، وهو النَّمِر المخطَّط؛ (م).

العكس، سيكون لدينا الكثير من المشاوي اللذيذة. لسوءِ الحظِّ، يبدو أنَّ الأمواجَ تدفعُنا نحوَ جزيرةِ تَنرِيْف".

"إنَّك تجعلُ جلدي يقشعرُّ، أيُّها القبطان".

"سوف نلتجئُ إلى قعرِ المدينة".

"وحينذاك يقطِّعُنا المرحَّلون إرباً إرباً".

"آه! اللعنة! لم أكن أعتقد أنَّ ثمَّة بركاناً تحت أقدامنا أيضاً" قالَ رُبَّانُ القنطور. "ولكنَّنا لم نبلغ اليابسةَ بعدُ وما نزال لا نعلم إلى أين ستدفعُ هذه الأمواجُ القُلَّبُ بهذا الصُّندوق المعدنيِّ الهائلِ ليتهشَّم".

"ألديك تخوُّفٌ مِن أن يتحطَّم؟" سألَ طوبي.

"إنَّ شواطئ تلك الجُزُر قد شُقَّتْ في كلِّ مكانٍ تقريباً بشكلِ جُرُوفٍ عموديَّةٍ شاهقة، ولا أستطيع أن أخبرك، يا سيِّدي، في أيِّ حالٍ يمكن أن نرسو. ولكنْ ليس في حالٍ جيِّدةٍ جدَّاً، بكلِّ تأكيد. سنواجه هناك أمواجاً قاعيَّةً من شأنها أن تقذف بالمدينةِ العائمةِ إلى حيث لا أحد يعلم! أيّاً يكن ما سوف يحدث، فإنَّني أنصحكم بألَّا تتركوا لحظةً واحدةً عوارضَ القبَّة: كلُّ مَن سيسمح للأمواج بانتزاعه سوف يُسحَقُ سحقاً لا ريبَ فيه. أبقوا عيونكم على كلِّ شيءٍ، وتمسَّكوا جيِّداً!"

في واقعِ الأمر، كان يُدفَعُ بالمدينةِ العائمةِ نحوَ العقارِ الإسبانيِّ القديمِ الذي كانت أهوالُ الجبلِ العظيمِ قد جعلَتْهُ غيرَ صالحٍ للسُّكنى.

كان المخروطُ الهائلُ، وكما لو أنَّه أرادَ أن يكون جديراً بصُحبةِ الأطلسيِّ الغاضب، يقذفُ بحُمَمِه بعزمٍ كبيرٍ، وقد تلفَّعَ بأكملِه بالنَّار.

على امتدادِ جوانبه الوعرة، كانت أنهارٌ حقيقيَّةٌ من الحُمَمِ تسيلُ نحو البحر، مُشعِلَةً الغاباتِ في طريقها.

قذائفُ ضخمةٌ كانت تخرجُ مِن فُوَّهتِهِ الملتهبة، وتسقط من جديدٍ، بعد أن تكون قد عَبَرَتِ الغيوم، راسمةً في الفضاء أقواساً رائعةً، وتاركةً مِن ورائها رشقاتٍ من النَّار، ثمَّ في النِّهايةِ تنفلقُ متفجِّرَةً.

زمزماتٌ مُخيفةٌ كانت تخرجُ كذلك من الحلقِ الملتهبِ للبركان، خانقةً في بعض الأحيان هزيمَ الرُّعود.

"مَن كان لِيقول إنَّ ذلك الماردَ يمكن أن يستفيق يوماً، ولمرَّتين على التَّوالي؟" غمغمَ طوبي. "ذلك يعني أنَّ الأرضَ لم تبدأ بعدُ بالابتراد".

كانت المدينةُ العائمةُ تواصلُ تقدُّمَها في تلك الأثناء، مارَّةً في القناةِ الواسعةِ بين جزيرةِ قنارية الكبرى وجزيرةِ فويرتيفنتورا، حيث كان الخطرُ كبيراً في أن تصطدمَ بأحدِ الحيودِ الصَّخريَّةِ التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى والتي كانت قد نشأتْ بعد الثَّوران الأخير لِتَنرِيْف.

وحيث إنَّ الأمواج أصبحَتْ أقلَّ اهتياجاً، لوقوفِ الجزيرتين، كحاجزَين كَؤُودَين، في وجه غضباتِ الأطلسيِّ، فقد تسنَّى للقبطان ورفاقِهِ النُّهوضُ على أقدامهم.

ضوءٌ ساطعٌ، أحمرُ حُمرَةَ الفجرِ في الشَّمال، كان يسقطُ من المخروطِ الهائلِ، صابغاً المياهَ بانعكاساتٍ دمويَّة.

كان المشهدُ فخماً ومهيباً في آنٍ واحدٍ.

دوَّاماتٌ من الدُّخان الضَّارب إلى الحُمرة، والتي كانت ترسلُ بين الفينةِ

والأخرى وَمْضاً مُكئباً وكابياً، كما لو أنَّ كتلاً من الكبريت كانت تتوقَّدُ داخلَ الفُوَّهة، كانت تتمدَّدُ تحت الغيوم الهائجة، دائرةً في زوبعتِها على أجنحةِ الرِّياح. القذائف استمرَّتْ في التَّساقط، مع أزيز كأزيزِ الرَّعد، ممزِّقةً ومُحرِقةً الأحراجَ العريقةَ في القِدَم، فيما كانت تيَّاراتُ الصُّهارةِ البركانيَّة تتفشَّى كبحرٍ من النَّار.

"لقد رأيتُ فيزوفَ مرَّةً" قالَ براندوك. "ذلك كان مجرَّدَ دُميةٍ بالمقارنةِ مع هذا الجبَّار الأبجر".

كانت المدينةُ العائمةُ، المدفوعةُ دوماً مِن قِبَلِ الأمواج، قد دخلَتِ المنطقةَ المضاءَةَ آنذاك. بدَتْ وكأنَّها تُبحِرُ على موجِ بحرٍ مُشتعِل.

عاكساً وهجَ البركان، راحَ زُجاجُ القبَّةِ يُلقي إلى قاعِ المدينةِ ضوءاً كان من شدَّةِ السُّطوعِ حدَّ أنَّه جعل الضَّوءَ المنبعثَ من مصابيحِ الرَّاديوم يبدو شاحباً وذاوياً إزاءَه.

ولِعدم تمكُّنهم من تخمين ما كان عليه الأمرُ، أخذ المرحَّلون يصرخون ذعراً، من دون أن يهتمَّ أحدٌ بأن يفسِّرَ لهم من أين كان يأتي ذلك الوهجُ السَّاطع.

عظيماً كان الجزعُ، أو بالأحرى الغمُّ، الذي استولى على القبطان وعلى رفاقِه، من جرَّاء التَّفكير في أولئك الذين كانوا يتجمَّدون داخلَ كتلةِ الحديدِ المفولَذِ الهائلة.

كان الاصطدامُ وشيكاً.

كانت تَنزِيْفُ على مرمى أقلاسٍ قليلةٍ، وكانت أطوادُ الموجِ مستمرَّةً في دفعِ المدينةِ العائمةِ بعزمٍ كبير. أتُراها ستصمُدُ أم ستتحطَّم؟ ذلك هو السُّؤالُ الذي كان يعذِّبُ الجميع، من دون أن يعثروا له على إجابة.

كانت السَّاعةُ آنذاك الثَّانيةَ صباحاً.

كان البركانُ يتسعَّرُ ويقصِفُ باهتياجٍ متزايدٍ ودونما توقُّف. كان يبدو وكأنَّ الجزيرة بأكملِها كانت تحترق.

كان الأمريكيُّون الثَّلاثة، والقبطانُ، والطَّيَّارُ، والمرحَّلان، مستلقين على سطحِ القبَّةِ، وقد تشبَّثوا بقوَّةٍ بالعوارض.

الأمواجُ، تلك التي كانت تتقلَّبُ عبرَ القناة، لم تتوقَّفْ عن الانقضاض على ذلك الحاجز العملاق الذي كان يمنعها من التَّمدُّد بحُرِّيَّة. كانت تأتي واحدةً تِلْوَ الأخرى، على فتراتٍ قصيرةٍ جدَّاً، مُستنهِضةً من القاعِ أمواجاً أخرى أشدَّ هولاً.

على حين غرَّةٍ ارتفعَتِ المدينةُ العائمةُ عدَّةَ أمتارٍ، مع هزيزٍ مُصِمٍّ، ثمَّ انقلبَتْ على أحد جوانبها، مائلةً نحوَ الشَّاطئ الذي ظهرَ فجأةً بعد آخرِ موجةٍ مَدِّيَّة.

جزءٌ من القبَّةِ انهشَمَ مع دويٍّ هائلٍ، متهاوياً في جوفِ المدينةِ ومعه جاو والفتى المرحَّل اللذان كانا موجودَين لسوء حظِّهما في ذلك الجانب.

أمَّا الأمريكيُّون الثَّلاثة، والقبطانُ، والطَّيَّارُ، فقد كانوا أوفر حظَّاً واستطاعوا أن يثبوا إلى البرِّ في الوقتِ المناسب، متسلِّقين بسرعةٍ جُرُفَ الشَّاطئ الوعرَ، قبلَ أن تُعاوِدُ موجةُ القاعِ المدِّيَّةُ هجومَها.

كان البحرُ في ذلك المكان يقدِّمُ مشهداً رهيباً إلى أقصى الحدود.

باصطخابٍ مَهولٍ كانت أطوادُ الموجِ، التي صُدَّ اندفاعُها الأهوجُ بفجاجةٍ، تنقضُّ على الجزيرة.

أعمدةٌ ضخمةٌ من الزَّبد كانت تهوي، مع دويِّ الرَّعدِ، على الصُّخورِ، متفتِّتةً ومذرورة.

مصفوعةً بالموجِ مِن كلِّ جانبٍ، كانت المدينةُ العائمةُ ترتطمُ بالسَّاحل ثمَّ تبتعدُ عنه لتعودَ فترتطمَ به من جديد.

الصُّندوق المعدنيُّ الهائلُ الذي بقي لِسنواتٍ طِوالٍ، مِن مكانه على الصَّخرة التي أُوثِقَ إليها، يتحدَّى غضباتِ الأطلسيِّ من غير أن ينال جزاءَه، كان آخذاً في التَّحطُّمِ شيئاً فشيئاً. صرخاتٌ رهيبةٌ كانت ترتفعُ من الدَّاخل.

كان المرحَّلون، وقد رأوا الماء يتدفَّق عبرَ القبَّةِ نصفِ المحطَّمة، يفرُّون من كلِّ جانبٍ، خيفةَ الموتِ غرقاً في الأمواجِ الهائلةِ المنصبَّةِ من الأعلى.

"لقد انتهى أمرُهم!" قالَ القبطان، وهو يتشبَّث بصخرةٍ بجانب براندوك.

"أتظنُّ ذلك؟" سألَهُ هذا بصوتٍ مُنفعِل.

"لا يمكن لأيِّ صرحٍ بشريٍّ أن يتحمَّلَ مثلَ هذه الضَّربات. في غضون نصفِ ساعةٍ، وربَّما أقلَّ، تلك الجدران المعدنيَّة ستنشقُّ ولن ينجوَ أحدٌ من أولئك البائسين".

"ألا يمكننا القيامُ بأيِّ مسعىً لانتزاعهم من براثن الموت؟" سألَ طوبي الذي كان على الجانب الآخر من القبطان.

"وماذا تريدنا أن نفعل؟ إذا نزلنا، حملَتْنا الأمواجُ بعيداً من دون أن نتمكَّن من إغاثةِ أحدٍ من سكَّان المدينة البائسة".

"إنَّ قلبي ليتحطَّمُ من رؤيتهم يموتون جميعاً على هذا النَّحو".

"افترضْ أنَّك تشاهدُ سفينةً تغرق. المحيطُ يُطالبُ من وقتٍ إلى آخر بقرابينه".

"ونحن ما الذي تخبِّئه الأقدارُ لنا؟" سألَ براندوك.

"لن يكون بالتَّأكيد بالأمر المبهج، إذا لم تأتِ سفينةٌ ما لإنقاذنا" أجابَ القبطان. "غداً سنجدُ أنفسَنا بين الأُسُودِ، والنُّمورِ، والفهودِ، واليَغوَرات، ولا أعرف كيف سنتصرَّف، فعلى هذه الجزيرة بالتَّحديد حشدوا كلَّ الوُحْشان الضَّارية القادرة على الدِّفاعِ عن أنفسِها بأنفسِها وبالتَّالي على حفظِ سلالاتِها".

"وليس معك إلَّا ذلك المسدَّس!"

"لا شيء آخر، يا سيِّدي".

"نحن إذاً أمامَ خطرِ أن تنتهي رحلتُنا في بطون هؤلاء السُّكَّان المتوحِّشين والدَّمويِّين".

"للأسف".

"لن نتفجَّع إذاً للمصير الذي حلَّ بسكَّانِ المدينةِ الغائصة".

"بل إنَّنا قد نحسدهم عليه" أجابَ القبطان.

في تلك الأثناء استمرَّ الصُّندوق الفولاذيُّ الهائل، مدفوعاً مرَّةً تِلْوَ المرَّةِ من الأمواج التي لم تتوقَّف لحظةً عن ضربه، بمناطحةِ صخورِ الشَّاطئ والتَّهاوي مع قعقعاتٍ كأنَّها خارجةٌ من الجحيم.

الواجهاتُ الزُّجاجيَّةُ الضَّخمةُ تهشَّمَتْ والمياهُ اندفقَتْ كسيلٍ جارفٍ إلى الدَّاخل.

صرخات البائسين وهم يغرقون في القاع، دون أن يكونوا قادرين بأيِّ شكلٍ من الأشكال على التَّملُّص من براثن الموت، كانت تغدو شيئاً فشيئاً أكثر شُحَّاً وأكثر خفوتاً، بينما كان البركان، وعلى العكس من ذلك، يقصِفُ ويُرعِدُ بشكلٍ مَهولٍ مُجارياً هجيجَ العاصفة.

فجأةً رُفِعَت المدينةُ بشراسةٍ مِن قِبلِ موجةٍ رهيبةٍ وانقلبَتْ كُلِّيَّاً رأساً على عقب.

قاعُها المغطَّى بالطَّحالب والرَّواسب البحريَّة تراءى لحظةً في الهواء، ثمَّ ما لبثت الكتلةُ برمَّتها أن ابتُلِعَت واختفَت تحت الأمواج مع أمواتِها وأحيائها، إن كان هناك مَن بقي حيَّاً.

"لقد قُضِيَ الأمر" قالَ القبطان الذي بدا للمرَّةِ الأولى متأثِّراً قليلاً. "ولكن فضلاً عن ذلك، حتَّى لو قُيِّض لهم أن يُفلتوا الآن من الموت، فإنَّهم لن يُفلتوا لاحقاً من انتقامِ المجتمع. قذيفةُ *سيلوريتٍ* واحدةٌ يُعْمَدُ إلى إسقاطِها مِن سفينةٍ هوائيَّةٍ أيَّاً تكن، ستكون كفيلةً بإغراقهم مثلما غرقوا الآن عقاباً لهم على تمرُّدهم".

"ما هو هذا *السِّيلوريت*؟" قالَ طوبي.

"إنَّه مادَّةٌ شديدةُ الانفجار، تمَّ اختراعها حديثاً، وهي قادرةٌ على سحقِ مبنىً من عشرين طابقاً، كما لو أنَّه قلعةٌ بسيطةٌ من الورق المقوَّى" أجابَ القبطان. "أيُّها السَّادة، إنِّي أرى فوقنا صخرةً يبدو لي أنَّها قُطِعَتْ بشكلٍ قائمِ الانحدار تقريباً. أتريدون نصيحةً طيِّبة؟ دعونا نصِلُ إليها قبلَ بزوغ الفجر".

"مع أنَّنا هنا لسنا عرضةً لأيِّ خطر" علَّقَ براندوك. "فالأمواجُ لا تصِلُ إلينا".

"ولكن قد تصِلُ إلينا الضَّواري، يا سيِّدي العزيز" أجابَ القبطان. "فصعودُ هذا الجُرفِ الصَّخريِّ لن يكون صعباً جدَّاً على بَبَرٍ أو على نَمِر. اتبعوني، وإلَّا ندمتم حين لا ينفع النَّدم".

لا أحد، عدا القبطانَ الذي لم يكن يفوتُهُ شيءٌ، كان قد لاحظ قبلَ تلك اللحظة أنَّه إلى الوراء قليلاً كانت توجد صخرةٌ صغيرةٌ، هرميَّةُ الشَّكل، قُدَّتْ جوانبُها بشكلٍ قائم الانحدار، ويمكن أن تتحوَّل إلى ملاذٍ عظيمٍ ضدَّ هجماتِ الوُحوش الغفيرة التي استوطنَتْ رِحابَ الجزيرةِ المتراميةِ الأطراف.

إذْ فطِنَ الأمريكيُّون الثَّلاثة إلى أنَّ خلاصَهم كان يكمن هناك في الأعلى، وعلى الرَّغم من أنَّهم بالكاد كانوا قادرين على الوقوف على أقدامهم، بعد كثيرٍ من الحِراسات الليليَّةِ التي لم يكونوا معتادين عليها، فقد تبعوا القبطانَ والطَّيَّار.

سمحَ لهم الضُّوءُ السَّاطعُ الهاطلُ من البركان الملتهب باختيارِ الجزء الأقلِّ توعُّراً لتسلُّق ذلك المخروط الصَّغير.

بيدَ أنَّ الجدران كانت زَلِقةً للغايةِ حدَّ أنَّ القبطان بدأ يشكُّ كثيراً في إمكانيَّةِ الوصولِ إلى القمَّة، عندما اكتشفَ ما يشبهُ قناةً ضيِّقةً إلى حدٍّ ما، حوافُّها مغطَّاةٌ بشُجيراتٍ، وكانت ترتفعُ بصورةٍ حادَّةٍ جدَّاً، ولكن كان من الممكن الاستفادة منها.

"تشجَّعوا، أيُّها السَّادة" قالَ إذْ رأى أنَّ الأمريكيِّين الثَّلاثة لم يعودوا قادرين على الاستمرار. "ابذلوا جهداً أخيراً بعدُ: عندما تصلون إلى الأعلى سيكون بإمكانكم أن تستريحوا آمنين".

متمسِّكين بالأغصان ومؤازِراً أحدُهم الآخر، تمكَّنوا بعد عشرين دقيقةً من الوصول إلى قمَّة المخروط، والذي كان بطبيعةِ الحالِ مجذوعاً.

كان المنبسَطُ العلويُّ صغيراً للغاية، ولكن كان من الممكن أن يتَّسِعَ لخمسةِ رجال.

"إذا كنتم تشعرون بالنُّعاس، فلتناموا" قالَ القبطان. "سوف ننهضُ نحن بمسؤوليَّةِ الحراسةِ الليليَّة. حتَّى بزوغ الشَّمس لن نكون عرضةً لأيِّ خطر. فالوحوشُ مذعورةٌ جدَّاً من ثوران البركان لدرجةِ أنَّها لن تفكِّرَ في شأننا الآن. لن تغادرَ أوكارَها الليلة".

"إنَّني في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى النَّوم" قالَ براندوك، وكان قد غدا شاحباً جدَّاً كما لو أنَّ ذلك الجهد الفائق الذي بذلَه حطَّمَه كلِّيَّاً. "لا أعلم ما الذي يعتريني: جميعُ أعضائي ترتعش وعضلاتي تنتفض كما لو أنَّها تتلقَّى صدماتٍ كهربائيَّةً مستمرَّة. إنَّها المرَّة الثَّانية التي يحدث لي فيها هذا".

"وأنا أيضاً لديَّ نفسُ الأعراض" قالَ طوبي، متهاوياً على الأرض كجثَّةٍ لا حياة فيها.

"إنَّ نَومةً عميقةً ستكون كفيلةً بإراحتكما" قالَ القبطان. "لقد واجهتما الكثير من الانفعالاتِ في أيَّامٍ معدودات".

هزَّ الطَّبيبُ رأسَه، ونظرَ إلى براندوك الذي كان ينتفض كما لو كان ثمَّة مولِّدُ كهرباء داخلَ جسده.

"هذه الكهرباء العالية التَّوتُّر، التي أصبحَ كلُّ هواءِ الكرةِ الأرضيَّةِ شبيعاً

بها اليومَ والتي لسنا معتادَين عليها، أخشى أنَّها قاتلةٌ لنا،" غمغمَ بعدَ ذلك. "إنَّنا رجُلان من زمنٍ آخر".

على الرَّغم من اصطخابِ الأمواج، وجؤارِ الرِّياح، والهزيمِ المهولِ للبركان، أغمضَ الأمريكيُّون الثَّلاثة أعيُنَهم وسقطوا، على الأثر تقريباً، في النَّوم. كانت قد انقضت عليهم ثلاثُ ليالٍ لم يناموا فيها ووحدهما القبطان وطيَّارُه، المعتادان على الحراساتِ الليليَّةِ الطِّوال، كانا قادرَين على احتمالِ تلك التَّجربة الطَّويلة لمدَّةٍ أطول.

استمرَّتْ تلك النَّومةُ الهانئةُ حتَّى الثَّامنةِ صباحاً، ولا أحد يعلم كم كان من الممكن أن تدومَ لولا أنَّ القبطان أيقظهم بهزَّاتٍ قويَّةٍ ومتكرِّرة.

كان الإعصارُ قد توقَّفَ والشَّمسُ، وقد ارتفعَتْ بالفِعل، كانت تُلقي بأشعَّتها اللاهبةِ على الجزيرةِ المخضوضِرة التي كانت في عهدٍ مضى واحدةً من أجمل لآلئ المحيط الأطلسيِّ.

في وسطِ تلك الأرض الخصبةِ، الغنيَّةِ بأجملِ نباتاتِ المناطق الاستوائيَّةِ، أناخَ، مثلَ عملاقٍ هائلٍ، ذلك البركان الذي كانت ما تزال تخرجُ من فُوَّهتهِ ألسنةٌ ضخمةٌ من النَّار وسُحُبٌ كثيفةٌ من الدُّخان كانت تعتِّمُ وجهَ السَّماء.

كلُّ غاباتِ الجبلِ كانت تشتعل، متلوِّيةً تحت طبقاتِ الصُّهارةِ البركانيَّة التي كانت تسيلُ إلى السُّهول دونما توقُّف.

كلُّ السُّهول التي كانت تمتدُّ حتَّى شواطئ البحر، مع تموُّجٍ خفيفٍ، كانت مغطَّاةً بغاباتٍ رائعةٍ من النَّخيل، وجوزِ الهند، والموز.

ولكن لم يكن هناك أيُّ منزلٍ، أو أيُّ قطعةِ أرضٍ مزروعة: القِلاعُ والقرى كانت قد اندثرَتْ تحتَ ذلك الغطاء النَّباتيِّ الكثيف.

"أهذه هي إمبراطوريَّةُ الوُحْشان الضَّارية؟" سألَ براندوك، وكان قد تعافى قليلاً من اختلاجاته العصبيَّة.

"نعم، يا سيِّدي" أجابَ القبطان.

"ولكنَّني لا أرى تلك الحيوانات الوحشيَّة".

"لن ترغبَ في رؤيتها، يا سيِّدي. أوه، إنَّها لن تتأخَّر في الوصول".

"إنَّك مُحِقٌّ، أيُّها القبطان،" قالَ الطَّيَّار "إنَّها لن تتأخَّر على الإطلاق. ها إنَّ بعضها يُطلُّ برأسه من بين الشُّجيرات التي تحيط بالصَّخرة. لقد اشتمَّتْ رائحتنا بالفِعل، وهي تستعدُّ الآنَ لملء بطونها بلحومِنا. إنَّها هناك، انظروا!"

تتبَّعَ القبطانُ والأمريكيُّون الثَّلاثة بنظراتهم الجهةَ التي كان الطَّيَّارُ يشيرُ إليها بذراعِهِ ولم يستطيعوا دَرْءَ قشعريرةِ الذُّعرِ التي حلَّتْ بهم.

ثلاثون أو أربعون حيواناً، بجلودٍ صفراءَ مُحْمَرَّةٍ ولُبُودٍ سوداءَ كثيفةٍ، كانت تشقُّ طريقها عبرَ الشُّجيرات، مقتربةً من الصَّخرةِ العريضةِ التي كانت بمثابةِ ركيزةٍ للمخروط.

"إنَّها زمرةٌ من الأُسُود!" هتفَ القبطان. "هاكم بعض الجيران المروِّعين الذين سيجعلوننا نُمضي أشدَّ ربع ساعةٍ هولاً في حياتنا".

"أيمكن أن يصِلوا إلينا؟" سألَ طوبي وهولكر اللذان كانا أكثر خوفاً بكثيرٍ من براندوك.

"يمكنهم أن يحاولوا الانقضاضَ علينا من جانبِ الأخدود" أجابَ

القبطان. "ولكنّه لحسن الحظِّ منفَذٌ ضيِّقٌ ولا يستطيعون المرورَ فيهِ إلّا واحداً واحداً".

"ألديك ما يكفي من الطّلقاتِ لردعِهم؟" سألَ براندوك.

"ستّةٌ منها سأتكفّلُ بصدِّها أنا؛ أمّا بقيّةَ الأُسُود... آه! اجمعوا ما استطعتم من الحصى والحجارةِ وكلِّ ما قد ينفعُنا من أشياء يمكن قذفُها. إنّها موجودةٌ هناك في الأخدود. بسرعة، أيُّها السّادة! ليس هناك وقتٌ لنضيِّعَه!"

انزلق الرِّجالُ الخمسةُ من خلال الصّدع، حيث كان هناك عددٌ ليس بالقليلِ من الحجارةِ المنفصلةِ عن الصّخرةِ الأمِّ بفِعْلِ الهطولاتِ الغزيرة.

بجهدٍ فائقٍ استجرُّوا العديدَ منها إلى المنبسَطِ الصّغير، راصِفين إيّاها أمامَ فمِ الصّدع.

كانوا قد فرغوا لتوِّهم من تكديسِ ما جمعوه، عندما شرعَت الأُسُودُ، وقد أعيَتْ أيَّ إعياءٍ من النّظرِ إلى الرِّجال الخمسةِ من بعيد، في صعودِ الصّخرة.

كانت تزأرُ زئيراً يملأ القلوبَ رُعباً وتكشِّرُ عن أنيابٍ حادّةٍ، فيما لُبُودُها تنتصب.

ما كان مِن ذكرٍ ضخمٍ، عظيمِ البُنيةِ، بعدَ أن اعتلى الرّكيزةَ مُطلِقاً زأرةً هائلةً كأنّها قصْفُ الرّعد، إلّا أن تسلّلَ داخلَ الصّدْعِ، غارزاً براثنَهُ في شقوق الصّخر.

"فلندّخر ذخيرتنا ما دامَ في مقدورنا ذلك" قالَ القبطان. "ساعدوني على رمي هذه القنبلة، أيُّها السّادة!"

قاموا بتوجيه صخرةٍ وزنها حوالي أربعين كيلوغراماً كانوا قد رفعوها قبلَ قليلٍ من ذلك، ليس دونما مشقَّةٍ، حتَّى بلغوا بها المنبسَط، وانتظروا اللحظةَ المناسبةَ لرميها.

مُرتاباً في أمر تلك المناورة، توقَّفَ الأسدُ في مكانه؛ ولكنَّه ما لبث أن عاودَ الصُّعودَ ثانيةً، مدفوعاً بالجوع ومُهاجاً بزئيرِ رفاقِه. القبطانُ، وكان قد هيَّأ مسدَّسَه الكهربائيَّ أيضاً للإطلاق، انتظر أن يندفعَ الأسدُ أكثرَ إلى الأمام، ثمَّ صاحَ:

"ارموا!...".

بسرعةِ البرقِ اندفعَ الحجرُ المُلْقَى بقوَّةٍ، متدحرجاً نحو الأسفل عبرَ الصَّدعِ، وسقطَ على الوحش الذي كان قد دخلَ في تلك اللحظةِ عنقَ الزُّجاجة.

مُصاباً على رأسِهِ بتلك القذيفةِ التي مِن صِنفٍ جديدٍ، خرَّ الأسدُ صَعِقاً، سادّاً بجثَّتِهِ المنفَذَ.

بيدَ أنَّه لم يكن عائقاً كافياً أمامَ أولئك الوثَّابين الذين لم يكونوا ليتراجعوا حتَّى وإن انتصبَ أمامهم حصنٌ بارتفاعِ ثلاثة أو أربعة أمتار.

كان أسدٌ آخرُ قد دخلَ الصَّدْعَ دونما إبطاءٍ ومن دون أن يراه المحاصَرون الذين كانوا مُستغرِقين للغايةِ في مراقبةِ حركاتِ قرينهِ الأوَّل، مُعلِناً عن وجودِهِ بإطلاقِ زأرةٍ هائلة. لم يكن القفزُ من فوق جثَّةِ رفيقه والتَّأهُّبُ للهجوم سوى مسألةِ هُنيهةٍ واحدة.

لم يكن لدى المنافحين عن الأكمةِ الصَّخريَّةِ الوقتُ الكافي للإلقاء بحجرٍ جديد. لحسن الحظِّ، كان القبطانُ ممسكاً بالمسدَّس.

سُمِعُ صوتُ أزيزٍ خفيفٍ فإذا الوحشُ الثَّاني مطروحٌ على الأرضِ مع رصاصةٍ في الدِّماغ.

"أحسنت، أيُّها القبطان!" صاحَ براندوك.

أمَّا الأُسُود الأخرى، والتي كانت أشدَّ حذراً، فقد أحجمَتْ عن الصُّعود؛ ثمَّ راحت تدورُ وتدورُ حولَ المخروط، مالئةً بزئيرها الفضاء.

في أثناء ذلك، وعندَ حافَّةِ الغابة، كانت الحيوانات الأخرى قد ظهرت. كان هنالك نمورٌ، وفهودٌ، ويَغوَراتٌ، ومن الغريب أنَّها كانت تبدو في علاقاتٍ طيِّبةٍ مع بعضها البعض، بما أنَّ أحداً منها لم يكن يهاجمُ الآخر، مثلما كانت لتفعل على الأرجح لو أنَّها كانت في غاباتها الأصليَّة.

ربمَّا كان الاحتكاكُ المتواصلُ قد حملَها على الاحترام المتبادَل، بعدَ إذْ أقرَّتْ بأنَّ قواها في تكافؤٍ تامٍّ تقريباً. غير أنَّه من المؤكَّد أنَّها لم تكن مضطرَّةً إلى احترام أولئك الضِّعاف، لئلَّا تقضي جوعاً.

"إنَّ وضعنا يُنذِرُ بأن يصيرَ فاقداً كلَّ أمل" قالَ القبطان. "فحتَّى لو نجحنا في القضاء على الأُسُود، ثمَّة حيواناتٌ أخرى لا تقلُّ خطورةً عنها، متأهِّبةٌ لتحلَّ محلَّها. لقد قلتُ لكم، أيُّها السَّادة، إنَّنا سنتحسَّرُ على النِّهاية التي انتهى إليها أمرُ المرحَّلين. كان من الأفضل لنا أن نموتَ غرقاً، مِن أن نقع بين براثن وأنياب هذه الوحوش. لقد ادَّخَرَنا المحيطُ لكي يحملَنا إلى نهايةٍ أكثر بؤساً. كان بإمكانه أن يبتلعَنا ولم يفعل. ماذا تقترحُ، أيُّها الطَّيَّار؟"

لم يُجب الملَّاح. بيدٍ ممدودةٍ أمامَ عينيه كان ينظرُ إلى الأعلى، محدِّقاً بتركيزٍ شديد.

"حسناً، أيُّها الطَّيَّار، هل انعقدَ لسانُك؟" سألَ القبطان.

في اللحظةِ نفسِها انطلقتْ صيحةٌ من بين شفتي الملَّاح:

"ثمَّة نقطةٌ سوداءُ في الفضاء!"

"أتُراها سفينةٌ طائرةٌ؟" سألَ القبطان، بعدَ إذْ صنعَ قفزةً في الهواء.

"لا أدري، أيُّها القائد، أطائرٌ كبيرٌ هي أم سفينةٌ أتت لنجدتِنا في الوقت المناسب".

"راقبوا ذلك الشَّيءَ جيِّداً، في الوقتِ الذي أُبقي أنا فيهِ عينيَّ على الأُسُود".

كان براندوك ورفيقاه قد التفتوا أيضاً، ليحدِّقوا في السَّماء.

نقطةٌ سوداءُ، ممطوطةٌ قليلاً، لا يمكن الخلطُ بينها وبين طائرٍ من الطُّيور، أكان عُقاباً أم كوندوراً، كانت تنمو بسرعةٍ خياليَّةٍ ماخرةً الفضاءَ على ارتفاعٍ غير عاديٍّ، كما لو أنَّها تريد العبورَ فوق عمودِ النَّار والدُّخان الهائلِ الذي كان يندفعُ متدفِّقاً من فُوَّهةِ جبلِ "تيد".

"أجل! إنَّها سفينة! سفينة!" صاحَ الجميع.

"هاكُمُ الخلاصُ الذي يُدرِكُ الإنسانَ في الوقتِ المناسب" أجابَ القبطان، مُطلِقاً النَّارَ على الأسدِ الثَّالث الذي كان قد اتَّخذ قرارَه بالانتقالِ إلى الهجوم.

اختفت السَّفينةُ الطَّائرةُ لبضعِ لحظاتٍ وسطَ زوابع الدُّخان، ثمَّ عادت

إلى الظُّهور هابطةً بسرعةٍ كبيرة. كانت قد وجَّهَتْ جؤجؤَها صوبَ المخروط الصَّغير وراحت تتقدَّمُ باندفاعةِ طائرِ كوندور.

"لقد أبصرونا، وها هم يتوجَّهون نحونا!" هتفَ الطَّيَّار. "تحمَّلْ بضعَ لحظاتٍ بعدُ، أيُّها القائد!"

وكما لو أنَّ الأُسُودَ أدركَتْ أنَّ الفريسة البشريَّة على وشك التَّملُّصِ منها، فقد عادَتْ إلى الهجوم، في حين خرجَتْ عدَّةُ نمورٍ وعدَّةُ يَعْوَراتٍ من مكمنها بين الشُّجيرات لكي تشارك هي أيضاً في تلك الوليمةِ البشريَّة.

لم يتردَّد القبطان، إذْ رأى وحشاً آخرَ يتسلَّلُ إلى الصَّدْع، في استهلاك طلقةٍ أخرى، ولكونه مُسدِّداً ماهراً فإنَّه، هذه المرَّة أيضاً، لم يُخطئ الهدف.

"وهاكُمُ الثَّالث" قال. "ولكن ما يزال هناك خمسة عشر أو ستَّة عشر دون أن نأخذ بالحسبان كلَّ الوحوش الأخرى التي يبدو أنَّها متلهِّفةٌ لتذوُّق القليل من اللحم البشريِّ. ولكنَّها ليست مخطئةً بطبيعةِ الحال. لقد مرَّتْ بالتَّأكيد سنواتٌ كثيرةٌ لم تتذوَّق فيها مثلَ هذه الأطباق".

كان أسدٌ رابعٌ، بعدَ إذْ أطلقَ زأرةً مرعبةً، قد اندفعَ هو الآخرُ عبرَ الصَّدعِ، قافزاً من فوق جثثِ رفاقِهِ، ولكنَّه لم يكن أوفرَ حظّاً.

يَقِنين بأنَّهم سيُرفَعون إلى متن السَّفينة الطَّائرة التي كانت آخذةً في التَّضخُّم لحظةً بلحظة، شرع النَّاجون من المدينةِ الغائصةِ في دحرجةِ الصُّخور التي جمعوها، مُلقين بها في جميع الاتِّجاهات، لا لإيقافِ هجماتِ الأُسُودِ فحسب، بل وهجماتِ الوُحشان الأخرى أيضاً.

كان لذلك الوابلِ من الصُّخور أثرٌ أكثر نجاحاً من ذلك الذي لطلقاتِ مسدَّسِ القبطان.

بدأتِ الوحوشُ، وقد ذُعِرَتْ، بالتَّراجعِ، قافزةً قفزاتٍ هائلةً، كي لا تتحطَّمَ ضلوعُها تحت وابلِ الصُّخور.

"تشجَّعوا، أيُّها السَّادة!" راحَ يصيحُ القبطان، مُطلِقاً بين الفينةِ والأخرى النَّارَ من مسدَّسه. "فلنطردْ هذه الوِغاب الجائعة إلى أدغالها".

وتواصلَتْ بضراوةٍ عاصفةُ الصُّخور والحصى، وخاصَّةً داخلَ الأخدودِ حيث كانت الضَّواري تحاولُ الانسلالَ خفيةً، كونها نقطةَ الضَّعف الوحيدة في أكمةِ المخروطِ الصَّخريِّ الصَّغير.

كان ذلك الصِّراعُ اليائسُ مستمرَّاً دونما توقُّفٍ منذ عدَّة دقائق عندما، فجأةً، صوتٌ جهيرٌ وفي نفسِ الوقتِ متسلِّطٌ، سقطَ عليهم من الأعلى.

"الجميعُ أرضاً!"

رفعَ القبطان ناظرَيه. كانت السَّفينةُ الطَّائرةُ، وهي سفينةٌ جميلةٌ مطليَّةٌ بالكاملِ باللون الرَّماديِّ، ومزوَّدةٌ بمراوحَ هائلة، قد أصبحت في تلك اللحظةِ فوق رؤوسهم تقريباً.

"امتثِلوا أمرَنا!" صرخَ بهم.

سارعَ الجميعُ إلى الاستلقاء مِن دون أن يطالبوا بأيِّ تفسير.

بعد هُنيهةٍ من ذلك، سقطَتْ كرةٌ حمراء، لا يزيد حجمُها على حجمِ برتقالة، عندَ نهايةِ الأخدود، حيث كانت أُسُودٌ ونمورٌ ويَغورَاتٌ قد احتشدَتْ، في انسجامٍ كاملٍ، لتقوم بمحاولةِ انقضاضٍ أخيرٍ وأشدَّ هولاً على المخروط الصَّخريِّ.

سُمعَ صوتُ انفجارٍ رهيبٍ جعلَ الجرفَ الصَّخريَّ يهتزُّ وأثارَ سحابةً ضخمةً من الغبار.

كانت قنبلةٌ صغيرةٌ من تلك المادَّة المتفجِّرةِ الرَّهيبة التي كان رُبَّانُ القنطورِ قد أسماها *"سيلوريت"*، هي ما انفجرَ وسطَ الضَّواري.

"انهضوا، أيُّها السَّادة!" صاحَ الصَّوتُ نفسُه. "الآنَ لم يعد هناك المزيدُ من الوحوش حولَكم".

كان براندوك أوَّلَ مَن نهضَ واقفاً على قدميه.

كانت الآثارُ النَّاجمةُ عن تلك القنبلةِ الصَّغيرةِ مخيفةً حقَّاً.

نصفُ الصَّخرةِ التي كانت بمثابةِ ركيزةٍ للمخروط كان قد اقتُلِعَ من أصلِهِ مُفتَّتاً وأمَّا الوحوشُ فصارَتْ أثراً بعدَ عَين. لقد جعلَتْ تلك المادَّةُ المتفجِّرةُ القويَّةُ نموراً وأُسوداً ويَغوَراتٍ مجعلَ الهباءِ المنثور.

"كيف يمكن لحربٍ أن تكون ممكنةً مع مثلِ هذه القنابل؟" غمغمَ الأمريكيُّ. "إنَّ عشرَ سفنٍ طائرةٍ ستكون كافيةً، وفي غضون عشرِ دقائق، لتدميرِ أكبر المدنِ في العالَم".

انخفضتِ السَّفينةُ بهوادةٍ، فيما ألقى طاقمُها سلَّماً حبليَّاً.

كان رُبَّان القنطور أوَّلَ مَن التقطَهُ واندفعَ إلى الأعلى، حيث كان رجلٌ كثيفُ اللحيةِ وضخمٌ للغايةِ في انتظاره مبتسماً، بذراعين مفتوحتين.

"طومبسون!" هتفَ رُبَّانُ القنطور، بعدَ إذِ اجتازَ جانبَ السَّفينة.

"فيرسن!" هتفَ الآخرُ، مُصافحاً إيَّاه بحرارةٍ، على طريقةِ الإنجليز. "لقد كنتُ أبحث عنك منذ أسبوع".

"أنت؟!"

"نبأ استيلاء أولئك المجرمين على سفينتك كان قد وصلَ إلى إنجلترا وإلى فرنسا. أتعلمُ أنَّهم تجرَّؤوا على مهاجمة السُّفن البحريَّة؟"

"مَن؟"

"أولئك الذين سرقوا القنطورَ".

"وماذا حدث لهم؟"

"لقد أغرقتُهُم، بواسطة نصف دزِّينةٍ من قنابلِ *السِّيلوريت*، على بُعْدِ مِائتي ميلٍ عن جبل طارق".

"وسفينتي نُسِفَتْ معهم؟"

"لقد رفضوا الاستسلام".

"لا بأس! الحكومة البريطانيَّة ستعوِّضُني خسارتي" قالَ رُبَّانُ القنطور، هازَّاً كتفيه. "أفضِّلُ أن أرتاحَ في قعرِ المحيط على أن أراها وقد تحوَّلَتْ إلى سفينةِ قراصنة. ألتمسُ ضيافتكم لي ولهؤلاء السَّادة الذين برفقتي. إلى أين أنت ذاهبٌ؟"

"إلى فرنسا".

"رائعٌ جدَّاً: إنَّها دائماً بلدٌ خلَّاب".

كان براندوك، وطوبي، وهولكر، والطَّيَّار، قد صعدوا هُمُ أيضاً إلى السَّفينة. غيرَ أنَّ الأوَّلَ، ما إن وضعَ قدميه على الجسر حتَّى استولتْ عليه رعشةٌ شديدةٌ جدَّاً أوشكَ بسببها أن يسقطَ على هولكر.

"ما الذي ينتابُكَ، يا سيِّدي؟" سألَ رُبَّانُ القنطور.

لم يُجب براندوك في الحال. كان متغيِّرَ الهيئةِ وشاحباً للغاية.

كانت عيناه، وقد توسَّعَتْ حدقتاهما كثيراً، تبدوان وكأنَّهما على وشك القفز من محجريهما، فيما راحت عضلاتُ وجهه تنتفضُ بشكلٍ غريب.

"ما الذي ينتابُكَ إذاً، يا سيِّدي؟" كرَّرَ رُبَّانُ القنطور سؤالَه.

"هذه السَّفينةُ مُسَيَّرَةٌ كهربائيَّاً، أليسَ كذلك؟" سألَ الأمريكيُّ أخيراً، بصوتٍ بدا مغايراً جدَّاً لدرجةٍ أدهشَتِ الجميع.

"نعم، يا سيِّدي".

"الآنَ فهِمْتُ... يا طوبي!"

لم يَجِرِ الطَّبيبُ جواباً. كان واقفاً في منتصفِ جسرِ السَّفينة، يُحدِّقُ في مصباحٍ ضخمٍ من مصابيح الرَّاديوم بنظرةٍ زجاجيَّةٍ شبيهةٍ بتلك التي يراها المرءُ عندَ المنوَّمين مغناطيسيَّاً.

هو الآخرُ كان شاحباً للغاية ويرتعدُ كما لو كان يخضعُ بين الفينةِ والأخرى لصدماتٍ كهربائيَّة.

"ما الذي ينتابُ هذين السَّيِّدَين؟" سألَ طومبسون.

"لا أدري"، أجابَ رُبَّانُ القنطور الذي بدا متأثِّراً بشدَّة. "إنَّها المرَّة الثَّانية أو الثَّالثة التي أراهما فيها يرتعدان بهذا الشَّكل".

"مَن يكونان؟"

"إنَّهما سيِّدان أمريكيَّان يطوفان حول العالم".

في تلك اللحظة دنا هولكر منهما.

"إنَّ صديقَيَّ غيرُ معتادَين على التَّيَّار الكهربائيِّ القويِّ الذي يسودُ هذه السُّفن" قالَ للرُّبَّانَين. "هلَّا تُوعزُ إلى الطَّاقم في نقلهما إلى مقصورتيهما، وتحاولُ بلوغ اليابسة بأسرع وقتٍ ممكن. أقدِّم لك ألف دولارٍ إذا ما أوصلتَنا بحلولِ الغدِ إلى لشبونة".

"سوف أضغطُ على المحرِّكات بقدرِ ما أستطيع" أجابَ طومبسون.

"بل أكثر ممَّا تستطيع" قالَ هولكر، وقد بدا في غايةِ الجزع.

اقتربَ من براندوك الذي كان مستنداً إلى الجدارِ الجانبيِّ الأيسر من السَّفينة، كما لو كان غير قادرٍ على الوقوف من دون مُرتكَز.

"بماذا تشعر، يا سيِّد براندوك؟" سألَهُ بنبرةٍ مُدارِية.

"لا أعرف..." قالَ الشَّابُّ متلعثماً. "يعتريني رُعاشٌ غريبٌ وتَشَوُّشٌ يتعذَّرُ تفسيرُه. لقد انتاباني ما إن وضعتُ قدمَيَّ على هذه السَّفينة. يبدو لي أنَّ دماغي يتلقَّى صدماتٍ كهربائيَّةً مستمرَّة. بينما على قمَّةِ ذلك المخروط الصَّخريِّ كنتُ أشعرُ بأنَّني في أوجِ المعافاة".

"إنَّه التَّوتُّر الكهربائيُّ العالي الذي يسودُ هنا ما يُحْدِثُ فيك هذه

التَّأثيرات، يا سيِّد براندوك. عندما نصبحُ على اليابسة، سيزولُ هذا الرُّعاشُ الذي يعتريك".

هزَّ الشَّابُّ رأسَه بإحباطٍ، ثمَّ قالَ بالذُّؤابةِ التي بقيَتْ مِن صوتِه:

"أنا وطوبي رجلان من أزمنةٍ أخرى".

حملَ أربعةُ ملَّاحين أقوياء الشَّابَّ الأمريكيَّ وطوبي تحت آباطهم واتَّجهوا بهما إلى مقصوراتِ كوثلِ السَّفينة، ليضعوهما في سريرَين مُريحَين.

"أخشى أنَّ هذين الرَّجلين هالِكان" همهمَ هولكر. "في عصرهما لم تكن الكهرباء قد بلغَتْ مثلَ هذه الفورةِ الهائلة بَعْد. ما الذي سيحدث لهما؟ لقد بدأ الخوف ينتابني".

في اليوم التَّالي، وقُبَيلَ منتصفِ النَّهار، وَلَجَتِ السَّفينةُ نهرَ تاجة ودخلَتْ بأقصى سرعتها عاصمةَ البرتغال.

شيئاً فشيئاً خفَّتْ حدَّةُ الرُّعاشِ لدى براندوك وطوبي، ولكنَّهما لم يعودا يبدوان ذينك الصَّديقين المبتهجين اللذين كاناهما مِن قبل. كان يبدو أنَّ هاجساً عميقاً كان يشوِّشُ دماغيهما، وعندَ أدنى انفعالٍ كان الرُّعاشُ والنَّفْضُ العضليُّ يعاودانهما من جديد.

أوعزَ السَّيِّدُ هولكر، وقد بدأ يشعرُ بالذُّعر، في حملِهما إلى محطَّة القطار حيث كان قد استأجرَ مقصورةً خاصَّة.

بعدَ خمسٍ وعشرين دقيقةً من ذلك، غادرَتِ العرباتُ منطلِقةً داخلَ تجويفِ خطِّ الأنفاق، بسرعةِ مِائتي كيلومترٍ في السَّاعة.

تمَّ اجتيازُ الأرض الإسبانيَّةِ في ستٍّ ساعاتٍ دونَ النُّزول في أيَّةِ محطَّة.

كان هولكر، وهو يرى حالَ رفيقَيه تزدادُ سوءاً أكثر فأكثر، في عجلةٍ من أمره للوصول إلى العاصمةِ الفرنسيَّةِ بغيةَ التَّشاور مع أحد أولئك العلماء حولَ المرض الذي أصابهما والذي ربَّما كان له منشأٌ آخر.

في صبيحةِ اليوم التَّالي، نزلوا في محطَّةِ العاصمةِ الفرنسيَّة التي كانت قد تضاعفَتْ في تلك المِائة عامٍ من حيث المساحة وعدد السُّكَّان، لتصبحَ واحدةً من أكبر المدن الصِّناعيَّة في العالَم.

غيرَ أنَّ هواءَ العاصمةِ الكبرى، الشَّبيعَ بالشِّحناتِ الكهربيَّة بسبب عددٍ لا حصر له من الآلاتِ الكهربائيَّةِ، لم يفعلْ سوى أنَّه فاقمَ أحوالَ طوبي وبراندوك سوءاً.

حُمِلا إلى أحدِ الفنادق وهما في حالةٍ من الهذيان.

عمدَ السَّيِّد هولكر فوراً، وكان ذُعرُه ما ينفكُّ يزدادُ استفحالاً، إلى استدعاء واحدٍ من أمهر الأطبَّاء المشهورين وقصَّ عليه ما حدثَ لصديقيه التَّعيسَي الحظِّ، من دون أن ينسى إخبارَه بما كان من أمرِ قيامتهما الإعجازيَّة.

الجوابُ الذي تلقَّاهُ كان فظيعاً.

"على الرَّغم من أنَّني أجدُ صعوبةً في تصديق أنَّ هذين الرَّجلين قد عثرا على سرِّ القدرةِ على النَّومِ قرناً كاملاً،" قالَ الطَّبيب "لا أنا ولا الآخرين يمكننا إنقاذهما. وسواءٌ أكان الأمرُ عائداً إلى الكهرباء الشَّديدة التي لم يكونا معتادَين عليها أم للانفعالاتِ القويَّةِ التي اعترتهما لِما رأياه مِن عجيبِ صنائعنا، فإنَّ دماغهما قد عانى صدمةً لن يبرأ من آثارها أبداً. عليك

بنقلهما إلى جبالِ أوفيرني، لوضعهما في مصحَّة صديقي بانْدين. فمن يدري؟! لعلَّ هواءَ تلك القممِ المنعشَ قادرٌ على صنعِ معجزةٍ ما".

في اليومِ نفسِه، صعدَ السَّيِّد هولكر برفقةِ ممرِّضتين ومعهم ذانك المخبولان إلى متن سفينةٍ طائرةٍ استأجروها بصورةٍ خاصَّةٍ، وغادرَ بهما إلى أوفيرني.

بعد شهرٍ من ذلك، استقلَّ وحيداً وحزيناً قطارَ خطِّ باريس الحديديِّ عائداً إلى أمريكا. كان آنذاك قد فقدَ كلَّ أمل.

كان براندوك وطوبي قد أُعلِنا رسميَّاً مجنونَين، وأكثر من ذلك مجنونَين لا يُرجَى بُرْؤهما.

"ليتهما لم يستفيقا من رقدتهما المئويَّة" غمغمَ السَّيِّد هولكر مع تنهيدةٍ طويلةٍ، آخذاً مكانه في مقصورةِ العربة. "أتساءَلُ الآن عمَّا إذا كانت زيادةُ التَّوتُّر الكهربائيِّ لن تنتهي، بعدَ أمدٍ بعيدٍ أو قريبٍ، بالبشريَّةِ جمعاء إلى الجنون في خاتمةِ المطاف. تلك هي المسألة الكبرى التي ينبغي أن تكترثَ لها عقولُ علمائنا".

فهرس المحتويات

المترجم أمارجي

صدر له:

في شعر:

"ن"، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، ٢٠٠٨.

بِيرودجا: "النَّص- الجسد"، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، ٢٠٠٩.

مِلاحاتٌ إيروسيَّة، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، ٢٠١١.

وردةُ الحيوان، حواريَّة حب شعريَّة مع الشَّاعر الإيطاليَّة ماريَّا غراتسيا كالاندروني، دار التَّكوين، دمشق، ٢٠١٤. (صدر بالإيطاليَّة عن دار تزونا كونتمبورانيا، روما، ٢٠١٥).

في الترجمة:

أفكار، جاكومو ليوباردي، هيئة أبو ظبي للتُّراث والثَّقافة، مشروع كلمة للترجمة، أبو ظبي، ٢٠٠٩.

الأرض الميِّتة، غابرِيل دانُّونتسو، دار طُوى، لندن، ٢٠١٢.

الأعمال الأدبيَّة، ليوناردو دافنشي، دار التَّكوين، دمشق، ٢٠١٥.

الآثار الشِّعريَّة الكاملة لدينو كامبانا، أناشيد أورفيَّة وقصائد أخرى، دار التَّكوين، دمشق، ٢٠١٦.

مَن يوسِّعُ ليَ البحر، ميكِل كاكَّامو، دار التَّكوين، دمشق، ٢٠١٦.

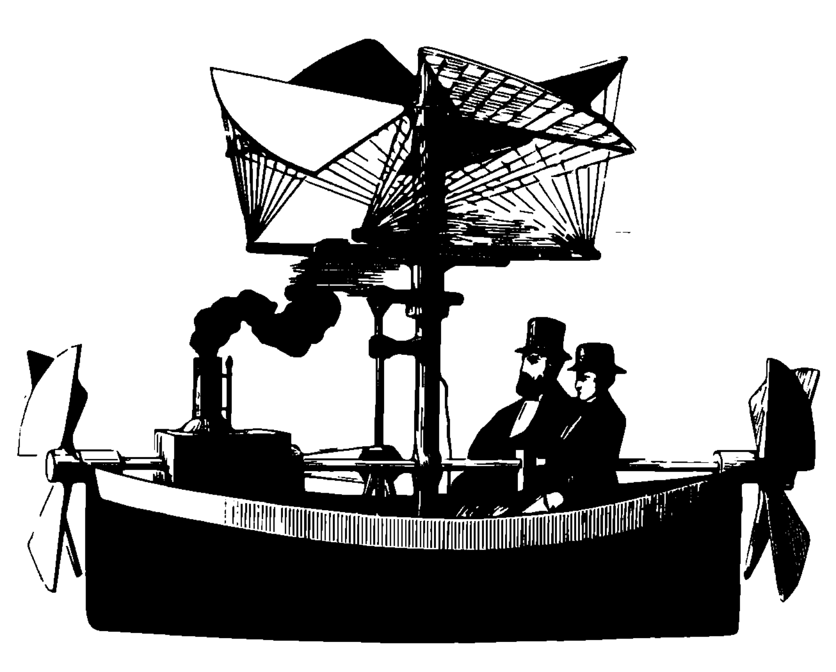
شجرة القنفذ والرَّسائل الجديدة، أنطونيو غرامشي، دار التَّكوين، دمشق، ٢٠١٦.

خبزٌ ونبيذ وقصائدُ أخرى، هولدِرْلِن، دار التَّكوين، دمشق، ٢٠١٦.

جسدٌ وسماء، بيير باولو بازوليني، دار نينوى، دمشق، ٢٠١٦.

البحرُ المُحيط، ألِسَّاندرو باريكُّو، منشورات المتوسِّط، ميلانو، ٢٠١٧.

واحدٌ ولا أحد ومِائة ألف، لويجي بيراندِللو، منشورات المتوسِّط، ميلانو، ٢٠١٧.



تُعَدُّ هذه الرِّواية العملَ الأهمَّ في تاريخِ أدب الخيال العلميِّ الإيطاليِّ وفقاً لإجماع النُّقَّاد، وكانت قد صدرَتْ في سنة ١٩٠٧، وهي تتمحورُ حولَ رحلةٍ إلى المستقبل يقومُ بها رجلان يعيشان حياةً يخيِّمُ عليها الضَّجر والوحدة، فإذا بهما يقفزان إلى الأمام مائة عامٍ في الزَّمن، من سنةِ ١٩٠٣ إلى سنةِ ٢٠٠٣، ليعيشا حلماً من أحلامِ المستقبل المجهول، مستقبلٍ يبرعُ الكاتبُ في رسمِ ملامحه التي ستبدو لنا في كثيرٍ من الأحيان لصيقةً بواقعنا على نحوٍ مُخيف.

لا حدود لمخيِّلة سالغاري في هذه الرِّواية التي يصبُّ فيها نبوءاته المستقبليَّة ويطرحُ تساؤلاته الوجوديَّة، على طريقته، في قالبٍ مشوِّقٍ من الأحداث التي تتصاعدُ وصولاً إلى تلك الأوديسَّة التي يعيشها الأبطالُ عبرَ المحيط الأطلسيِّ العاصف، في صراعٍ مع أهوال الطَّبيعة ومع نزلاءِ مدينةِ إسكاريو البحريَّة ومع الوُحشانِ الضَّاريَةِ في جزيرة تَنرِيْف، في تثنويَّةِ العجزِ الكليِّ والعَظَمَةِ اللَّانهائيَّة للإنسان، كأنَّما الكاتب يريدُ أن يقولَ في نهاية المطاف إنَّ وجودَنا البشريَّ ليسَ مكفولاً بأيِّ شيءٍ على الإطلاق.



ISBN 978-88-85771-67-3
9 788885 771673
المتوسط